مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٢٩٢ . محرم ١٤٣٣ هـ . ديسمبر ٢٠١١ م

مناقشة تولي الإسلاميين السلطة

التحديات التي تواجهها تونس

حوار مع الشيخ الدكتور
طه الدليمي

الإخوان والسلفيون...
مقال مكرر!

التداول الحداثي لنظرية المقاصد

مجلة البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

bayan@albayan.co.uk

مستشفى أبها الخاص
Abha Private Hospital

http://www

الآن...
موقعنا الإلكتروني
في ثوبه الجديد

www.aph.med.sa

- ☑ الحجز
- ☑ الأطباء
- ☑ التخصصات الطبية
- ☑ الاتصال ....

كلها الآن على موقعنا الإلكتروني

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف المجاني: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

YouTube | f | t

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٤ «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا»
التحرير

السياسة الشرعية

٦ مناقشة تولِّي الإسلاميين السلطة
محمد بن شاكر الشريف

الغرب: قراءة عقدية

١٢ الأزمة المالية... قراءة جديدة
فيصل بن علي الكاملي

بلغوا عني ولو آية

١٦ «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ»
د. عبد العزيز كامل

قضايا دعوية

٢٢ الاهتداء والانتكاس
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

٢٤ من معوقات الحَراك الإستراتيجي في المؤسسات الخيرية
عاصم محمد حسن

قضايا تربوية

٢٨ دعائم تربوية من خلال الموعظة القرآنية
أ. أحمد بازز

معركة النص

٣٤ الحلقة المفقودة؟
فهد بن صالح العجلان

مسارات فكرية

٣٦ التداول الحداثي لنظرية المقاصد... دراسة نقدية (١)
سلطان العميري

نص شعري

٤١ ركام اللغو والزبد!
عبد الله عيسى السلامة

حوارات

٤٢ حوار مع الشيخ الدكتور طه الدليمي
أجرى الحوار: أبو بكر أحمد

عاجل إلى الإسلاميين

٤٨ النموذج الخامس
أحمد فهمي

المسلمون والعالم

٥٢ التحديات التي تواجهها تونس
فتحي السعيدي

٥٨ تداعيات الهزيمة الأمريكية والأطلسية في أفغانستان
د. محمد مورو

٦٠ الثورة الإيرانية في غانا
يوسف عمر جلو

٦٦ مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

قصة قصيرة

٧٢ المعروف
محمد عبد الشَّافِي القُوصِي

عين على العدو

٧٤ «كارثة» إستراتيجية للكيان الصهيوني
د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٧٦ تعلُّم اللغة العربية لغير الناطقين بها... الأبعاد السياسية والشرعية
د. أحمد محمود السيد

فكرية

٨٠ الإسلام بين (الإصلاح) و (الثورة)... محاولة لضبط المفاهيم
السنوسي محمد السنوسي

قراءة

٨٤ العَلمانية في المغرب... صراع متجدد
مصطفى الحسناوي الميسوري

بأقلامهن

٨٨ بين التنظير والواقع
سارة محمد حسن

الباب المفتوح

٩١ واجب المستضعفين
د. أشرف عبد المنعم

الورقة الأخيرة

٩٤ الإخوان والسلفيون... مقال مكرر!
أحمد بن عبد الرحمن الصويان

[كلمة صغيرة]

تحديات النهضة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فلا شك أن فوز حزب النهضة في تونس يُعَدُّ حدثاً تاريخياً مهمّاً؛ فبعد أن كان الحزب محظوراً بل طريداً ملاحَقاً، أصبح الآن بعد سقوط الديكتاتورية هو الحزب الأبرز في تونس، وهذه نقلة نوعية كبيرة لن يقتصر تأثيرها على تونس فقط، بل سيمتد في المحيط العربي؛ وخاصة دول الجوار.

ونحن إذ نهنِّىء إخواننا في حزب النهضة التونسي بهذا الفوز المشهود، فإننا نحسب أن أمامهم تحدياتٍ كبيرةً جداً في إدارة المرحلة القادمة، ومن أخطر هذه التحديات:

أولاً: إدارة البلاد بعقلية الدولة وليس بعقلية الحزب، والاستفادة من تجربة الحركة الإسلامية في السودان؛ التي حكمت أكثر من عقدين دون أن تتخلص في بعض مراحلها من عقلية الحزب الضيقة؛ التي جعلت الحركة تتكفىء على نفسها وتفقد كثيراً حيويتها.

ثانياً: ورثت الحركة تَرِكَة مهترئة خلَّفها النظام البائد، ومن واجبها أن تعالج تلك الإصابات بسرعة من أجل أن تتفرغ للبناء والتنمية. أما أن تكون إدارة الدولة بأسلوب إطفاء الحرائق ومعالجة المشكلات، فإن ذلك سيُبقي الحزب منهكاً عاجزاً عن النمو والتطور، ولن يحقق طموحات الناخبين في التنمية والإصلاح، وسيستمر الشعب متذمراً ضجراً.

ثالثاً: تجربة حزب العدالة والتنمية التركي تجربة مهمة يجب الاستفادة منها وتوظيفها بطريقة صحيحة، مع ضرورة استيعاب حزب النهضة للخصوصية الدينية والثقافية للمجتمعَين (التركي والتونسي) والفروقات بينها، ومعرفة ما يصلح للاقتباس وما لا يصلح، وإن نجاح حزب العدالة سياسياً واقتصادياً لا يعني بالضرورة استنساخ تجربته فكرياً وثقافياً وتربوياً؛ فلكل بيئة أولوياتها وظروفها الموضوعية.

رابعاً: ظاهرة الخوف من الإسلاميين لا زالت مسيطرة على الحكومات الغربية، حتى وإن أعلن بعضها عن قَبُوله بالتعامل مع حكومات أو أحزاب إسلامية، لكن محاولاتهم للالتفاف على الثورات العربية لم تهدأ قط؛ من أجل تفريغها من مقاصدها الحقيقية. ومن المتوقَّع أن يتعرض حزب النهضة لضغوطات كبيرة من الغرب ومن المحيط الإقليمي ومن التيارات الليبرالية المحلية؛ تهدف إلى تجريد الحزب من منطلقاته الرسالية. وتطمينُهم ومداراتُهم مطلب مقدَّر، لكن لا يعني ذلك بحال التماسَ رضا الناس بسخط الله تعالى. وإن أطماعهم لن تتوقف عند حد معيَّن، ومقتضيات السياسة الشرعية تتطلب فقهاً راسخاً، ووعياً بدرجات الأعمال وأولوياتها، ونحسب أن إخواننا في النهضة يدركون أن المداراة لا تعني المداهنة في الحق، أو التنازل عن مُحْكَمَات الإسلام.

ومن واجب الإسلاميين بمختلف أطيافهم أن يقفوا صفاً واحداً مع إخوانهم في حزب النهضة، وينصروهم بكل ألوان النصرة لتحقيق ما يطمحون إليه من أهداف؛ فنجاحهم نجاح للجميع، كما أن الإخفاق سيؤثر سلباً على الجميع.

هذا ونسأل الله – تعالى – أن يبرم لهذه الأمة أمرَ رشد يعز فيه أهل طاعته ويحكَم فيه بشرع الله، ويؤمَر فيه بالمعروف، ويُنهى فيه عن المنكر.

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله ﷺ، أما بعد:

فآيات الله تتجلى في الأنفس وفي الآفاق وفي كل شيء، شاهدة أنه هو الله الواحد القهار ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الإنسان مهما بلغ من جودة الرأي وقوة الساعد وتجمُّع الأعوان حوله فإن ذلك لا يحول دون ما قدَّره الله – تعالى – عليه، وأن الله – سبحانه – إذا قدَّر شيئاً أو أراده فإنه يحقق مراده وقدره بما يشاء؛ بل ربما يظن بعض الناس أن في سلوكه النجاةَ مما يخاف ويحذر، فتستحيل قوة الساعد خوراً وضعفاً، وجودة الرأي خرقاً وكثرة الأعوان حِمْلاً وعبئاً، حتى إذا حان وقتُ ما قدَّره الله – تعالى – وقع ما أراد كيفما أراد على النحو الذي أراد، لا يحول دون ذلك حائل ولا يمنع منه مانع على أي نحو من الأنحاء؛ حتى لو تمالأ على ذلك من بأقطارها. ولذلك فموقف الإنسان الحكيم الذي يؤمن بالله وقوَّته وقدره وأنه غالب لا يُسبَق: أن لا تتجه همته لمنع ما قدره الله بقوَّته ورأيه فإن ذلك لن يكون؛ بل يسعى في ذلك بقدَر الله الذي قدَّره في رفع البلوى والمصيبة ودفعها، وقد مرَّ في التاريخ القديم والحديث ما يبيِّن أن الاحتماء بالقوة الذاتية في معاندة أَمْرِ الله – تعالى – لن تكون له عاقبة سوى الخذلان والخيبة والخسران؛ فقد عاند اليهود في المدينة رسولَ الله ﷺ فجاءهم عقاب الله من حيث لا يحتسبون وما نفعتهم حصونهم التي تحصَّنوا فيها؛ بل صاروا يخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين، وقد بيَّن ذلك الكتاب الكريم؛ إذ يقول الله – تعالى – في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]. فها هم يهود بني النَّضير الذين أخرجهم رسول الله ﷺ من ديارهم بظلمهم قد بلغوا من المنعة ما ظن معه المؤمنون أنهم لن يخرجوا، وكذلك ظن اليهود أن حصونهم تمنعهم من بأس الله ونقمته، لكن الله العليَّ الكبيرَ ربَّ العالمين وإلهَ الأوَّلين والآخرين أتاهم من حيث لا يحتسبون ولا يقدرون؛ فقد ظنوا أن الهزيمة تكون في ضَعْف الاستعدادات فاستعدوا بالحصون المانعة، ولكن الله الذي بيده ملكوت كل شيء أتاهم مِن قِبَل أنفسهم؛ فقذف الله الذي يملك قلوب العباد ويقلِّبها كيف شاء في قلوبهم الرعب الذي تتضاءل أمامه كل قوة، ولا يثبت أمامه استعداد. فلم تَعُد للحصون قدرة على المنع، ولم تَعُد الأيدي قادرة على حمل السلاح، ولم تعد النفوس لها قوة على ملاقاة الأعداء. وهكذا يفعل الله في كل زمان ومكان من عجائب قدرته وتقديره ما تعجز النفوس عن تصوره وما تعجز العصبة أولي القوة عن الوقوف إزاءه أو محاولة دفعه أو صده.

إن هذه المعاني ونحوها إنما يتعظ بها أصحاب الأبصار، الذين يملكون بصيرة القلوب قبل بصر العيون، فنادى الله – تعالى – ذوي الأفهام وأمرهم بالاتعاظ بما أحل بهؤلاء اليهود – الذين قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم – من نقمته، ولم يفقهوا أن الله ولي مَن والاه، وناصر من نصره ورسولَه على كل من ناوأه وعاداه، وأن الله مُحِل نقمته به ولو جاوز الفضاء وبلغ عنان السماء، فقال – تعالى –: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

ومثل هذا الذي حدث مع يهود بني النضير في المدينة زمن رسول الله ﷺ قد حدث نحوُه مع ولد رسول الله نوح

– عليه السلام – حينما دعاه أبوه للإيمان بالله وركوب سفينة النجاة، لكن الابن الذي طمس الله بصيرته أغواه الشيطان بامتناعه من قدر الله باللجوء إلى جبل مرتفع يظن أنه بارتفاعه يمنعه من قدر الله على ما تبينه الآيات: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٢ – ٤٣].

كما حدث ما هو أشد منه مع فرعون لعنه الله؛ فقد مكر به – تعالى – حتى ربى في بيته عدوَّه الذي جعل الله هلاكه على يديه وهو لا يدري، وعندما طغى وبغى وتجبَّر وتكبَّر أغرقه الله – تعالى – في اليم في اللحظة التي ظن فيها لحوقه بنبي الله موسى – عليه السلام – وظهوره عليه، فأتاه الله من حيث لم يحتسب وما تصور أن البحر سينطبق عليه وجنده معه ليكونوا من المغرقين الهالكين؛ حتى اضطر صاغراً أن يقول: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] لكن متى؟ بعدما حدث ما قضاه الله فلم يك ينفعه ذلك؟ ثم نجاه الله ببدنه ليكون لمن خلفه آية وعِظَة وعبرة؛ لكن كثيراً من الناس غلب عليهم الشيطان حتى صور لهم أنهم ليسوا كمن سبقهم وأنهم قد اتخذوا من الاحتياطات والاستعدادات ما يكون كفيلاً بتثبيت مُلْكهم وسلطانهم وما هو قمن أن ينجيهم من مصير من سبقهم؛ وكأنهم يحاربون أناساً مثلهم يمكن أن يحتالوا عليهم ليفسدوا خططهم، وقد سجل حقيقة الغفلة التي تسيطر على أكثر القلوب قولُ الله – تعالى – في قصة غرق فرعون، فقال بعدما نجَّى فرعون ببدنه: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]، فالله – تعالى – قد نجى بدن فرعون وأخرجه من اليم ليكون عِظَة وعبرة لمن يأتي بعده فلا يحادد الله ورسله ولا يعادي أولياءه وعباده الصالحين.

ولكن على الرغم من بيان هذه الآية الواضحة التي غفل عنها كثير من الناس ولم يعتبروا بها، فإننا نجد كثيراً من الناس ساروا في مسار فرعون وسلكوا ما سلك فحاق بهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وأتاهم الخوف من حيث كانوا يأمنون، وإذا كان ما تقدم هو من قبيل التاريخ القديم فإن الله – تعالى – قد أرانا بأمهات أعيننا ما يشبهه وما يقاربه في عصرنا الحاضر؛ فقد قامت عدة ثورات في بلاد المسلمين على حكامهم بما ظلموا وأفسدوا في الأرض، وأمام الشعوب التي خرجت تدافع عن كرامتها في حالة غير مسبوقة انكسرت الشرطة التي كان ينفق عليها الظالمون نفقات باهظة تحسُّباً لمثل ذلك اليوم عساها أن تنقذهم من المصير المحتوم، لكن إذا جاء أمر الله – تعالى – لم يقف أمامه تدبير المدبرين ولا إرادة المريدين، ثم كان خروج الجيش – الذي كان يُعَد الحصن الأقوى والأخير لتلك الأنظمة – من عملية حماية النظام بمثابة القَشة التي قصمت ظهر البعير؛ فإذا بأهم مؤسستين وأقواهما في البلاد اللتين يستعين بها الطغاة تتراجعان عن القيام بالدور الذي أعدهما له الطغاة، فكانت آية عظيمة من آيات الله في الآفاق والأنفس؛ فعندما قامت أول ثورة في تونس واستطاعت إجبار طاغيتها على الهرب في مشهد مذلٍّ، حذَّر بعض المفكرين في دول أخرى تعيش الظروفَ نفسَها من حدوث ثورة مماثلة، لكن القلوب التي لم تعد تبصر أخذت تصيح وتتنادى: (نحن غير تونس وليس مثْلُنا مَثَل تونس)، هذا مع علمهم بمظاهر النقمة الشعبية البادية، وعلى الرغم من علمهم بموعد تحرُّك الجماهير؛ حيث جرى الإعلان عن ذلك من فترة تسبق التحرك بمدة كافية؛ إلا أنه أتاهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ولم تنفعهم الشرطة ولا الجيش ولا استعداداتهم التي استعدوا بها في أيام من أيام الله المشهودة، التي يعلم فيها الطغاة بموعد هبة الشعوب ومع ذلك لا يقدرون على منع ما قدَّره الله عليهم، ورغم كل ما جرى مما كان ينبغي أن يقوِّي مشاعر العبرة والعظة وألا يكابر الطغاة بل يستجيبوا لمطالب شعوبهم (وهي مطالب يسيرة لن تكلِّفهم شيئاً كبيراً) إلا أن الطغيان والتكبر والشيطان ما زال يؤزهم أزّاً نحو مصيرهم المحتوم الذي يراه كل من حولهم وهم لا يبصرونه. وإذا كان هذا المصير المحتوم قد حاق بثلاثة أنظمة من أشد الأنظمة العربية عتواً وطغياناً وفساداً فإنه ما زالت هناك شعوب في حالة انتفاضة جماهيرية منذ عدة أشهر في مواجهة أنظمتها، لا تبالي بما تلقى من عمليات القتل والعسف، ومع ذلك لم تتعظ تلك النظم بما سبقها وكأني بكل نظام يقول: نحن غير... نحن غير! وسوف يظل يرددها حتى يقضى عليه، ويأتيه من الله ما لم يكن يحتسب، حينها يقول: (ليتني فعلت واستجبت!) في وقت لا ينفع فيه الندم والتحسر. وكأني بهذه الأنظمة قد اتخذت قطعان الماشية التي تساق إلى حتفها بظلفها قدوة لها، وإذا كانت تلك الأنظمة الطاغية تظل تردد (نحن غير) فإنا نردد كذلك ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]، وإن غداً لناظره قريب.

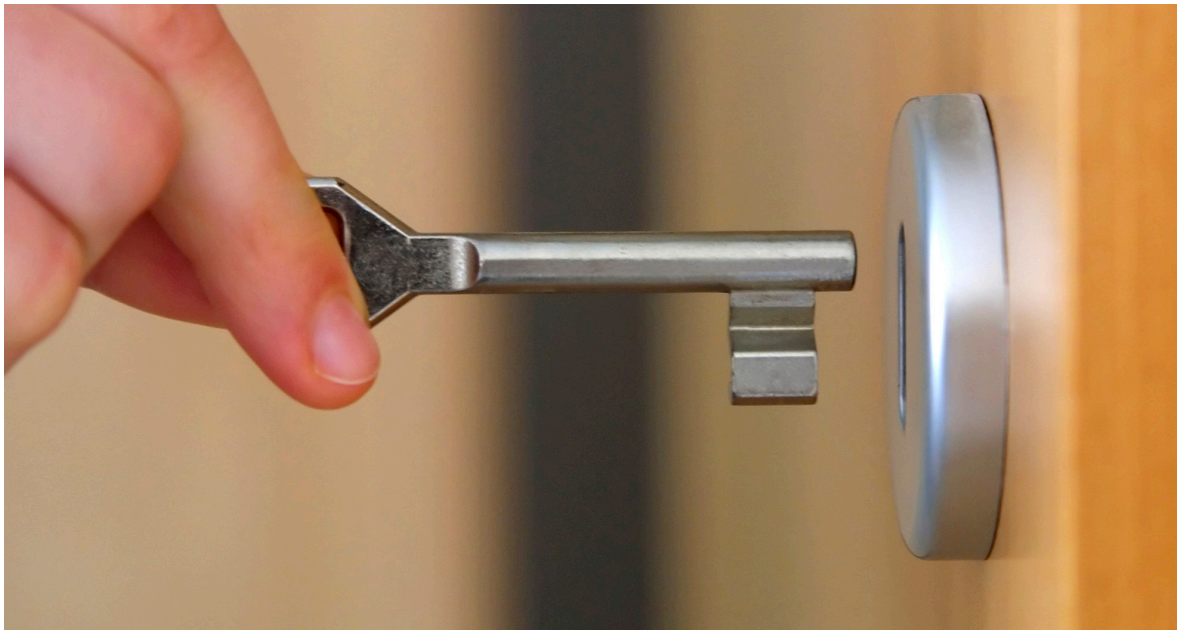

مناقشة تولي الإسلاميين السلطة

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

ما إن قامت الثورات في بعض البلدان وتحقق لها النجاح في إزالة الأنظمة الطاغوتية التي كانت تجثم على صدور الشعوب بمختلف طوائفها وخاصة الإسلاميين الذين كان لهم النصيب الأوفى من موجات العسف والظلم والطغيان، وبدا أن هناك إمكانية أن تسترجع الشعوب حقوقها التي سُلبَت منها عقوداً طويلة؛ من خلال قدرتها على أن تولِّي بإرادتها مَن تثق في دينه وأمانته وكفايته وقدرته على تحقيق آمال الشعوب وتطلُّعاتهم، وشعر الإسلاميون - باعتبارهم مكوناً أساسياً، بل المكون الأساسي الغالب لهذه الشعوب - أنه ليس من الحكمة العزوف عن المشاركة السياسية ومغالبة القوى غير الإسلامية التي تريد إخفاء هوية الأمة وَجَعلِها تابعة للمنظومة الفكرية العلمانية أو الليبرالية، ورأت أن في عدم المشاركة بقصد المغالبة نوعاً من المساعدة لتلك القوى المناوئة لهوية الأمة التي تريد أن تحرفها بعيداً عن منابعها الأصلية في تحقيق مشروعها. لذا فقد

قرر التيار الإسلامي بفصائله المتعددة خوض غمار تلك المغالبة، التي تكون نتيجتها - عندما يتحقق للإسلاميين الغلبة على بقية الاتجاهات كما هو متوقع - أن يحوز السلطة بكاملها؛ سواء تشكيل الحكومة التي تكون تعبيراً عن التمكن من المجلس النيابي أو تولِّي رئاسة الدولة. وإزاء إمكانية تحقق هذا المتصوَّر بل ربما يكون هو الأقرب للحدوث، فقد ارتفعت بعض الأصوات محذِّرة من تولِّي الإسلاميين السلطة، وهذه الأصوات تنتمي إلى اتجاهيين عقديين متباينين التباين كله ومتنافرين التنافر كله:

الاتجاه الأول: اتجاه يتحالف فيه العلمانيون والليبراليون والنصارى وفلول الأنظمة البائدة يحذِّرون فيه من تولي الإسلاميين للسلطة؛ لما في ذلك من تأثير سلبي على تلك الاتجاهات ويتوجهون بخطابهم هذا للخارج وللسلطات الحاكمة ولعامة الشعب مستخدمين في ذلك الكذب والتهييج؛ رغبة في استعداء الأنظمة وعامة الشعوب على الإسلاميين.

الاتجاه الثاني: اتجاه إسلامي خالص يحذِّر أيضاً من تولِّي الإسلاميين السلطة ولكن من منطلَق آخر، وهو: خشيتهم من إخفاق الإسلاميين عند تولي السلطة في عدم قدرتهم على تحقيق ما كانت الشعوب تأمَل فيه وتصبو إليه وتعقد عليهم فيه الآمال العريضة، وهم على عكس الطائفة الأُولَى؛ إذ يقولون ذلك بدافع الخشية والخوف على التجربة الإسلامية، ويتوجهون بالتحذير للداخل الإسلامي من قبيل النصح عند هذه الطائفة وليس من منطلق الاستعداء.

ومقصود هذه المقالة مناقشة الاتجاه الثاني؛ لأنه من داخل البيت الإسلامي، وإصلاح الداخل مقدَّم على إصلاح الخارج؛ فماذا يقدم الاتجاه الإسلامي من حجج تدعوه إلى إطلاق هذا التحذير؟

يقدم هؤلاء عدداً من المسوغات من وجهة نظرهم، تتلخص في ما يلي:

١ - أن النظام البائد أفسد البلد في كل مجال: حيث مكث عدة عقود يفسد ما وسِعَه الإفساد؛ ولن يستطيع أحد يتولى الأمر بعد هذا الفساد أن يصلح الخلل العميق الذي أصاب كل شيء بما في ذلك الإنسان والحيوان والجماد. لذا فهم يتخوفون أن يرتد الفشل المتوقَّع إلى الإسلام نفسه؛ حيث يُحَمَّل الإسلام وِزْر أوضاع وخطايا لم يكن هو المنشأ لها بل لم تكن له بها أدنى علاقة أو صلة من قَبْل.

٢ - الغربة الشديدة التي يعيشها الشعب عن الإسلام وشرائعه: حيث كانت همة الأنظمة من خلال وسائل الإعلام المتعددة متوجهة إلى إفساد العقائد والعبادات والأخلاق والعقليات، ومن المتوقع أن تتسبب هذه الغربة في نفورٍ شديد من التطبيق الصحيح للأحكام الشرعية؛ وخاصة في ما يكون وَقْعُه شديداً على النفس مما فيه منع الشهوات الباطلة التي أَلِف كثيراً منها كثيرٌ من الناس.

٣ - ضعف الخبرة السياسية لدى الاتجاهات الإسلامية لحداثة عهدها بالممارسة السياسية: وهذا قد لا يمكِّنها من إجادة سياسة الرعية؛ حيث يترتب على ذلك وجودُ احتقانات كثيرة بين الإسلاميين والشعب، تؤثِّر على تجاوب الشعب مع ما تدعو إليه القوى الإسلامية من حيث الرجوعُ إلى الشرع والتمسكُ به وتطبيقُه في واقع الحياة لتكون الشريعة هي المرجع في الأحكام كما أن العقيدة هي الحاكمة على العقائد.

٤ - وجود الأقليات - سواء منها الدينية أو الأيديولوجيات العقدية - التي قد تختلق الذرائع لعمل قلاقل في البلد تمهيداً لإحداث فتنة يترتب عليها تدخُّل أجنبي، وبذلك يسقط المشروع الإسلامي برمَّته.

٥ - عدم موافقة الغرب وعلى رأسهم الدول الاستعمارية الناشئة كأمريكا والعتيدة كفرنسا على قيام حكم إسلامي في البلدان العربية، وهو ما يؤذن بمواجهة لا نستطيع خوضها الآن.

ومن ثَمَّ فإن أصحاب هذا الاتجاه مع عدم تولي الإسلاميين للسلطة في الوقت الحالي في مقابل أن يمسكها أناس وطنيون تهمُّهم مصلحة البلد في المقام الأول؛ وذلك إلى أن تصلح أحوال البلد وتستقر أركانها من غير أن تعترضها العراقيل السابقة، وحينئذٍ يمكن

للإســـلاميين أن يتقدموا لتولِّي السلطة. هذا - تقريباً - هو كل ما أمكنني جمعُه مـــن حجج الغيورين على الدين الحريصين على بلادهم.

والجـــواب على ذلك يكون من خـــلال نظَرَين: نظر إجمالي، ونظر تفصيلي:

الجواب الإجمالي:

أقول: إن العراقيل والعقبات كانت وما زالت تعترض طريـــق الدعـــوات، ولن يأتي اليوم الذي تـــزول فيه تلك العقبات حتى ننتظره، وأن الانسحاب من المواجهة والأخذ بزمام المبادرة ليس الحل الصواب بل الانسحاب والهروب من المواجهة وتحُّملِ التبعـــات هو الذي يصيب الدعوات في مقتل، ثم يقـــال: لو كانت الأمور يمكن أن تنصلح من خلال قيادات غير إســـلامية وتحت مظلة غير إسلامية، فما الحامل الذي يدعو الناس لاختيار الإســـلاميين بعد ذلك وقد رأوا إحجام الإســـلاميين وهروبهم من مواجهة التحديـــات فـــي الوقت الـــذي أقدم غيرهـــم وواجهوا التحديـــات واســـتطاعوا من خلال منهجهـــم وجهودهم تصحيح الأوضـــاع وتحقيق الآمال، ثم يقـــال أيضاً: إن الإســـلام قادر على العمل في جميـــع الظروف والبيئات وتحقيق ما يدعو إليـــه من الإصلاح في جميع المجالات، ولـــو قيل: إن الإســـلام لا يقدر على العمـــل إلا في بيئة صالحة. لكان في هذا القول إنقاص من قدره وطعن فيه.

الجواب المفصل:

١ - بخصوص المسألة الأُولَى نقول: إنَّا لا نشك أبداً في أن النظام البائد أفسد كل شيء في حياة الناس، كما لا نشـــك أيضاً في أنه لا يوجد منهج قادر على الإصلاح الصلاح الكامل التام في جميع المجالات من غير نقص أو اعتداء على حقوق الناس غير الإســـلام بشريعته الكاملة السمحاء التي حكمت ديار المســـلمين عدة قرون فكانت مصـــدر عزتهم وقوَّتهم وظهورهم علـــى الناس أجمعين. وكل منهج مغاير للإســـلام لا يملـــك الإصلاح في جميع المجـــالات، فإنه وإن كان يملك إصلاحـــاً في جانب فإنه يفســـد في جوانب أخرى وحتى الجانب الذي يصلح فيه فإن إصلاحه غير كامل، ولو أردنا أن نضرب مثالاً قريباً على ذلك فعندنا الأزمة المالية التي تعصف الآن بالأسواق الغربية التي تتبنى النهج الرأسمالي حتى اضطرتهم إلى أن يطالب كبار الاقتصاديين بتطبيق الأحكام الشـــرعية الإســـلامية في هـــذا الجانب للخروج من هـــذه الأزمة الطاحنـــة، وضماناً لعدم تكرارها، وصدق الله - تعالى - حيث يقول: ﴿ **سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [**فصلت** : ٥٣].

٢ - بخصوص المســـألة الثانية وهي غربة الإسلام التي تحيا فيها الشـــعوب وإمكانية النفـــور من تطبيق بعض الأحكام الشـــرعية، فيقال: لا شك في وجود هذه الغربة ولا شـــك في وجود طائفة من الناس قد تنفر من تطبيـــق بعض الأحكام، لكن يقال فـــي المقابل: إن عدم تولي الإسلاميين للسلطة وتوليها من قِبَل بعض الوطنيين - ولو كانوا مخلصين لوطنهم أشد الإخلاص - لن يحل هذه المشـــكلة بل قـــد يفاقمها، وإنَّ تولِّي الإســـلاميين للســـلطة هو الكفيل بالعمل على إزالة الغربة وإزالة ما ران على القلوب تجاه بعض الأحكام الشرعية بفعل تلك الغربة الســـالفة؛ وذلك عن طريـــق الإعلام الذي يمكن تســـخيره للقيام بهذه المهمة؛ بل لا أحسب أني ابتعدت كثيراً عن الصواب حين أقول: إن حرص غير الإسلاميين على عدم تولي الإســـلاميين الســـلطة هو ما يتحسبونه من هذه النقطة التي قد يترتب عليها تغيير شـــامل في المجتمع؛ خاصة إذا كانت الســـلطة تدعم هذا المســـلك وتقـــف خلفه، وكلنـــا يدرك ما تقوم بـــه بعض القنوات الإســـلامية - على ضعفها وقصورها - من نشر الوعي بين المسلمين وتفقيههم في أمر دينهم حتى عمت المظاهر الإســـلامية طبقات واسعةً من الشـــعب ما كان يُظَن أن تصلهـــا هذه المظاهر يوماً من الدهر ، ولعل هذا ما دعا بعض الأنظمة قبل زوالها إلى غلق تلك الفضائيات.

ومن زاوية أخرى فإن في السياســـة الشـــرعية ما يكفل مواجهـــة مثل هذه الأمور - التي يجهلهـــا الناس وقد ينفرون منها في بادئ الأمر - مواجهة حسنة تكفل الحفاظ على الدين وعدم تجاوز أحكامه وتكفل في الوقت نفســـه تجاوب الشعب مـــع ذلك والرضا به والاطمئنان إليـــه، وهذا المنهج تمثِّله تلك

المحاورة الدائرة بين عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبيه؛ إذ قال عبد الملك لأبيه عمر: «يا أمير المؤمنين! ما تقول لربك إذا أتيته، وقد تركت حقاً لم تحيه وباطلاً لم تمته؟ فقال: يا بني! إن أباك وأجدادك قد دعوا الناس عن الحق، فانتهت الأمور إليَّ، وَقِيلَ أَقْبَلَ شَرُّهَا وَأَدْبَرَ خَيْرُهَا؛ ولكن أليس حسناً وجميلاً ألا تطلع الشمس عليَّ في يوم إلا أحييت فيه حقاً وأمت فيه باطلاً، حتى يأتيني الموت، فأنا على ذلك؟ وقال له أيضاً: يا أمير المؤمنين! انْقَد لأمر الله، وإن جاشت[1] بي وبك القدور. فقال: يا بني! إن بادهتُ[2] الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف، ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف»[3]، وفي لفظ آخر: أن عبد الملك بن عمر قال لأبيه: «ما يمنعك أن تمضي للذي تريد؟ والذي نفسي بيده! ما أبالي لو غلت بي وبك القدور، فقال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على هذا الأمر، يا بني! لو تأهب [لعلها: بادهت] الناس بالذي تقول لم آمن أن ينكروها فإذا أنكروها لم أجد بُدّاً من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف، إني أروض الناس رياضة الصعب؛ فإن يطل بي عُمُر، فإني أرجو أن ينفذ الله مشيئتي، وإن تغدو عليَّ منية فقد علم الله الذي أريد»[4]، وروى الخلال بسنده أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال لأبيه: «يا أبت! ما يمنعك أن تمضي لما تريده من العدل؟ فوالله! ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك، قال: «يا بني! إني إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني أريد أن أحيي الأمر من العدل، فأؤخر ذلك حتى أُخرِج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا من هذه، ويسكنوا لهذه»[5].

فهذه السياسة الحكيمة وما جرى مجراها تكفل إحياء ما اندرس من الدين في الوقت الذي لا ينفر منه الناس، وكون الإنسان يتصور أنَّ تولِّي الإسلاميين السلطة يعني عدم مراعاة هذه الأمور، وأنهم سوف يصطدمون بالناس بمجرد توليهم وإجبارهم على فعل ما يجهلونه أو ترك ما يألفونه، فهذا تصوُّر وظن لا يعضده شيء.

بخصوص المسألة الثالثة من حيث عدمُ الخبرة التي قد تُنتِج عدم القدرة على سياسة الرعية سياسة حسنة، فيقال: إنْ صَدَقَ هذا الكلام فإنما يصدق على فصيل معيَّن ولا يصدق على التيار الإسلامي كلِّه؛ فالتيار الإسلامي - بلا شك - فيه خبرات كثيرة جيدة، لها دربة متنوعة وفي مجالات متعددة تمكِّنها من السياسة الحسنة كما أن تراثنا العلمي والفقهي مملوء بنماذج رائقة في كيفية سياسة الرعية، ثم يقال أيضاً: إن تولِّي الإسلاميين للسلطة لا يعني إقصاء أهل الخبرة الأمناء من التيارات الوطنية الجادةِ الساعيةِ في خير أوطانها وصلاحها إذا لم يكن لها مشروع أيديولوجي قائم على محاربة الإسلام، بل إن تولي الإسلاميين للسلطة لا يمنع من الاستفادة من غير المسلمين وتعيينهم في الوظائف - ولو كانت كبيرة ومهمة - ما دام ليس فيها ولاية على المسلمين.

وأخيراً يقال: لو كان ما يُذكَر من عدم الخبرة السياسية حقاً فإن عدم تولِّي الإسلاميين السلطة لن يحل هذه المشكلة بل إن السعي في تولي السلطة وتوليِّها بالفعل هو الذي سيساعد على القضاء على ضعف الخبرة؛ فاكتساب الخبرة عن طريق العمل أسرع وأفضل بكثير جداً من الدراسة النظرية.

وبخصوص المسألة الرابعة ومسألة وجود الأقليات التي تختلق الذرائع تمهيداً للتدخل الأجنبي؟ فإن الجواب أن يقال: إن الأقليات موجودة سواء تولَّى الإسلاميون السلطة أم تولاها غيرهم، وتأخير تولِّي الإسلاميين للسلطة لن يكون فيه حل لهذه المشكلة بل ربما تفاقمت بتولي غير الإسلاميين كما شاهدنا في بعض الأنظمة التي تعطي للأقليات ما ليس لها بحق نوعاً من الرشوة لها حتى ترضى عنها الدول الغربية. ثم قول: إن الظن أنه بمجرد تولِّي الإسلاميين فستظهر القلاقل والعقبات قائم على التصورات والظنون؛ فإنه مع حُسْن التعامل من جهة والحزم من الجهة الثانية لن يكون عند عوام الأقليات الدافع لإثارة القلاقل كما عند النخب الذين لن يرضيهم إلا إقصاء الإسلاميين كافة، كما أن تصوُّر تدخُّل الدول الأجنبية عند حدوث أية قلاقل تصوُّر غير جيد

(١) جاشت: غلت.
(٢) بادهت: فاجأتُ أو باغتُّ.
(٣) الكامل في التاريخ، لابن الأثير الجزري: ٤/ ١١٩.
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي: ٦/ ٢٣٧.
(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال: ١/ ٢٦.

بـــل لا يُتَصوَّر التدخل إلا عند وجود مذابح للأقلية أو نحو ذلـــك وهذا أمر غير وارد على الإطلاق؛ لأن الإســـلاميين يتصرفون في هذه المســـألة وكل المسائل من خلال شريعة حاكمة وضابطة تعطي لكل إنســـان يعيش في بلد المسلمين حقه من غير وَكْس ولا شـــطط، وهم يرون أن القيام بذلك ليس مجرد مناورة سياسية يجذبون بها أصوات الناخبين بل يرونه ديناً مسؤولين عنه أمام الله - تعالى - قبل أن يكونوا مســـؤولين عنه أمام الخلق، ولا شـــك أن الدول النصرانية الاستعمارية التي يُخشَـــى من تدخُّلها قد خبرت المسلمين وبأسهم وشدتهم في القتال والدفاع عن بلدانهم؛ خاصة إذا رأوا في التدخل شبهة حرب دينية، ولقد استطاع المسلمون بجهادهم وثباتهـــم أن يفككوا إحـــدى القوتين العظيمتين (الاتحاد الســـوفييتي ســـابقاً) وهم في طريقهـــم - بإذن الله تعالـــى - إلى تفتيت القوة الثانيـــة (الولايات المتحدة الأمريكية)، وهذه الدول التي يخشـــى بعض الناس تدخُّلها عندها من المشـــكلات الداخلية ما يكفيها وهي ليست في وضع يسمح لها بالقيام بمغامرة عسكرية نتائجها في غالب الأمر ستكون عليهم لا لهم.

وبخصوص المســـألة الخامســـة: وهي أن الغرب لن يســـمح لنا بإقامة حكم إســـلامي في بلادنـــا، فهذا في الحقيقة من أغرب ما يمكن قوله!

أولاً: لأن هذا الأمر معلوم تكلَّم عنه رب العزة والجلال فقـــال - تعالى -: ﴿**وَلا يَزَالُـــونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّـــى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [**البقرة**: ٢١٧]، وليس بالأمر الجديد.

وثانيـــاً: إذا كانت هذه إرادتهم ورغبتهم، فأين إرادتنا نحـــن ورغبتنا، ثم إن إرادتهم هذه لـــن تتغير نظراً لأنها إرادة نابعة من تصوُّر ديني والاستسلام لهذا التصور يعني أنه لن نقيم في يوم ما نظاماً يتقيد بالشريعة.

كثيراً ما يقزِّم بعضٌ منَّا أنفســـهم عند الكلام عن مكر الأعداء، وكراهية الكفار للإســـلام شيء معلوم لا جديد فيه ورغبتهم في القضاء عليه وعلى المســـلمين أمر لا يُشَك فيه، وقـــد كانت فارس والروم أقوى دولتين على وجه الأرض عند بعثة النبي محمد ﷺ ولم يستســـلم المســـلمون أو يضعفوا أمام قوتهم؛ بل جالدوهـــم حتى قضوا عليهم قضاء مبرماً، فـــلا ينبغي ونحن نبين كراهية الكفار لنا أن نقزِّم أنفســـنا إلـــى درجة أن نظهر وكأننا لا حـــول لنا ولا قوة حتى يكون موقعنا الإعرابي في محل المفعول به وليس الفاعل؛ فنكون من يقع عليه فعل الكفـــار ولا نكون نحن الفاعلين لما نريد وَفْـــقَ ديننا وعقيدتنا، لكن عند بيـــان مكر الكفار وكيدهم والتحذير منهم ينبغي أن نبين في الوقت نفسه قدرتنا على مصاولتهـــم وترحيبنا بذلـــك إن أرادوا المنازلة؛ لأن الكلام بالطريقة الســـالفة فيه إحباط للناس وكأن تسلُّط الكفار وغلبتهم للمسلمين قدر مقدور.

ويتبين من كلِّ ما تقـــدم أن ما يقدمه الحذرون من تولِّي الإســـلاميين للسلطة ليس فيه شيء على الحقيقة يعيب الإسلاميين أو يمنع من السعي في تولي السلطة، كمـــا أن بعض الحجج التي ذكرت لـــن تزول بعدم تولي الإســـلاميين السلطة بل ســـتظل كما هي، ومن الحجج التي ذكرت ما يُعَدُّ من قبيل التصورات التي لا يعضدها واقع صحيح، ومن هنا يكون الاستسلام لمثل هذه الحجج نوعاً من إعطاء الدنيَّة في ديننا.

وإذا كنـــا كما يحـــاول بعضهم أن يصور أن الإســـلاميين في هذه الفترة ضعفـــاء فلذلك يكون من الأفضل أن لا يتولوا الســـلطة حتى تحصل لهم القوة التي تمكنهم من القدرة على تولي السلطة والقيام بمتعلقاتها على الوجه الأحسن، أقول: لو كنا الآن ضعافاً حقاً فهذا مما يحتم علينا السماح لمن يسميهم بعض النـــاس بالوطنين من خارج المنظومة الإســـلامية بتولي السلطة، فإن ذلك لن يزيدنا بمرور الأيام إلا ضعفاً على ضعف ووهنـــاً على وهن، ونكون بذلك قـــد أفلتنا فرصة لقيادة البلد في اتجاه دينها وعقيدتها لا تتكرر بســـهولة؛ فعلى الإسلاميين أن يعزموا ويتوكلوا على الله - تعالى - لتولي السلطة بطريقة مقبولة شـــرعاً، ويبذلوا جهدهم ما وســـعهم البذل في قيادة بلدانهم في اتجاه تحكيم شـــريعة رب العالمين وتحقيق الآمال والتطلعات التي ترنو إليها الشعوب المسلمة من عقود خلت.

والذي يظهر بعد كلِّ ما تقدم أن الخطورة على المشروع الإســـلامي لا تأتي حقيقة من تولِّي الإسلاميين السلطة؛ وإنمـــا تأتي الخطورة من تركهم هذا الأمر لمن يســـمونهم بالوطنيين.

جديد

دار النوادر®

www.daralnawader.com

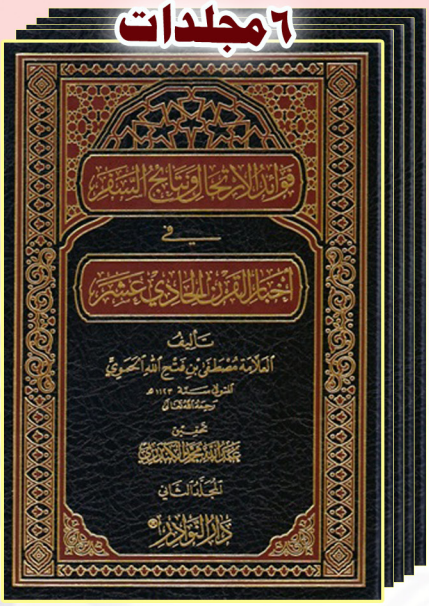

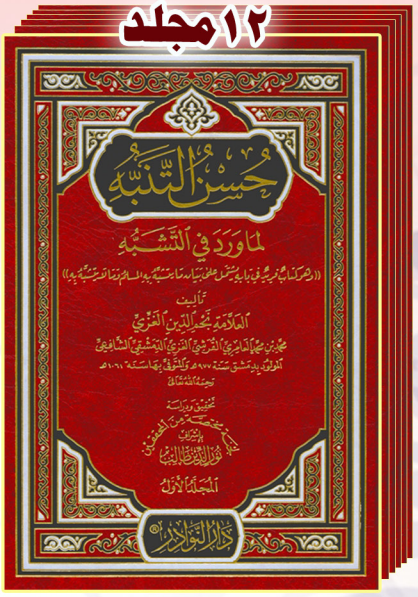

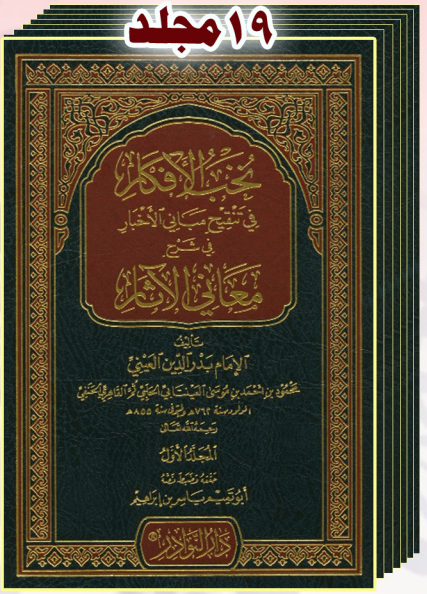

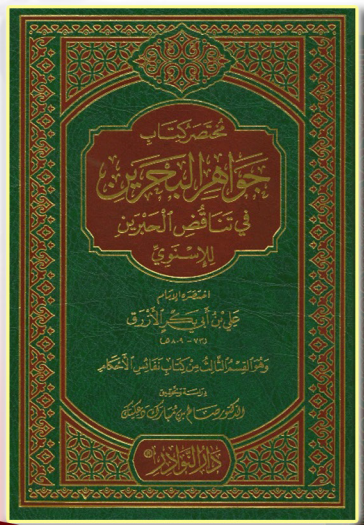

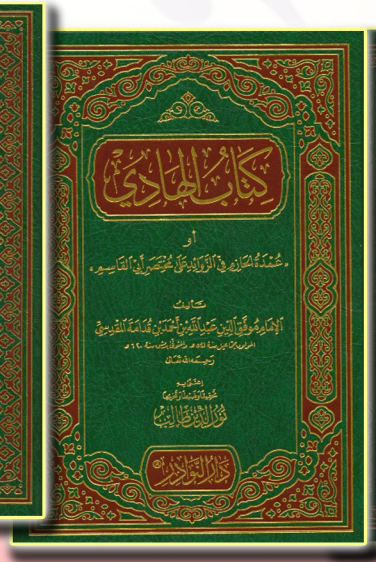

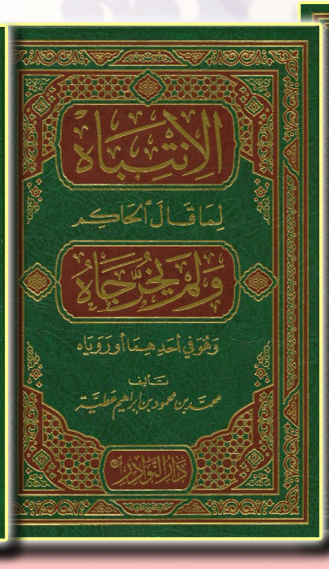

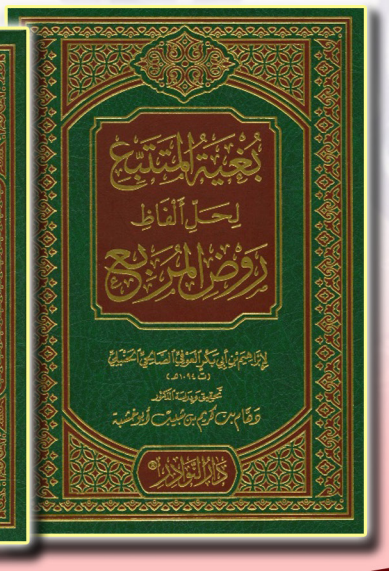

مكة المكرمة: الأسدي ٠٢٥٢٧٣٠٣٧
المدينة المنورة: النصيحة ٠٤٨٤٧٠٧٠٨
المؤيد ٠٤٨٤٧٣١٤٨
الرياض: التدمرية ٠١٤٩٢٥١٩٢
أطلس ٠١٤٢٦٦١٠٤
طيبة ٠١٤٢٥٣٧٣٧

بريدة: التدمرية ٠٦٣٢٦٢٢٦٢
الأحساء: ابن الجوزي ٠٣٥٨٨٣١٢٢
الدمام: ابن الجوزي ٠٣٨٤٢٨١٤٦
المتنبي ٠٣٨٤١١٣٩٥
جدة: الشنقيطي ٠٢٦٨٩٣٦٣٨
ابن الجوزي ٠٢٦٨١٣٧٠٦

مبيعات الجملة
٠٥٠٤٢٣٧٦٨٧

الأزمة المالية... قراءة جديدة

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

في مقال نشر في ١٩ فبراير ٢٠٠٧م بعنوان «الكنائس تدعم خطة للتوحد تحت البابا»[1] أفصحت «التايمز» عن عزم الكنيسة الإنجليزية (الأنجليكانية) على العودة تحت كنف البابوية، بعد كل الدماء التي سفكتها الكنيسة الرومية عبر خمسة قرون - تقريباً - في سبيل جعلها مملكة كاثوليكية. وكان كثيرون يستبعدون مثل هذه التحول التاريخي، لكن الواقع أثبت خلاف ذلك. ففي خبر بعنوان «البابا يؤسس بناء للأنجليكان الذين يتحدون بروما» نشرته وكالة الأنباء الكاثوليكية CNS في ٢٢ من أكتوبر الماضي ٢٠٠٩م، قام البابا بتأسيس نظام لاهوتي خاص يمكنه استيعاب القساوسة الأنجليكان الذين أبدوا رغبتهم في العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية. هذا التحالف أعلن عنه الكاردينال الأمريكي «ويليام ليفادا» في مؤتمر صحفي عقد في الفاتيكان في العشرين من أكتوبر ٢٠٠٩م، وعبر عن سعادته بقوله: «لقد كان الهدف الرئيس دائماً أن

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان - يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(1) http://www.timesonline.co.uk/tol/comment/faith/article1403702.ece

نحقق وحدة تامة وظاهرة»[1].

لكن الأهم من هذا هو تنازل العرش البريطاني صراحة عن شرط «الأنجليكانية» لمن يجلس عليه بعد قرار ملكي أيدته دول الكومونولث بإجراء تعديلات على «قانون الاستخلاف»؛ وقد تم هذا بشكل مراوغ لا يتنبه له إلا من تابع هذا الشأن. فنصَّ التعديلُ – بحجة حرية التدين – على منح الملك أو الملكة حرية الزواج من كاثوليكي أو كاثوليكية بعد أن كان ذلك محظوراً. أي أن الملكة التي تتبع الكنيسة الأنجليكانية يمكنها الزواج من كاثوليكي؛ وهذا يعني – إذا ما تجاوزنا «اللف والدوران» في صيغة القرار الملكي لقانون الاستخلاف الجديد – أن ملك أو ملكة بريطانيا يمكن أن يكونا من الكاثوليك[2]. وهو بلا شك انتصار كبير للكاثوليكية الرومية على «الثورة الإنجليزية المجيدة» عام ١٦٨٨م التي طرد بها الإنجليزُ البروتستانت الملك الكاثوليكي «جيمس الثاني» ونصَّبوا الهولندي البروتستانتي «ويليام الثالث» مكانه، وصدر حينها قانونٌ يُحرِّم على أي كاثوليكي الجلوس على العرش الإنجليزي. وهذا يجعل المرء يتساءل حول سبب عدم تكافؤ الأمير ويليام وزوجته التي تُعَد من العامة. أكان ذلك تمهيداً لهذا؟

إن الراصد لأخبار الكنيسة الرومية يجد أنها لا تزال تسعى بكل ما أوتيت من قوة لضم كل الكنائس تحت سلطتها كخطوة تجاه السيطرة التامة وتحقيق «النظام العالمي الجديد». كما أنها تُجيِّر الأحداث التي يمر بها العالم للتأكيد على هذا المعنى الذي يصوَّر للبسطاء على أنه دعوة إلى السلام. فقد دعا البابا الهالك «يوحنا بولس الثاني» صراحة – كما أكدت صحيفة الـ «جارديان» – إلى إقامة «نظام عالمي جديد» بحجة أن «الأمم المتحدة» عاجزة عن إيقاف الحرب الأمريكية ضد العراق[3]. وفي مقال نشرته «نيويورك تايمز» بعنوان «البابا يحث على إنشاء نظام اقتصادي عالمي جديد يعمل لأجل الصالح العام» بتاريخ ٧ يوليو ٢٠٠٩م، أكد البابا الحالي «بندكت السادس عشر» على ضرورة «إقامة سلطة سياسية عالمية حقة» تشرف على الاقتصاد العالمي[4].

أما «المقترح» المقلق حقاً الذي أصدره الفاتيكان منذ أسابيع، والذي سأتحدث عنه بعد قليل فيجعل المرء يعيد النظر في الأسباب الحقيقية وراء الأزمة الاقتصادية التي يمر بها العالم بأسره. ولعلي أُذكر القارئ أنها ليست المرة الأولى التي تنطلق فيها أزمة اقتصادية عالمية من الولايات المتحدة – الإمبراطورية الرومية بالنيابة – لتعم أرجاء العالم. ففي أثناء ١٩٢٩ – ١٩٤٠م اجتاحت العالم أزمة عرفت بـ «الكساد العظيم» وكانت نشأتها في الولايات المتحدة بسبب سقوط سوق الأسهم في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٩م الذي عرف بـ «الثلاثاء الأسود»، لكنها سرعان ما تفشت في العالم كله. كان المتسبب المباشر في تلك الأزمة هو «بنك الاحتياطي الفدرالي» الذي قدم اعتذاره عام ٢٠٠٢م على لسان رئيسه الحالي «بِن برِنانك» بقوله:

«دعوني أختم حديثي باستغلال منصبي قليلاً كممثل رسمي للاحتياطي الفدرالي. أود أن أقول لـ «ميلتون» و «آنا»[5]: في ما يخص «الكساد العظيم» أنتما على حق، نحن تسببنا فيه. نحن نعتذر بشدة، ولكن بفضلكما لن يتكرر ذلك»[6].

لكن بنك الاحتياطي الفدرالي الأمريكي ذا النفوذ المستقل تماماً عن الحكومة الأمريكية[7] عاد إلى ما نُهي عنه، وتسبب في أزمة أخرى لم يعتذر عنها بعد، وها هي الأزمة تتفاقم بشكل مريب. ثم يظهر اليسوعي «كريس لوني» Chris Lowney – الذي كان عضوَ مجلسِ الإدارةِ المنتدب لشركة «ج. ب. مورجان» العملاقة J. P. Morgan Co. – ليعلن أن حل الأزمة الاقتصادية الحالية يكمن في اتخاذ القديس «إغناطيوس لويولا» ومنهجه اليسوعي أسوة[8]!!

هذا التعليق من «كريس لوني» يقودنا إلى الحديث عن الوثيقة الخطيرة التي أصدرها «المجلس البابوي للعدالة والسلام» Pontifical Council for Justice and Peace في ٢٠١١/١٠/٢٤م. وهي وثيقة رسمية صادرة عن الفاتيكان

(1) http://www.catholicnews.com/data/stories/cns/0904673.htm
(2) http://www.bbc.co.uk/news/mobile/uk-15492607
(3) http://www.guardian.co.uk/world/2004/jan/02/catholicism.religion
(4) http://www.nytimes.com/2009/07/08/world/europe/08pope.html?_r=1

(٥) «ميلتون فريدمان» و«آنا شوارتس» إقتصاديان أمريكيان ألقيا بلائمة الكساد العظيم على البنك الفدرالي.
(6) Harris, Ethan S. Ben Bernanke>s Fed: The Federal Reserve After Greenspan (Boston, Mass: Harvard Business Press, 2008), p. 117.
(٧) «بنك الاحتياطي الفدرالي» ليس خاضعاً لسلطان الحكومة الأمريكية، بل يتحكم فيه لوبيٌّ مستقل. حول هذا وغيره راجع كتاب «خفايا الاحتياطي الفدرالي» Secrets of the Federal Reserve لمؤلفه «يوستَس مَلنز» Eustace Mullins.
(8) http://www.catholicregister.org/content/view/2338/849/lang,en/

الذي نحن بصدده «وتأمل أن يكون فيها نفعٌ لقادة العالم وكل أصحاب النوايا الحسنة».

تحمل الوثيقة عنواناً جريئاً: «في سبيل إصلاح الأنظمة المالية والنقدية الدولية في سياق مرجعية عالمية عامة»[1]، وتُعد هذه الوثيقة التي تربو صفحاتها على العشر من أهم ما أصدره الفاتيكان مؤخراً في الميدان الاقتصادي، وهي جديرة بالقراءة. ففي أثناء مقدمة الوثيقة يتحدث الكاردينال «بيتر تركسون» عن ضرورة تعاون الأمم لحل الأزمة الاقتصادية ويستدل لذلك بأن «قادة مجموعة العشرين أنفسَهم صرحوا في بيانهم الذي تبنَّوه في بيتسبرغ عام ٢٠٠٩م: إن الأزمة الاقتصادية تُظهر أهمية استهلال عهد جديد من النشاط الاقتصادي العالمي المستمر...»[2].

وتحت فصل بعنوان «سلطانٌ على العولمة» تشير الوثيقة إلى المنشور البابوي «سلام على الأرض» Pacem in Terris الذي أصدره البابا «يوحنا الثالث والعشرون» عام ١٩٦٣م، ولاحظ فيه «اتجاه العالم نحو توحد متزايد»، ثم أبدى طمعه في أن تقوم يوماً ما «سلطة سياسية عالمية حقة»؛ وهي العبارة ذاتها التي استعملها البابا الحالي – كما أوردتها أعلاه – بعد سلفه بستةٍ وأربعين عاماً. وهذا ما أكدته مراراً من أن مشروع العولمة سابق للأزمة المالية وليس ناتجاً عنها ولا حلاً لها كما يصور ذلك الإعلام الغربي ويردد صداه الإعلام العربي.

وكما يستر الفاتيكان أجندته العولمية خلف ستار الأمم المتحدة – التي هي بلا ريبٍ عندي نواة للنظام العالمي الجديد – فإنه يصنع الشيء ذاته هنا فيقول في نص الوثيقة: «لا يزال أمامنا طريق طويل قبل أن نتوصل إلى إقامة سلطة عامة ذات صلاحيات عالمية؛ لذا فإن من المنطقي أن تنطلق عملية الإصلاح جاعلة من الأمم المتحدة مرجعيتها نظراً لاتساع مسؤولياتها العالمية وكفاءتها في توحيد أمم الأرض وتنوع مهامها ومهام وكالاتها المتخصصة. أما ثمرة هذه الإصلاحات فينبغي أن تكون القدرة الأكبر على تبني سياسات وخيارات ملزمة ...».

أي أن العالم سيكون أسيراً لهذه السلطة المركزية المستبدة التي ستكون أقدر على إلزام غيرها بسياساتها العولمية.

ثم تقرر الوثيقة أن ثمة «افتقاراً متنامياً لهيئة تقوم بوظائف بنك مركزي عالمي من نوعٍ ما، ينظم تدفُّق ونظام التبادلات النقدية على غرار البنوك المركزية المحلية ... ويمكن أن تُستَهل هذه العملية بتعزيز المؤسسات القائمة كالبنك الأوروبي المركزي. لكن هذا لن يتطلب إعادة نظر على المستوى الاقتصادي والمالي فحسب، بل أولاً وقبل كل شيء على المستوى السياسي، حتى يقام عددٌ من المؤسسات العامة التي ستضمن وحدة واطِّراد القرارات المشتركة». فالأزمة المالية هي البداية وليست النهاية. وسيعقب هذه الخطوة خطواتٌ أخرى «من العبث أن يُتنبأ بها في الوقت الحاضر» على حد تعبير الوثيقة. وأترك للقارئ الكريم فهم ما بين الأسطر. ثم تقترح الوثيقة بعض الإجراءات الجزائية: كفرض الضرائب على المعاملات المالية، وتجديد رؤوس الأموال لدى البنوك... إلخ.

ثم تثني الوثيقة على «العولمة» التي «تزيد الشعوب توحُّداً وتدفعهم للتحرك من أجل سيادة جديدة للقانون على المستوى الفوق – قومي، يسانده تعاون أكثر صرامة وأغزر نتاجاً». وتضيف:

«إن مهمة جيل اليوم أن يعترف ويتقبل بوعي هذه الديناميكية العالمية الجديدة لتحقيق الصالح المشترك العالمي. بالطبع سيكون هذا التحول على حساب تخلي كل أمة بشكل متدرج وموزون عن جزء من قواها لأجل السلطة العالمية... وكما قال الآباء [الكنسيون] في المجمع الفاتيكاني الثاني: إن هذه رسالة mission اجتماعية وروحية [دينية] على حد سواء».

أختم بهذه الكلمات التي تلخص الأجندة الرومية: «في عالم يشق طريقه إلى عولمة متسارعة، تصبح الإشارة إلى سلطة عالمية a world Authority الأفق الوحيد الذي يتناغم مع واقع عصرنا الجديد ومع احتياجات البشر. لكن ينبغي ألا ننسى أن هذا التطور – إذا ما اعتبرنا طبيعة البشر المكلومة – لن تتأتى دون آلام ومعاناة»؛ فهل نحن مستعدون لتحملها؟

إن ما نشهده في بلاد الغرب من تظاهرات على رأسها حركة «احتلوا وول ستريت» ليست أصداء لما يسمى بالربيع

---

(١) انظر النص الكامل للوثيقة بالإنجليزية على هذا الرابط:
http://www.news.va/en/news/full-text-note-on-financial-reform-from-the-pontif

(٢) لفهم هذا الكلام في سياقه أقترح على القارئ الكريم مراجعة أقوال الساسة الغربيين حول ضرورة إقامة «نظام عالمي جديد» في كتاب «اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد» (ص ٢٩٤ – ٣٠٧).

العربي – مع تحفظي الشديد على هذه التسمية – بل هي جزء من أجندة عولمية لإظهار هذه المؤسسات المحلية بمظهر العاجز عن إنعاش بلاده – وهي الآن كذلك – ودمج مؤسسات الاقتصاد المحلية في مؤسسة عالمية أقوى، وتسويغ إقامة «بنك مركزي عالمي» كما سمته وثيقة الفاتيكان التي نحن بصددها.

لقد صرحت foxbusiness على موقعها بأن وثيقة الفاتيكان «لا بد وأنها ستُبهِج متظاهري «احتلوا وول ستريت» والحركات المشابهة حول العالم»[1]. وفعلاً حدث ذلك؛ حتى إن بعض مسؤولي الفاتيكان حاول الدفاع عن المؤسسة الكاثوليكية قائلاً: «إن اشتراكنا [مع المتظاهرين] في بعض وجهات النظر من قبيل المصادفة. وعلى أية حال فإن هذه المقترحات [المطروحة في الوثيقة] قائمة على المعقولية»[2]. بمعنى أن أي عاقلٍ متأمل للوضع الاقتصادي العالمي سينتهي إلى فكرة مماثلة لما طُرح في هذه الوثيقة. وهذا كلام عارٍ عن الصحة مردود على صاحبه. فإن النفَس التآمري يوجد من بين كلمات الوثيقة، ولَيُّ الوقائع فيها لتسويغ المشروع العولمي لا يخفى على ذهن القارئ الحصيف.

إن الحديث حول الفاتيكان والحكومة العالمية حديث يطول، وهو يبعث في الأذهان كلمات الاقتصادي «جيمز واربرغ» عام ١٩٥٠م في شهادته أمام «لجنة العلاقات الخارجية» التابعة لمجلس الشيوخ حين قال: «ستكون حكومة عالمية، شئنا ذلك أم أبينا. إن السؤال هو مجرد ما إذا كانت الحكومة العالمية ستتحقق بالسلم أم بالحرب»[3]، وكلمات «روي م. آش» عام ١٩٧٢م أنه «خلال عقدين من الزمن سيكون الإطار المؤسسي لجماعة اقتصادية عالمية قد أخذ مكانه ... وستمنح مقاليد السيادة الفردية لسلطة فوق – قومية»[4]. وكأنه يقتبس من وثيقة الفاتيكان!

وفي عام ١٩٧٥م وَقّع ٣٢ عضواً في مجلس الشيوخ و ٩٢ عضواً في مجلس النواب في الكونجرس وثيقة بعنوان «إعلان الاعتماد المتبادل» The Declaration of Interdependence كتبها المؤرخ «هنري كوماجر» جاء فيها: «لابد أن نتحد مع الآخرين لإيجاد نظام عالمي جديد... إن المفاهيم الضيقة للسيادة القومية يجب ألا تُمكَّن من عرقلة ذلك الواجب»[5]. لكنَّ عضو الكونجرس «مارجري هولت» رفضت التوقيع على الإعلان قائلة:

إنه يدعو إلى التنازل عن سيادتنا القومية لصالح المنظمات الدولية. إنه يعلن أن اقتصادنا ينبغي أن يضبط من قِبَل سلطات دولية. إنه يقترح أن ندخل نظاماً عالمياً جديداً يعيد توزيع الثروة التي جمعها الشعب الأمريكي... هذه قذارة تُتجِّس [وثيقة] إعلان الاستقلال التي وُقّعت قبل ٢٠٠ عام في «فيلادلفيا».... فهو [أي «إعلان الاعتماد المتبادل»] ينص – على سبيل المثال – على أن «اقتصاد كل الأمم هو نسيج متداخل، فلم يعد بالإمكان لأمة واحدة أن ترعى بكفاءة عملياتها الإنتاجية وأنظمتها المالية دون الاعتراف بضرورة التقنين المشترك من قبل السلطات الدولية.» هل تعجبكم فكرة «سلطات دولية» تتحكم في إنتاجنا ونظامنا المالي... ؟... إذا ما تنازلنا عن استقلالنا لـ «نظام عالمي جديد»... فقد خُنَّا قِيَمنا التاريخية من حرية وحكم ذاتي»[6].

إن هذا بالضبط ما يخطط له الآن، بل شُرع في تنفيذه ونحن في جهالة جهلاء وسهو وغفلة وكأن الأمر لا يعنينا. أليس لدينا من الحصافة ما ندرك به التواطؤ الغربي على اقتصاد العالم وسياساته؟ أم أن هذه المرأة التي استشرفت هذا الواقع قبل أكثر من ثلاثين عاماً هي أرجح عقلاً من رجالنا ونسائنا؟ من كان يظن أنه بتغافله عن هذا الواقع المرير سيكون في معزل عن آثار العولمة المقيتة فهو حالم، إن الأمر أعظم من ذلك، إنها مؤامرة عالمية لإضعاف أهل الإسلام وتقوية أهل الباطل. أسأل الله – عز وجل – أن يكفَّ عنا شر الأشرار وكيد الفجار، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) http://www.foxbusiness.com/markets/2011/10/24/vatican-calls-for-global-authority-on-economy/

(2) http://www.washingtonpost.com/opinions/the-vatican-meets-the-wall-street-occupiers/2011/10/26/gIQAGO8EKM_story.html

(3) Lesac, Jerry. Crop Circles and Climate Change (Xulon Press, 2008), p.212.

(4) Epperson, A. Ralph. The Unseen Hand: An Introduction to the Conspiratorial View of History (Publius, 1985), 368.

(5) Myers, Sondra & Benjamin R. Barber. The Interdependence Handbook (IDEA, 2004), p. 98-99.

(6) Melvin Stamper Jd. Fruit from a Poisonous Tree (Bloomington, IN: iUniverse, 2008), p. 118.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

د. عبد العزيز كامل
d.amk@hotmail.com

«بلّغوا عني ولو آية»:

لعل من المناسب – قبل التعرض لشرح الآية المختارة لهذا العدد – أن نُلقي بإطلالة على ذلكم الحديث الجامع المختار عنواناً للزاوية، فالحديث معناه – كما قال المناوي في فيض القدير (٢٦٩/٣) –: «بلِّغوا عني» «أي: انقلوا عني ما أمكنكم، ليتصل بالأمة ما جئت به، (ولو) أي: ولو كان الإنسان إنما يبلغه مني أو عني (آية) واحدة من القرآن، وخصها لأنها أقل ما يفيد في باب التبليغ، ولم يقل: حديثاً؛ إما لشدة اهتمامه بنقل الآيات لأنها المعجزة الباقية من بين سائر المعجزات، ولأن حاجة القرآن إلى الضبط والتبليغ أشد؛ إذ لا مندوحة عن تواتر ألفاظه، وإما للدلالة على تأكيد الأمر بتبليغ الحديث؛ فإن الآيات مع كثرة حَمَلتها واشتهارها وتكفُّل حفظ الله لها عن التحريف واجبةُ التبليغ؛ فكيف بالأحاديث؟ فإنها قليلة الرواة، قابلة للأخطاء والتغيير».

لكن يشترط في المبلِّغ أن يكون على علم بالقدر الذي يبلِّغه، وهذا ما أشار إليه العلاَّمة ابن عثيمين – رحمة الله – في كتابه (شرح رياض الصالحين – ١٥٨٣/١) عند شرحه لذلك الحديث؛ حيث قال: («بلِّغوا عني: يعني بلِّغوا الناس ما أقول وبما أفعل، وبجميع سنته عليه الصلاة والسلام، بلِّغوا عني (ولو آية من كتاب الله و (لو) للتقليل؛ يعني: لا يقول الإنسان أنا لا أبلِّغ إلا إذا كنت عالماً كبيراً، لا؛ إنما يبلغ الإنسان ولو آية، بشرط أن يكون قد علمها، وأنها مما بلغه رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال في آخر الحديث: «ومن كذب عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار»).

بين يدي الآية:

تكفل الله – تعالى – بحفظ كلمته الأخيرة إلى البشر (القرآن الكريم) فقال – سبحانه –: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

هذه الزاوية:

تجيء هذه الزاوية في سياق التجديد الذي درجت عليه مجلة البيان في مسيرتها المباركة التي دخلت عامها السابع والعشرين، ولأن رسالة مجلة البيان هي بيان الحق وإيضاحه في مجالاته المتعددة؛ فإن من أعظم بيانه إيضاح ما جاء به الوحي كتاباً وسنة، وإذا كانت أجلُّ وظائف الرسالة هي إبلاغ ما أنزل الله على مراد الله، كما قال – سبحانه –: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ فإن أهم وظائف من استجاب لهذه الرسالة أن يبلِّغ ما بلَّغه رسول الله ﷺ، فهذا ما وصى به ﷺ في قوله: «بلِّغوا عني ولو آية»[1].

وقد اخترنا هذا الجزء من الحديث، ليكون عنواناً لهذه الزاوية، وهي تتناول في كل عدد آية فذة جامعة، أو حديثاً مما له دلالة على أصل عظيم في المنهج الحق، لنقف مع ذلك النص من خلال فرائدَ وفوائدَ واستنباطات علماء التفسير أو الحديث؛ بحيث نهيئ مادة جاهزة لمن أراد أن يوظفها في خطبة أو محاضرة، أو حلقة تربوية.

فالزاوية وإن كانت موجَّهة للقراء عامة؛ فإنها تخاطب بوجه أخص أهل الدعوة والبلاغ والتربية، لتساهم في تقريب وتسهيل مهمتهم الجليلة في استفاضة البلاغ المبين.

(التحرير)

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (١٥٩/٢) رقم (٦٤٨٦)، والبخاري (٢٠٧/٤) رقم (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، وأبو داود (٣٦٧٤).

[الحجر: ٩]، وذلك بعد أن أودعه علمه، وعلَّمه للرسول ﷺ فقال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، ولم يمضِ على وفاة النبي ﷺ أكثر من ٥٠ سنة حتى كان أكثر سكان الأرض المعروفة يومئذٍ تحت سلطان (لا إله إلا الله).

أما اليوم، فالعالم يعج بمئات بل آلاف الملايين من البشر الوثنيين الذين يعبدون الطبيعة في مظاهرها المختلفة (أرضاً وسماءً)، فنحو نصف سكان العالم البالغين اليوم نحو سبعة مليارات نسمة في العقد الأول من الألفية الثالثة لا زالوا يعبدون الأصنام والأوثان؛ فالصين (البوذية) وحدَها يبلغ عدد سكانها بحسب إحصاء عام ٢٠١٠م نحو مليار وثلاثمائة وستة وثلاثين مليوناً من البشر الذين يعبدون (بوذا)، وهو ما يمثل ما يقرب من ٢٠٪ من سكان الأرض، عدا أقلية مقهورة من المسلمين. والهند (الهندوسية) يبلغ عدد سكانها نحو مليار وثلاثمائة وستة وأربعين مليوناً، يقدسون - إضافة إلى «البقر» - نحو عشرة آلهة «ذكور» وسبعة آلهة «إناث»، ويمثلون معظم سكان (القارة) الهندوسية. ويوجد في العالم اليوم نحو مليارين ومئة وخمسين مليوناً من النصارى الذي يعبدون (عيسى) إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة. أما الذين ليس لهم إله يعبدونه نهائياً كـ (الملاحدة الشيوعيين)، فقد كانت لهم حتى عصر قريب دولة تمثل القطب الدولي الثاني في العالم بعد أمريكا. وإذا جئنا إلى خريطة العالم الإسلامي الذي يمثل سكانُه ملياراً وستمائة مليون نسمة - منهم نحو ٨٥٪ يحملون هوية إسلامية - وجدنا من بين هؤلاء عشرات إن لم يكن مئات الملايين الذين يقعون في الشرك الصريح بعبادة القبور والأضرحة والمزارات!

كم يحتاج كل هؤلاء من الجهد حتى تبلُغهم كلمة الله التي أنزلها هدى للعالمين؟ وحَمَّل أهل التوحيد مسؤولية إيصالها وتبليغها وإقامة الحجة بها على الناس أجمعين؟ إنها مسؤولية تنوء بها الجبال، لكن لا بد من استشعار رهبة المسؤولية مهما تعلَّلنا بضعف الإمكانات، لا بد من حمل همِّها على الأقل.

لقد جاء الرسول ﷺ في أجواء جاهلية عالمية شبيهة بهذه الأوضاع التي يعيشها العالم اليوم، لكنه ﷺ تحمَّل الأمانة كلها على عاتقه، ثم حمَّلها لأصحابه من بعده بهذا القرآن حتى غيروا به وجه العالم؛ فأصبحت كلمة (لا إله إلا الله) هي العليا، وكلمة الوثنيين والنصارى واليهود والملحدين والمنافقين هي السفلى؛ ذلك أن آية من كتاب الله - تعالى - كانت محرِّكاً جباراً لهمم الموحدين من الناس نحو إخراج الناس (بالإسلام) من الظلمات إلى النور، وهي قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

سنتجول (مع المفسرين) مع ما تعطيه هذه الآية الجامعة من معانٍ إجمالية، ثم نتوقف معهم من خلالها بعض الوقفات التفصيلية.

جاءت هذه الآية من سورة المائدة في سياق حديث القرآن عن تحريم موالاة اليهود والنصارى الصادِّين الناس عن سبيل الله بما معهم من باطل وخرافات يدَّعونها ديناً وقُربى، وبيَّنت الآيات أن من خالف في ذلك وسارع إلى موالاتهم من دون المؤمنين، فإنه يدلل بذلك على مرض قلبه بالنفاق، الذي قد يؤول إلى الردة الصريحة. وقد ساق النظم الكريم في ذلك السياق فظائع وفضائح الانحراف الاعتقادي لدى الطائفتين الضالتين من أهل الكتاب، بدءاً من قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١] وحتى قوله - سبحانه -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٦].

وقد تعددت أقوال المفسرين من السلف والخلف في سبب نزول الآية، لكنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في علم الأصول. وعموم اللفظ، مع سياق الآيات، ومقاصد السورة المتوجهِ معظمُها نحو كشف أبعاد الانحراف الاعتقادي لدى النصارى بعد اليهود، يبين ذلك كله أن الآية جاءت أمراً للنبي ﷺ ولأمته من بعده، باستكمال البلاغ بما أنزل الله من الدين الحق الناسخ لما كان عليه أهل الكتابين من شرائع، والمبطل لما آلوا إليه من زيغ، حتى لا يكون باطلهم منهجاً متَّبعاً بين البشر على أنه الحق، والحال أنه يبعدهم عن الصراط المستقيم الموصل لجنات النعيم. ولذلك قال في خاتمة ذلك السياق: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٦].

وقد استُهلَّت الآية بنداء التشريف والتكليف معاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٦٧] المبعوث إلى العالمين من الثقلين.

﴿ بَلِّغْ ﴾ ؛ أي أوصل ﴿ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ففيه الهداية؛ لأنه ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ المالك أمرك والحافظ لشأنك، فلا تخشَ في الدعوة إليه أحداً، ولا تخف من مكرهم لإيقافها أبداً، فإن الله متكفل بالهداية وأنت مكلَّف بالبلاغ ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴾ [المائدة : ٦٧] فتؤدي البلاغ الكامل – والأمر كذلك – بأن امتنعت عن البلاغ أو كتمت بعضه ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : ٦٧] ؛ أي: فما أديت واجب الرسالة ومقتضاها؛ لأن كتمان بعضها إغفالاً لها ككتم كلها، ولأن بعضها ليس أولى بالبلاغ من بعض، فجميع الرسالة يكمل بعضه بعضاً، ويوصل بعضه إلى بعض. ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ الذين هم أعداؤك من الكافرين، فلن ينالوك بضر – من قتل أو أسر – يمنعك من استكمال إبلاغ الرسالة، فما عليك أنت إلا البلاغ المبين، أما الهداية، فإنها إلى الله، لا يهدي إليها إلا من افتقر لها، فأنصتَ إليها بعد بلوغها، أما من جحد النبوة وأنكر الرسالة فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ المستقرين في أمر الكفر عن علم وقصد وعناد.

هذا هو مجمل معنى الآية، مأخوذاً من مجموع التفاسير المعتبرة.

أحكام ودلالات وفوائد:

أما المعاني التفصيلية فقد حملت الآية التي نحن بصددها، عشرات الفوائد والدلالات والأحكام المجموعة من مجموع التفاسير المشهورة، اجتهدت في اختصارها، فما تركتُه أضعافُ ما أثبتُّه، حتى تحين الفرصة لبسط المجموع منها في مواضع أخرى بإذن الله؛ فإلى تلك الدلالات والأحكام والفوائد:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

• نداء التكريم هذا (يأيها) المقترن بأشرف الأوصاف التي يمكن أن يوصف بها بشر (الرسول)، تدل على أن نبينا محمد ﷺ هو أعظم الأنبياء والرسل عند الله قَدْراً لقيامه بأسمى الرسالات وأدائه لأعظم الأمانات؛ لهذا لم يناده الله – تعالى – باسمه المجرد كما نادى الأنبياء قبله (يا آدم!) (يا نوح!) (يإبراهيم!) (يا موسى!) (يا يحيى!) (يا داوود!) (يا عيسى!)؛ إنما ناداه بلفظ الرسالة أو لقب النبوة: (يا أيها الرسول!) (يا أيها النبي!) إكراماً له وتشريفاً؛ لأنه أعظم الرسل، المرَسل بأشرف الكتب، لأكرم الأمم. (راجع هذا المعنى في تفسير البحر المحيط لأبي حيان، وتفسير الكشاف للزمخشري)[1].

• النداء بوصف الرسالة (يأيها الرسول!) يدل على أن من شأن (الرسول) ألا يكتم شيئاً من الرسالة، وفي هذا شهادة من الله لرسوله بأداء البلاغ، وأن ما قام به كان واجباً عليه، لم يهمل منه شيئاً واستمر واجب البلاغ بعده على أهل البلاغ من أمته؛ فالأمر هنا ليس خاصاً به ﷺ. قال الثعالبي في تفسيره لهذه الآية: «كما وجب عليه التبليغ – عليه السلام – وجب على علماء أمته».

• عرَّف (ابن عاشور) في تفسيره للآية حدَّ التبليغ بما حاصله أنه: هو ما يحصل به ما يكفل للمحتاج إلى معرفة حكم، أن يعرفه في وقت الحاجة أو قبله، قال السعدي في تفسيرها: «ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ: من العقائد والأعمال والأقوال والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية، فبلغ أكمل تبليغ ودعا وأنذر وبشَّر ويسَّر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين».

• (ما) الاسمية هنا بمعنى (الذي)، فتفيد استغراق جميع المنزَل من الله، فالبلاغ المأمور به هو البلاغ الكامل الذي لا يغفل شيئاً ولا يخفيه، وقد أدَّاه الرسول ﷺ كاملاً، وأدَّاه الصحابة من بعده كاملاً، وكذلك التابعون وتابعوهم من بعدهم، حتى وصل إلينا الدين كاملاً، لا يحتاج إلى زيادة ولا ابتداع. (تفسير ابن كثير للآية).

• السُّنة النبوية من البلاغ المأمور به، باعتبارها تبياناً للقرآن؛ فهي من البلاغ الذي قام به الرسول ﷺ، فحياته كلها كانت بلاغاً فعلياً، وتفسيراً عملياً للقرآن، كما قال ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتابَ ومثله معه»[2]؛ أي السُّنة المفسرة له. قال القرطبي في تفسير قوله – تعالى – ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩]: (تبليغ القرآن والسنة مأمورٌ بهما، كما أُمر النبي ﷺ بتبليغهما، فقال الله له: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة : ٦٧]).

• الصحابة – رضوان الله عليهم – شهدوا للرسول ﷺ، بأنه قام بالبلاغ الكامل؛ وذلك عندما استشهدهم في حجة الوداع فقال: «يا أيها الناس! إنكم مسؤولون عني، فما أنتم

---

(١) نظراً لتعدد طبعات كتب التفسير، ولتعذُّر الحصول على بعضها إلا في نسخة إلكترونية، غير مطابقة في صفحاتها للمطبوع، فسأكتفي في هذه الحلقات بإذن الله بالإحالة إلى اسم السورة ورقم الآية من كل تفسير، دون رقم الجزء والصفحة؛ حيث يسهل الرجوع إلى الموضوع المشار إليه من خلال اسم السورة ورقم الآية فقط.

(٢) أخرجه أبو داود، رقم (٤٦٠٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم (٢٦٤٣).

قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت، ونصحت وقضيت الذي عليك. فقال: بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد! اللهم اشهد!)[1].

• والصحابة هم خير من قام بأداء البلاغ بعده. قال ابن كثير عن الصحابة في تبليغهم للقرآن: «كانوا أحرص شيء على أداء الأمانات، وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله ﷺ أودعهم ذلك ليبلِّغوه؛ كما قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، ففعل - صلوات الله وسلامه عليه - ما أُمِر به، وقال: «بلِّغوا عني ولو آية»، فبلَّغوا عنه ما أمرهم به، فأدوا القرآن قرآناً والسنة سنةً، لم يلبسوا هذا بهذا».

• كل ما أحلَّه رسول الله ﷺ وما حرَّمه مما بلَّغ به، إنما أخذه من القرآن، وقد ثبت عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أُحلُّ إلا ما أحلَّ الله - تعالى - في كتابه، ولا أُحرم إلا ما حرَّمه الله - تعالى - في كتابه»، وهذا المعنى أشار إليه ابن تيمية - رحمه الله - عندما نقل في (مقدمة التفسير) قول الإمام الشافعي: «كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن». (راجع تفسير الآلوسي للآية).

• الرسول ﷺ بلَّغ القرآن لفظاً ومعنى، والصحابة تلقَّوه عنه لفظاً ومعنى. قال ابن تيمية في أول (مقدمة التفسير): «يجب أن تعلم أن النبي ﷺ، بيَّن لأصحابه معاني القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه»، وقال ابن القيم: «النبي ﷺ بيَّن لأصحابه القرآنَ لفظه ومعناه، فبلَّغهم معانيه كما بلغهم ألفاظه، ولا يحصل البيان والبلاغ المقصود إلا بذلك. قال - تعالى - ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤][2]. ويستفاد من هذا أن تعليم تلاوة القرآن وضبط ألفاظه يجب أن يقترن بمعانيه على حسب الوِسْع، فهذا من البلاغ الواجب، حتى يستفيض العلم بالقرآن.

• سياق الآيات أعطى أمثلة للأشياء المأمور بالتصريح بإبلاغها دون مجاملة أو مهادنة، فمنها: أن اليهود والنصارى يوالي بعضهم بعضاً ضد المسلمين، ومنها أن اليهود وقعوا في الكفر الغليظ عندما سكتوا عن قول بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ - تعالى الله عما يقولون - ومنها أن أهل الكتاب ليسوا على شيء معتبَر أو مقبول من الدين ما لم يعترفوا بنبوة الرسول محمد ﷺ الموجودة في التوراة والإنجيل، ومنها مواجهة النصارى بأنهم كفار؛ لدعواهم ألوهية المسيح وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ونحو ذلك، وهذا يفيد في أن أمور العقائد الباطلة لا بد من مكاشفة أهلها بها في البلاغ حتى لا يتكلوا على أوهام الاصطفاء والاختيار، فهذا من البلاغ المبين. (انظر تفسير الظلال لسيد قطب عند هذه الآية).

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

• لما نودي الرسول ﷺ بأشرف الأوصاف وهي الرسالة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ جاء الكلام بعدها في صيغة التهديد بالانسلاخ من هذا الشرف في حال عدم القيام بمقتضى الرسالة ونشرها؛ وبثُّها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وحاشاه ﷺ أن يترك البلاغ؛ ولكنَّ التعبيرَ فيه ترهيب شديد من كتمان العلم، فغيره ﷺ غير معصوم من الكتمان. (الرازي في تفسير مفاتح الغيب).

• استعمال أداة الشرط (إن) في قوله - تعالى -: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ جاء لأن (إن) من شأنها في كلام العرب عدمُ اليقين، بخلاف لو استعملت أداة الشرط (إذا)، فـ (إن) تفيد أن عدم التبليغ الكامل غير مظنون بمحمد ﷺ، فهذه شهادة أخرى بأنه أدَّى أمانة البلاغ كاملة، فقد اختاره الله ﴿والله أعلم حيث يجعل رسالته﴾. (اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي) و (تفسير الواحدي).

• افترض هذا الشرط ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ افتراضاً؛ ليُبنى عليه الجواب، وهو قوله - تعالى -: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ليستفيق الذين كانوا يرجون أن يسكت رسول الله ﷺ عن قراءة القرآن النازل بفضائحهم من اليهود والمنافقين الصادين عن سبيل الله وليبكِّتَ من قد علم الله أنهم سيفترون فيزعمون أن قرآناً كثيراً لم يبلِّغه رسول الله ﷺ إلى الأمة وهم الروافض، وهذا من الإعجاز الغيبي المستقبلي للقرآن. (ابن عاشور في التحرير والتنوير).

• التأمل في سبب نزول الآية وزمانه يبطل دعوى الرافضة أنها نزلت في يوم (غدير خم)[3]؛ لأن الذي يقتضيه ظاهر خطبة الوداع التي طلب الرسول شهادة الصحابة بالبلاغ فيها،

(١) صحيح مسلم، رقم (١٢١٨).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة: (٢/٢٣٨).

(٣) قصة (يوم غدير خم) مروية في كتب السنة، لكن الشيعة الروافض زادوا فيها وهوَّلوا، حتى جعلوها أصلاً لمذهبهم في أحقية عليٍّ - رضي الله عنه - بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، وغاية ما فيها أن الرسول ﷺ دافع عن علي - رضي الله عنه - ضد من نالوا منه بسوء الظن، فاتهموه بالبخل والظلم، فغضب النبي ﷺ له وقال: (من كنت مولاه، فعلي مولاه). وكانت هذه القصة يوم الثامن عشر من ذي الحجة، عام حجة الوداع.

يدل علـــى أن الآية نزلت قبل يوم الغدير؛ لأن النبي ﷺ طلب شـــهادة الصحابة في يوم عرفة، ويـــوم الغدير كان بعد عودة النبي ﷺ من حجة الوداع. (الآلوسي في روح المعاني).

• فـــي الآية ردٌّ على الرافضة فـــي زعمهم جواز بل وجوب كتمان الحق وإظهار خلافه دون خوف باسم (التَقيَّة) التي جعلوها من أصول الدين، متذرعين بقول الله – تعالى –: ﴿إِلا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ مدَّعين أن رســـول الله ﷺ كتم أموراً من الدين تقية، والآية هنا تثبـــت أنه بلَّغ وأظهر كلَّ ما أنزل إليـــه دون تقية أو كتمان. (تفســـير الآلوسي الآية ٣٩ من الأحزاب)، و (المحرر الوجيز لابن عطيةالآية ٢٨ من سورة النساء).

• هذه الآية من ســـورة المائـــدة – التي هي آخر ما نزل من ســـور القرآن – من أهم مقاصدها قطع تخرُّص من قد يزعمون أن رسول الله ﷺ استبقى شيئاً لم يُبلِّغْه، أو أنه خصَّ بعض الناس بإبلاغ شـــيء من الوحي لم يُبلِّغْه للناس عامـــة. فهي أقطع آية لإبطال قول الرافضة بأن القرآن أكثر مما هو عليه في المصحف الذي جمعه أبو بكر ونسخه عثمان [رضي الله عنهما] وبأن رسول الله ﷺ اختص كثيراً من القرآن علياً بن أبي طالب – رضي الله عنه – وأنه ورَّثه أبناءَه، وأنه يبلُغ حمل بعير، وأنه اليوم عند الإمام المعصوم «المهدي المنتظر». (راجع ابن عاشور– التحرير والتنوير).

• كتمان بعض البلاغ إغفالاً له، أو اســـتهانةً به، يساوي ترك الجميع لقوله – تعالى –: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. ومعنى ترتب هذا الجواب على ذلك الشـــرط، أنك إن لم تبلغ جميـــع ما أنزل الله إليك فتركت بعضـــه، لكنت كمن لم يبلِّغ الرسالة؛ لأن كتمان البعـــض كتمـــان للجميـــع، ولأن المكتـــوم لا يُدرى أن يكون فـــي كتمانه ذهاب فوائد ما وقع التبليغ به. (ابن عاشور – التحرير والتنوير).

• هذه الأوهام الشـــيعية في كتمان الرسول بعضَ ما أنزل إليه، ألـمَّت مبكراً ببعض أنفس المتشيعين إلى علي – رضي الله عنـــه – في مدة حياته، فدعا ذلك البعضَ إلى ســـؤاله عن ذلك فقال: (هل عندكم شيء من الوحي مما ليس من القرآن، فقال: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النســـمة! إلا فهماً يعطيه الله رجلاً من القرآن، وما في هذه الصحيفة» قال: وما في هذه الصحيفة؟ قال: «العقل وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر»[1]).

وقد نفت عائشة – رضي الله عنها – هذا الزعم والوهم، مســـتدلة بهذه الآية، فقالت لمسروق – في الحديث الذي رواه البخـــاري عنها –: (من حدثك أن محمداً قد كتم شـــيئاً مما أُنـــزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُـــولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾)... الحديث[2].

• فـــي الآية أيضاً ردٌّ على الصوفيـــة الذين يزعمون أن للدين ظاهراً هو الشـــريعة التي يجـــب إظهارها، وباطناً هو الحقيقة التي يجب إخفاؤها، وهو ما يسمونه (علم الأسرار) فهو إن كان علماً فلا يجوز إخفاؤه، وإذا لم يكن علماً فلا يجوز اعتماده. وإن العلم لا يهلك حتى تكون ســـراً كما قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

• ولنا أن نقول: يســـتفاد من الآية أيضاً إبطال قول منافقي العصر، من العلمانيين (ليبراليين ويساريين) بأن الدين تؤخَذ منه العقائد لا التشـــريعات، وأن العقائد هي أمور روحية بين المخلوق والخالق، لا علاقة لها بواقع الحياة. فالإنســـان يشرِّع لنفسه في زعمهم، وأنه لا سياســـة في الدين ولا دين في السياسة، والآية تبطل كل ذلك؛ لأن الرســـول ﷺ أُمِر بتبليـــغ الدين كله (عقيدة وشـــريعة) ليُعمَل به كلِّه دون إغفال أو إهمال أو تبعيض، فتعطيل الشـــريعة إضاعة للعقيدة، كما قال – ســـبحانه –: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

• لمـــا كانت الرســـالة بلاغاً لكل الناس بالحق، وكشـــفاً لكلِّ باطل مما عليه أنواع الكفرة، كَثُر أعداء الرســـول وأعداء الرســـالة من المســـتفيدين ببقاء الناس على الضلالة. ولهذا طمأن الله رســـوله ﷺ وأمَّنه مـــن أن يناله مكروه من أعدائه الكُثُر يتوقف بســـببه اكتمال البلاغ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: لا تتوقف عن البلاغ مخافة أحد منهم مهما كانت كثرتهم وقوتهم. (الجواهر الحسان للثعالبي).

• في هذا الجزء مـــن الآية معجزة ظاهرة من معجزات القـــرآن ومعجزات الرســـول ﷺ؛ حيث تحقق وعـــد الله له بالعصمـــة من القتل والهـــلاك قبل إتمام البـــلاغ رغم كثرة الأعداء وتتابع الحروب والمحن. (البحر المحيط للواحدي).

• في الآية إشـــارة إلى المبلِّغين رسالات الله، ألا يخشوا أحداً إلا الله، وفيها بشارة لهم بأن الله ينتقم من أعدائهم، ويُضِل سعيهم في إيقاف دعوتهم. كما فعل الله بأعداء الرسول ﷺ، وأن من امتثل

(١) رواه البخاري (٤٦١٢)، ومسلم (١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١١).

لأمر الخالق يعصمه الله من شر المخلوق. (تفسير حقي).

وقد قال الشوكاني في هذا المعنى عند تفسيره للآية: «وهكذا من سبقت له العناية من علماء هذه الأمة، يعصمه الله من الناس، إن قام ببيان حجج الله وإيضاح براهينه، وصرخ بين ظهراني من ضاد الله وعانده ولم يمتثل لشرعه، من طوائف المبتدعة، وقد رأينا من هذا في أنفسنا وسمعناه في غيرنا، ما يزيد المؤمن إيماناً وصلابة في دين الله، وشدة شكيمة في القيام بحجة الله، وكل ما يظنه متزلزلوا الأقدام ومضطربوا العقول من نزول الضرر بهم وحصول المحن عليهم، فهو خيالات مختلة، وتوهمات باطلة، فإن كل محنة في الظاهر، هي منحة في الحقيقة، وأنها لا تأتي إلا بخير في الأولى والأخرى».

• ضمان العصمة للرسول ﷺ كان منصرفاً إلى المنع من القتل أو الأسر، وهي عصمة مقترنة بأداء البلاغ. وخوف الرسول ﷺ لم يكن من القتل لذاته؛ لأنه شهادة في سبيل الله تُرجى وتُغتَنم، لكنَّ هَمَّ الرسول ﷺ وخوفَه كان مما يمكن أن يحصل بسبب القتل، وهو تعطُّل اكتمال إبلاغ الهدى للناس، وهذا ما كان يخشاه ﷺ منذ بدء الرسالة؛ حتى إنه كان يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة[1]. (ابن عاشور - التحرير والتنوير).

• الوعد بالعصمة من القتل تكرر في مراحل سابقة عن وقت نزول آية المائدة ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، كما في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقوله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]؛ فآية المائدة على هذا تثبيت للوعد وإدامة له، ودليل صدق لذلك الوعد وتحقُّقه مهما تغيرت صروف الزمن وتعددت صنوف الأعداء. وهذا ما حصل لرسول الله ﷺ طوال المرحلة المكية والمرحلة المدنية. (ابن عاشور - التحرير والتنوير).

• ارتبطت العصمة من القتل باستمرار البلاغ، ولما انتهى أداء هذا البلاغ بقول الله - تعالى - : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. شاء الله - تعالى - أن يكتب لنبيه ﷺ أجر الشهداء، فيموت على فراشه من أَثَر السم الذي دسَّته له يهودية في كتف شاة، فمات منه رسول الله ﷺ وهو يقول: لعائشة - رضي الله عنها - في مرضه الذي توفي فيه: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهري من ذلك السُّم»[2]. ولهذا كان أصحاب النبي ﷺ يرون أنه - عليه الصلاة والسلام - مات شهيداً. (ابن كثير في تفسير للآية من سورة البقرة). وانظر هذا المعنى في تفسير ابن عثيمين لقوله - تعالى - ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. قال البقاعي في تفسيره (نظم الدرر) عند هذه الآية: «ولقد وفَّى - سبحانه - بما ضمن. فلما أتم الدين وأرغم أنوف المشركين، أنفذ فيه السُّمَّ الذي تناوله بخيبر قبل سنين، فتوفاه شهيداً كما أحياه سعيداً».

• ترك التبليغ يأتي لسببين: أحدهما: الخوف من القتل أو الأسر، والثاني: الخوف من عدم حصول ثمرة ذلك البلاغ، فأجاب النظم الكريم في سياق تلك الآيات عن الأول بقوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وأجاب عن الثاني بقوله بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أي: ليست عليك ثمرة البلاغ؛ إنما عليك واجب البلاغ في ذاته، ولو لم توجد ثمرته. (البقاعي في نظم الدرر).

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

• فيها إشارة إلى أن من حكم الله القدري؛ أنه لا يهدي قوماً جحدوا نبوة الأنبياء، وردوا رسالة الرسل المبلَّغة إليهم من ربهم وهذه العبارة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ من جملة البلاغ الذي أمر الرسول ﷺ أن يبلغ به الناس؛ وهو أن الهداية محجوبة قدراً عن الجاحدين، ما داموا غير مكترثين بالبحث عن الحق، ومعاندين لأهله، أما إذا تجرَّدوا وطلبوا الحق، فتُرجى هدايتهم لكن على الموحدين أن يتخلصوا من إثم عدم البلاغ. (تفسير حقي).

• الهداية نوعان: (قدرية) و (شرعية)؛ فالقدرية هي التسديد والتوفيق الإلهي لطريق الهدى ودين الحق. أما (الشرعية) فهي بيان السبيل للوصول إلى ذلك الطريق، ومن أهل العلم من سمى الأولى هداية التوفيق والثانية هداية البيان والدلالة. والهداية المنفية هنا عن القوم الكافرين هي الهداية (القدرية) أو هداية التوفيق، التي يُعاقَب بحجبها أعداء الرسل المشاقين للحق. أما الهداية الشرعية أو هداية الدلالة فقد أفاض الرسول في بيان الشريعة الموصلة إليها، فكانت حياته كلها بلاغاً بها، امتثالاً لأمر الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٤٩) بإسناد رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤٢٨).

الاهتداء والانتكاس

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)

www.alabdulltif.net

لا ينفك المرء عن جهل وظلم ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فالأصل في الإنسان الجهل وعدم العلم، كما أن طبيعة الإنسان لا تفارق الظلم. لذا لا بد من رفع الجهل بالتفقه في دين الله، والتحلي بفضيلة العلم؛ ولا سيما إذا تكالب على المرء ركام الشبهات والشكوك والشهوات والحظوظ التي تحول دون الاهتداء والانتفاع؛ فالقلوب ضعيفة، والشبهات خطَّافة تجلب الحيرة، والشهوات مزالق تورث السكرة.

كما أن علينا المصابرة والإنابة إلى الله – تعالى – ومراقبته وخشيته؛ فهو الذي يدفع الظلم ويرفع البغي. فهما أمران: العلم بأحكام الله وشرائعه أمراً ونهياً، والعلم بالله وخشيته ومخافته، (وكفى بخشية الله علماً).

فأعظم سبيل للاهتداء هو التفقه في العلم الشرعي، وتحصيل المعارف الدينية، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «من يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين».

«ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد الله به خيراً»(١).

فالعلم الشرعي يقتضي الاهتداء، ويستلزم أثره من الاستقامة والسداد، وإن كان قد يتخلَّف مقتضاه لفوات شرط أوقيام مانع(٢).

فإذا تعلم الشخص وتفقَّه في دين الله لكن فاتته الهداية ولم يحقق الاستقامة؛ فإن ذلك لعدم رسوخ العلم وغياب التصور التام اليقيني لمسائل العلم؛ إذ التمكُّن في العلم يستلزم البصيرة والاهتداء.

يقرر ابن تيمية هذه المسألة قائلاً: «كل عاصٍ فهو جاهل، وكل خائف منه فهو عالم مطيع لله؛ لأن تصوُّر المخوف يوجب الهرب منه، وتصوُّرالمحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا، ولم يطلب هذا، دلَّ على أنه لم يتصوَّره تصوراً تاماً»(٣).

وآكد أسباب الاهتداء: الدعاء والافتقار إلى الله – تعالى – فهو أقرب طريق إليه سبحانه؛ فاللجأ إلى الله – تعالى – بأن يسأله الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فالعبد مفتقر إلى أن يسأل الله الهداية، وبالسؤال والافتقار يهديه الله ويوفقه كما قال الله – تعالى – في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم».

وأنفع الدعاء وآكده دعاء الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ ولذا شُرِع أن نقوله في الصلاة سبع عشرة مرة في كل يوم (بأقل الأحوال).

«فلما كان العبد في كل حال مفتقراً إلى هداية التوفيق في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو محتاج إلى التوبة منها، وأمورٌ هُدِي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدِي إليها من وجه دون وجه؛ فهو محتاج إلى تمام الهداية ليزداد هدى، وأمور هو محتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمور هو خالٍ عن اعتقادٍ فيها فهو محتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو محتاج إلى فعلها(٤)».

وقد يجد الشخص في نفسه تثاقلاً عن الدعاء وتباطؤاً عن المناجاة، وسبيل الخلاص من ذلك أن يحاسب نفسه، ويتفقد زلاَّته وعثراته، فهو طريق إلى الانكسار ودوام الافتقار.

قال ابن القيم: (زكاة النفس وطهارتها موقوفة على محاسبتها؛ فبمحاسبة النفس يطَّلع على عيوبها ونقائصها،

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٠/٢١٢.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ١٣/٢٤٦، والإيمان لابن تيمية ص٢٢، ومفتاح دار السعادة لابن القيم: ١/٣١٥ – ٣٣٤.

(٣) الإيمان، ص١٩.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٤/٣٢٠، وانظر: جامع الرسائل: ١/٩٩، وشفاء العليل لابن القيم، ص١٧٥

فيمكن السعي في إصلاحها)[1].

وقال أيضاً: (وأضرُّ ما على المكلَّف: الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها؛ فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور؛ يغمض عينه عن العواقب، ويمشِّي الحال)[2].

والناظر في أخبار المنتكسين يلحظ أن من أسباب ذلك هو الاعتداد بنفوسهم، والعُجْب بقدراتهم ومواهبهم، والغرور بطاقاتهم. فقد أُوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأُعطُوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنه سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء. فالاعتماد والركون إلى غير الله لا يخلِّف إلا الحرمان والخذلان.

ولابن تيمية تحرير بديع الشأن؛ حيث قال : (قد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدِّهم نظراً ويعميه عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظراً، ويهديه الله لما اختُلِف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به؛ فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته، خُذِل)[3].

ومن الموجع أن جملة من الثقافات المستجدَّة تقوم على تطبيع القدرات البشرية وتهويلها، وترسيخ الطاقات والاعتماد عليها والثقة بها.

ثم إن من أسباب الانتكاس والضلال: أن في النفوس أهواءً وشهواتٍ تأبى لزوم السُّنة والشرع، وتستروح الروغان والانفلات، فتُؤثِر هذه النفوس الجامحة المحدَثَ والجديدَ، بل تنشط وتندفع في المحدَثات والضلالات ما لم يكن قبل ذلك، ولكن كما قال ابن مسعود: (اقتصاد في سُنة خير من اجتهاد في بدعة).

ولما سئل سفيان بن عيينة: ما بال الأهواء يحبون أهوائهم محبة شديدة؟ قال أنسيت قوله – تعالى –: ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾ [**البقرة**: ٩٣]؟

فالتسليم للشرع يوجب الانقياد والاستجابة للهدى، ومجافاة الهوى. قال – تعالى –: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ [**القصص**: ٥٠]، وقد أشار ابن عقيل الحنبلي إلى هذه الآفة فقال: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم)[4].

وأخيراً فالانتكاس له مقدمة وبداية، ثم إن له خاتمة ونهاية؛ فمن كان حازماً مع نفسه صادقاً مع ربه فهو من الثابتين المفلحين ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، ومن كان متلوناً مضطرباً فيُخشى عليه من غوائل الانتكاس؛ فالنفوس ضعيفة، والبلاء شديد، والشيطان له مكائد وخطوات؛ فنسأل الله الثبات.

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٥١٠.
(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ١٣٦.
(٣) الدرء: ٩/ ٣٤.
(٤) تلبيس إبليس، ص٤٥٥.

من معوقات الحراك الإستراتيجي في المؤسسات الخيرية

حلقة ضعف الثقة

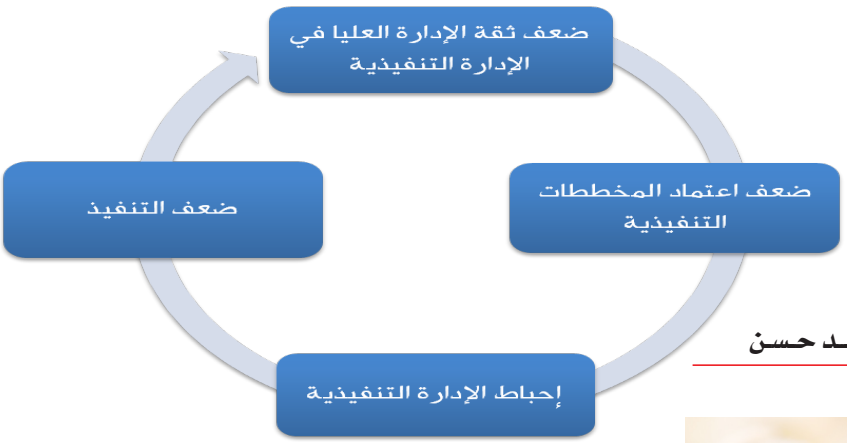

عـاصـم محـمـد حـسـن

حلقة ضعف الثقة:

تعتبـــر حلقة ضعف الثقة بين الإدارة العليا والإدارة التنفيذية من الحلقات الأكثر خطورة في عمل المؤسسات، وهي حلقة متصلة منظمة تدعم كلٌّ خطوة فيها الخطوة التي تليها، و يعسر إدراك بدايتها، ولكن يسهل اكتشافها.

تبـــدأ الحلقة – نظرياً – مـــن (انعدام ثقة الإدارة العليا) فـــي الإدارة التنفيذية لأســـباب (تاريخية – ثقافية)، أو أسباب حقيقية فعلية. يؤدي انعدام الثقة بالضرورة إلى قلة دعم الإدارة التنفيذية: إما بعدم اعتماد بنود التنفيذ، أو التشـــديد العالي في الاعتماد، أو التشكيك في القدرة التنفيذية أو غيره من المظاهر التي تنتج في ختامها دعماً ضعيفاً للمخططات التنفيذية (مادياً ومعنوياً)، يؤدي الاعتماد الضعيف للبرامج التنفيذية، إلى (إحباط) القائمين على التنفيذ، ويزداد الأمر ســـوءاً إن تســـرب إلى التنفيذيين شـــعور بعدم ثقة الإدارة العليا بهـــم، فيزداد الإحباط بالضرورة، ثم يؤدي هذا الأمر إلى (ضعف التنفيذ)، لضعف البرامج المقرَّة مع ضعف الهمم أصالةً بسبب التســـريب المتكرر بانعدام الثقة، والمواقف الداعمة إلـــى تصديق هذا الأمر، فيؤدي ضعف التنفيذ إلى (إضعاف ثقة الإدارة العليا) بالإدارة التنفيذية، فتعتمد حصة أقلَّ من البرامج التنفيذية، وهكذا تستمر حلقة ضعف الثقة في الدوران حتى تقضي على العمل في النهاية. وتنشأ نتيجة لذلك أمور عدَّة، منها – على سبيل المثال –:

١ اتجاه الإدارة العليا – بسبب ضعف ثقتها في الإدارة التنفيذية وتعرُّضها للضغط المستمر من المانحين – إلى التدخُّل المباشر في التنفيذ، أو التنفيذ عبر جهات أخرى في قضايا كان من المفترض أن تنفِّذها الإدارة التنفيذية (ليست قضايا فنية من المقبول أن تنفذها جهات متخصصة)، الأمر الذي يزيد من الإحباط، ومن ثَمَّ ضعف التنفيذ لدى الإدارة التنفيذية، كما أن الجهات القوية التي توكَل إليها مهام حساسة للتنفيذ، لها أدبياتها الخاصة وأهدافها التي قد لا تتواءم بالضرورة مع اتجاه تلك المؤسسة، التي ستحتاج – إن عاجلاً أو آجلاً – إلى جسم تنفيذي ذي ولاء أكبر.

٢ في حال يقظة همَّة المدير التنفيذي، وحرصاً منه على الإنجاز – أيّاً كان الإنجاز – فإنه يتَّجه بالإدارة التنفيذية إلى تنفيذ بعض البرامج والمشروعات الكبيرة المدعومة من جهات أخرى مما لا علاقة له بالإستراتيجية، الأمر الذي يعني في خلاصته: ضعف التوجه بالإستراتيجية المعتمَدة من كل الأطراف، ولربما اعتبرت الإدارة العليا هذا التصرف خروجاً عن النسق المقَرِّ، وانقلاباً على المتفق عليه، فيزداد الأمر سوءاً، ويتعمق ضعف الثقة أكثر فأكثر، فيقود الأمرُ غالباً إلى خيارين:

أولاً: تشديد الرقابة على المدير التنفيذي، فتقل مساحة الحركة عنده، ويتضاعف لديه الشعور بانعدام الثقة، فتحركه همته إلى ترك العمل والبحث عن بيئة منجزة، وبالضرورة تختار الإدارة العليا من تشعر بكمال ولائه لها ليحل محل المدير التنفيذي السابق، أو يبقى المدير التنفيذي في محله خاضعاً للتهديد، ساعياً إلى إزالة أسبابه بزيادة ولائه للإدارة العليا، وقبوله بالوضع على ما هو عليه.

ثانياً: التساهل مع المدير التنفيذي، وإقرار ما ينجزه – لرغبة الإدارة العليا بالطبع في أن تنجزَ الإدارة التنفيذية شيئاً مَّا يرضي المانحين – فتوافق على خططه الطارئة والبديلة، وهو ما يعني خروجَ المؤسسة عن مسارها الذي رسمته، ومن ثَمَّ تكون: حصيلة ضعيفة على المدى الطويل للمؤسسة، وتناقض بين أدبياتها المكتوبة، وثمرة تنفيذها، الأمر الذي يحمل الحصيفين من أصحاب المصلحة الأساسيين (داعمين ومانحين) إلى إعادة النظر في دعمهم لمؤسسة تتناقض أدبياتها مع تنفيذها.

والنتيجة الأخيرة من كلا الخيارين: ضعف في تنفيذ الإستراتيجية الرئيسية.

٣ في حال وجود همة عند الأعضاء التنفيذيين، وحرصاً منهم على الإنجاز، فإنهم سيتجهون – بدافع الهمة – إلى البحث عن بيئات أخرى تسدُّ الحاجة الطبيعية إلى الإنجاز، ويؤدي هذا بالضرورة: إما إلى ترك الأفراد المتميزين للعمل، ويبقى فيها العنصر الضعيف الذي يزيد ضعفه من انعدام ثقة الإدارة العليا في التنفيذ، أو أن يبقى الموظفون المتميزون مع إهمالهم لعملهم غير المحفَّز، والبقاء الصوري في المؤسسة، والإكثار من الإسقاطات، ويزداد الأمر سوءاً مع زيادة تسرُّب الأخبار بانعدام ثقة الإدارة العليا في الإدارة التنفيذية، فيصدق واقع الحال الأخبار المسرَّبة، فيضعف التواصل حول الإستراتيجية، وتقل الحصيلة.

٤ أما إن كانت الإدارة التنفيذية بطبعها مستسلمة لتدني الثقة وغياب الدعم من الإدارة العليا، والرضا بالوجود الصوري، فلا يلبث هذا الأمر أن يغري الإدارة العليا بالتفكير الجاد في تغيير الفريق أو تغيير الإستراتيجية إلى التنفيذ عبر الشراكات أو الوحدات الداعمة، وتحويل الإدارة التنفيذية إلى جهاز تنسيقي، إلى حين توفر بدائل أقدر على الإنجاز، وهو ما يتطلب وقتاً لإحداث التناغم المطلوب في طريقة التفكير بين الجهازين، وسيظل الوقت عاملاً حرجاً على الدوام في المسار الإستراتيجي لكل مؤسسة.

كيف نكسر حلقة انعدام الثقة؟

ومع هذا كله، فإن ثمة خبراً يســرُّ، وهو إمكانية كســر حلقة انعدام الثقة هذه، والعودة بالعمل إلى مساره الصحيح، وهذا الأمر تقع مسؤوليته على كلا الطرفين (الإدارة العليا والتنفيذية) كالتالي:

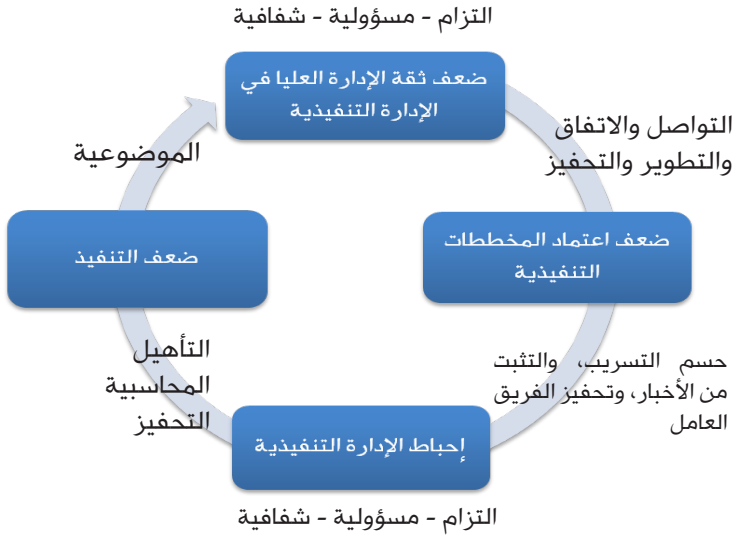

١ – بحــث الأســباب الموضوعية لعــدم ثقــة الإدارة العليا بالتنفيذية: إذ في كثير من الأحيان يظل الاعتماد على الشائع من الثقافة، والمواقف المفــردة، مضلِّلاً، وبافتراض كفاءة الإدارة العليا فإن أسباب عدم الثقة تدور حول أمور، منها:

أ – ضعــف في فاعليــة الإدارة التنفيذية مــن حيث: القيمُ، طريقةُ التفكير، نمطُ الإدارة، ويعالج هذا الأمر بما يلي:

- الاختيار الجيِّد منذ البدء للإدارة التنفيذية.
- غرس المزيد من القيم المشــتركة في المؤسســة: كالمسؤولية، والأمانة، والهمة، والحرص على المســتفيدين والشــفافية وغيرها، وزيادة معدلات البرامج التي تدعمها: كالتحفيز، والتواصل، وغيرها.

ب – ضعف في كفاءة الإدارة التنفيذية، وتعالَج بما يلي:

- إحكام اختيار الفريق التنفيذي.
- التدريب المستمر للفريق التنفيذي ليرقى إلى مستوى تنفيذ الإستراتيجية.

أما في حال (ضعف كفاءة الإدارة العليا نفســها)، وبســاطة أدوات تقييمها للإنجاز، واعتمادها على الانطباعات والمشافهات، بدون معايير مناســبة، فإن الأمر سيتطلب أن تتأهل الإدارة العليا في القيادة بمفهومها الشامل.

٢ – في حال اقتراح الإستراتيجية من الإدارة التنفيذية – وهو حــال معظم المؤسســات – فإنه على الإدارة العليــا الالتزام التام بدعــم ما أُقرَّ، والاتفاق على حدٍّ معقول من التنفيذ، يوازن ما بين بعث التحدي لدى المنفِّذيــن ومراعاة إمكاناتهم، ويكون هذا الأمر في جوٍّ مــن الصراحة والتعاون والتحليل العميق، والإدراك العالي للذات والإمكانات.

٣ – التــزام الإدارة التنفيذية بتنفيذ المُقَر – على قلته – من الإدارة العليــا، وتجويد التنفيذ؛ فتعزز النجاحات الصغيرة من ثقة الإدارة العليا فــي الإدارة التنفيذية، ويلزم هــذا بالطبع أن يقود المدير التنفيــذي حَراكاً قوياً داخل المنظومة لترقية همَّة العاملين، ويصبــر على ضعف المُقَر من الخطط؛ رغبــة في تجويده وزيادة الثقة على المدى الطويل في تنفيذ المشــروعات الأكبر، وعلى فريق التنفيذ أن يستوعب دوره في تعزيز جوِّ الثقة في المؤسسة.

٤ – قطع مادة التســريب، وإجراء مقتضيات الشرع في تلقِّي الأخبار وروايتها، وتغليب حُسْن الظن، وتعزيز المحاسبية.

٥ – تطوير آليات فاعلة لقياس أثر التنفيذ.

٦ – تعزيــز التواصل بــين الإدارة العامــة والتنفيذية، وعدم الاكتفاء بالعلاقــات الآلية التي لا تتجاوز التصــورات والتقارير، ومما يمكن طرحه هنا:

- اجتماع شهري لمناقشة التقدم في الإستراتيجية.
- إدارة حلقات معرفية لتدارس التجارب الجيِّدة والاستفادة منها.
- اشــتراك الإدارة العليا مــع التنفيذية فــي بعض البرامج التدريبيــة المهمــة؛ إذ إن بيئة التدريب تســاعد على اكتشــاف الإمكانات، وتعمِّق التواصل.
- اهتمــام الإدارة العليــا بإنجــازات التنفيذين الشــخصية والأسرية، كاهتمامهم بإنجازاتهم في التنفيذ.

ولله الأمر وهو المستعان سبحانه.

بشرى للمدارس ودور التحفيظ

جهاز البيان

لتحفيظ القرآن

للكبار والصغار

بصوت أربعة قراء
الشيخين السديس و الشريم
والشيخ محمد صديق المنشاوي
والشيخ عبدالله بصفر

يمكنك:

- تحديد مجموعة آيات والاستماع إليها.
- تكرار الآيات المحددة.
- الاستماع لنفس الآية بأكثر من صوت.
- الاستماع حسب السورة.
- الاستماع حسب الصفحة.
- الانتقال إلى الصفحة / السورة التالية.
- العودة للصفحة / السورة السابقة.

مقاس الجيب

فقط 199 ريالاً

يعمل بالكهرباء
و بطاريه الجوال

فقط 175 ريالاً

دار السلام للنشر والتوزيع

المكتب الرئيسي الرياض: ٤٠٣٣٩٦٢-٤٠٤٣٤٣٢ فاكس: ٤٠٢١٦٥٩ الفروع: العليا: ٤٦١٤٤٨٣ الملز: ٤٧٣٥٢٢٠ السويلم: ٢٨٦٠٤٢٢
السويدي: ٤٢٨٦٦٤١ مندوبون: ٠٥٠٥١٩٦٧٣٦ - ٠٥٠٣٤٥٩٦٩٥ - ٠٥٠٤٤٠٥٩٤٣ جدة: ٦٨٧٩٢٥٤ الخبر: ٨٦٩٢٩٠٠
المدينة المنورة: ٨٢٣٤٤٤٦ - ٠٤ خميس مشيط: ٠٥٠٠٧١٠٣٢٨ القصيم: ٠٥٠٣٤١٧١٥٦ ينبع البحر: ٠٥٠٠٨٨٧٣٤١ الكويت: ٩٩٦٠٠٨٤٥
Website: www.darussalamksa.com Email: darussalam@awalnet.net.sa -

دعائم تربوية
من خلال الموعظة القرآنية
موعظة لقمان نموذجاً

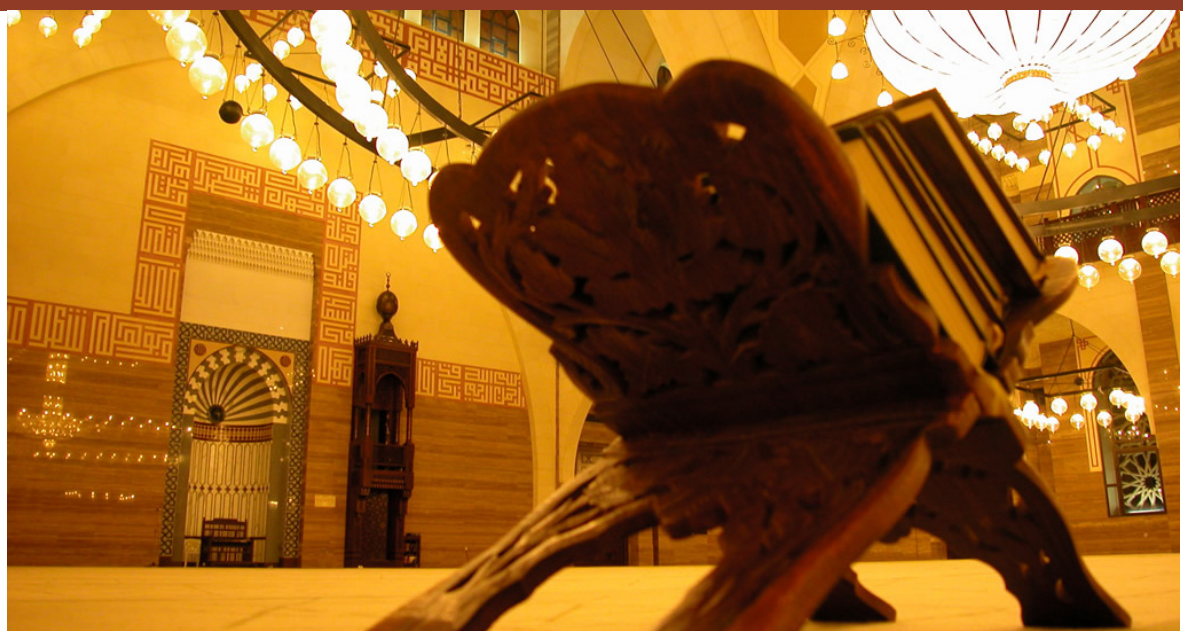

أ. أحمد بازز

الحديث عن التربية حديث مهم تنبع أهميته من أهمية التربية نفسها، وذلك باعتبارها المدخل الصحيح لإيجاد الشخصية المسلمة المتزنة المستقيمة، وتنشئة جيل فاقهٍ لدينه متمسك به، عامل به وداعٍ إليه، ليحقق خيرية الأمة[١].

ويَحسُن بنا في بداية هذا المقال أن نعرِّف بالتربية من جانبيها (اللغوي والاصطلاحي):

التربية في اللغة: يقول الراغب الأصفهاني: الرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً، إلى حد التمام، يقال: ربه ورباه وربيه[٢].

أما في الاصطلاح الشرعي فهي: تنشئة الفرد وإعداده على نحو متكامل في جميع الجوانب العقدية والعبادية والأخلاقية، والعقلية والصحية، وتنظيم سلوكه وعواطفه في إطار كلِّي يستند إلى شريعة الإسلام[٣].

من هنا يتبين أن التربية – بمفهومها الإسلامي – تُعنَى بتصحيح التصورات، ثم تصحيح التعبدات، ثم تصحيح السلوك الاجتماعي[٤]. وهذا ما تجسده موعظة لقمان التي نحن بصدد استخراج الدعائم التربوية منها.

(١) صفحة: ٥٦ بتصرف من كتاب نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ، لمحمد بن شاكر الشريف، ط، الأولى ٢٠٠٦م.

(٢) الإحالة المفردات كتاب: الراء (ربب).

(٣) انظر كتاب نحو تربية إسلامية راشدة مرجع سابق.

(٤) للمزيد من البيان انظر: كتاب: التوحيد والوساطة في التربية الدعوية ص ٨، دارالكلمة مصر المنصورة، ط، الأولى ٢٠٠٢م للدكتور فريد الأنصاري الخزرجي المغربي، رحمه الله.

تتضمن الآيات - موضوع الدراسة - منهجاً تربوياً سامياً لمن امتثلها وعمل بمقتضاها كما يريد الآباء ورجال التربية... وهي تغنيهم عن غث النظريات التربوية المستوردة. جاءت هذه الموعظة تحمل إلينا دعائم تربوية من الأهمية بمكان، يستفيد منها المربي قبل المُربَّى (المتلقي)، ولا يستطيع المهتم بمجال التربية - مهما كان متضلعاً ومتخصصاً في هذا العلم - أن ينكر أهميتها وشموليتها لكل المناحي (الدينية والدنيوية)، في الأخلاق والآداب والمعاملات.

قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٢ - ١٩].

بين يدي الموعظة:

مما ينبغي أن نشير إليه ها هنا أن هذه الموعظة اتسمت بأمور جعلتها بليغة ومثمرة:

أولاً: أنها حكيمة وصادرة من حكيم[١].

ثانياً: استعمل لقمان الحكيم أسلوب النداء من باب المجاز لطلب حضور الذهن لوعي الخطاب.

ثالثاً: استعمل التصغير لكلمة الابن (بني) لتنزيل المخاطَب الكبير منزلة الصغير كناية على الشفقة به والتحبب له، وفي مقام الموعظة يدل على تمحض النصح، وفيه حث على امتثال الموعظة.

رابعاً: تكرار أسلوب النداء بين هذه الوصايا التي ضمتها الموعظة لتجديد نشاط السامع لوعي فحوى الخطاب.

ويستفاد مما ذكر أن استقبال الخطاب وفهم مراميه يختلف من شخص لآخر وَفْق استعداداته وإمكاناته العقلية، ولذلك ينبغي مراعاة ذلك حتى يكون لما يُلقيه المربي (أباً كان أو مدرساً) من أقوال أو توجيهات قبول حسن ينتفع به سامعه[٢].

إن القرآن قد زكى هذه الموعظة الحكمة فسطرها - سبحانه - في كتابه وصية ذهبية صالحة لكل زمان ومكان، متى امتثلها الإنسان انتفع بها أيما انتفاع، ونحن من منطلق عقيدتنا الإسلامية أَوْلى بها من غيرنا، وأن نستفيد منها كما سطرها الوحي في ثنايا المصحف الشريف، دون أن تحتاج إلى صياغتها في قوالب تشبه تلك النظريات التربوية الفاشلة المستوردة (بأموال طائلة) من غرب عالمنا وشرقه لأسماء بشرية يعتري النقص والقصور أفكارهم.

وقفة مع لقمان الحكيم: من باب الوقوف على قائل هذه الموعظة البليغة لمعرفة أسبابها ونتائجها والعلاقة بين القائل والسامع يَحسُن بنا أن نعرِّف بصاحب النص (الذي حكى القرآن موعظته) على عكس البنيويين الذين يقولون بموت صاحب النص.

فلقمان: اسمه لقمان بن عنقاء بن سدون، وكان أسود البشرة، اختلف أهل العلم في شأنه: هل هو نبي أم حكيم صالح فقط، غير أن ما ذهب إليه الجمهور أنه لم يكن نبياً بل كان حكيماً قذف الله في قلبه الحكمة فنطق بها[٣]، وقد قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(١) والحكمة هي وضع الشيء في محله. أما الحكيم فهو المعلم والمرشد الناصح.

(٢) انظر كتاب نحو تربية إسلامية راشدة من الطفولة حتى البلوغ لمحمد بن شاكر الشريف، ط، الأولى ٢٠٠٦م ص ١٠٨

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ٣/٤٢٧، وأحكام القرآن لابن العربي المعافري المالكي:٣/٤٢٦ تحقيق رضا فرج الهمامي، المكتبة العصرية، صيدا، ط، الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

مع الموعظة:

بيَّن أهـــل العلم أن الأقوال المنســـوبة إلى لقمان كثيرة، وقد عدَّ الطاهر بن عاشور[1] في تفسيره حِكَمه المأثورة في ســـبعين حكمة غير ما ذُكر في سورة لقمان موضوع بحثنا التي جمعت أصول الشريعة، وهي:

الاعتقـــادات، والأعمـــال، وأدب المعاملة، وأدب النفس. وحكمة لقمان تتجلى في أقواله الناطقة عن حقائق الأحوال المقربة للخفيات بأروع الأمثلة في مجالات عدة.

لمـــا كان أخطـــر الذنـــوب علـــى الإطلاق وأشـــدها عقوبـــة يـــوم القيامة هـــو الإشـــراك بالله، فقـــد ابتدأ لقمـــان موعظة ابنه بطلب إقلاعه عن الشـــرك بالله؛ لأن النفس المعرضة للتزكية والكمال يجب أن يقدم لها قبل ذلك تخليتها عن مبادئ الفســـاد والضلال؛ فإن إصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل. فجاءت الموعظة بقاعدة ذهبية ينبغي أن تكتب على أبواب المدارس والمعاهد والجامعات؛ ألا وهي التخلية قبل التحلية.

والحقيقة الناصعة التي لا ينكرها لبيب: هي أن الشرك جريمة شـــنعاء فيه ظلم لحقوق الخالق – ســـبحانه – وظلم للنفس بإخضاعها لغير الله، وظلم لحقائق الأشياء بإفسادها. فمنطلق العملية التربوية الناجحة هو تصحيح الاعتقاد وربط العبـــاد بخالقهم – جل وعلا – في جميع أعمالهم قال النبي ﷺ: «إِنَ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوفُ عَلَى أُمتِي الإِشْرَاكُ بِالله. أَمَا إِني لَسْتُ أَقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْساً، وَلا قَمَراً، وَلا وَثَناً، وَلَكِنْ أَعْمَالاً لِغَيْرِ الله، وَشَهْوَةً خَفِيةً»[2].

فالبناء الأســـاس الذي ينبغي أن نبدأ بـــه في العملية التربوية: هو بناء الإنســـان المســـلم الذي يؤمـــن بالله حق الإيمان، ويكون وثيق الصلة به، دائم الذكر له والتوكل عليه، يستمد منه العون مع أخذه بالأسباب[3].

لقد رفع الإســـلام مقام الوالدين إلى مرتبـــة لم تعرفها الإنسانية في غير شـــريعة الرحمن؛ إذ جعل الإحسان إليهما والبِر بهما في المرتبة الثانيـــة بعد الإيمان بالله والعبودية له. ورغم المقام العالي الذي وضع فيه المولى – عز وجل – الوالدين فـــإن أي تعارض بين مصالحهم وعقيـــدة التوحيد يعني عدم الخضـــوع لهما ولا طاعتهما بل برهمـــا بدون أن يمس جناب التوحيد بســـوء. وهذا ما يشير إليه قوله – تعالى –: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَـانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْـهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْـكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤ – ١٥].

ما يزال الجانب العقدي يشغل حيزاً وافراً في الموعظة اللقمانيـــة، ولأهميته لذلك نجد الحكيم يبين لابنه علم الله الواسع والمحيط بجميع الكائنات أنَّا كانت – من العالم العلوي والعالم السفلي – والقدرة المحيطة بجميع الممكنات، وساق مثال الخردل كأدق الأجســـام المختفية في أصلب مكان أو أقصاه؛ ليكون ما فوقَه أَوْلَى بأن يحيط به علم الله وقدرته. وهذه الطريقة في التعليـــم بالمثال، وبالمثال الأقل والأقرب، أنجع في تحصيل منافع كثيرة لدى المتعلم والسامع. وهو ما يســـمى عند علماء الأصول دلالة فحوى الخطاب، وهو من الأســـاليب القرآنية كما قال – تعالـــى – في حق الوالدين: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ ليكون ما فوق التأفف أَوْلَى بالتحريم.

تهدف هـــذه الوصية إلى زرع الرقابة الإلهية لدى الابن وإطلاعه على علم الله الواســـع – سبحانه – الذي لا تخفى عليه الأشياء وإن دقَّت ولطفت وتضاءلت.

فـــإذا قمنا بتصحيـــح المعتقد لدى الأبنـــاء ووجد الوازع الديني لديهم فإن الأمر يســـتوجب أن نتنقل بهم إلى الجانب العملي العِبادي، لذلـــك انتقل لقمان بابنه إلى موضوع جدير بوقفات؛ ألا وهو موضوع الصلاة، التي هي من أهم العبادات.

والصلاة التي أمر بها لقمان ابنه هي التي تكون بحدودها وفروضها وأوقاتها؛ لتكون صلة بين العبد وربه وطريقة مثلى لتربية النفس والمجتمع. والذي يُحسَب على الإسلام ويَنظُر إلى الصلاة بازدراء حَريٌّ أن ينعت بالسفه وألا يكون موضع ثقة لقضاء حوائج العباد؛ لأنه ضيَّع الفريضة عمود الدين، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع.

(١) التحرير والتنوير دار سحنون، عدد١٥/ ٣٠جزء الدار التونسية للنشر.
(٢) سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس رضي الله عنه
(٣) انظر كتاب شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة لمحمد علي الهاشمي وكالة المطبوعات والبحث العلمي –وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد–المملكة العربية السعودية ١٤٢٥هـ–١٩٩٥م

والصلاة هي أول ما يُحاسَـــب عليه العبد يوم القيامة من الأعمـــال؛ فإن صلحت صلح سائر عمله.

ينبغي على رجـــل التربية والتعليم في كل مراحل تلقين الناشـــئة العلوم الأبجدية والمعـــارف والآداب والأحكام: أن يكون لموضـــوع الصلاة فيها نصيب وافر بجانبيها (النظري والعملي). وأبارك جهود ثلة من الأساتذة الفضلاء تطبيقَهم لبعض أحكام الصلاة في مادة التربية الإســـلامية لأقسام الإعدادية الثانوية.

إن مـــن الأمـــراض الخطيرة فـــي مجتمعنـــا الراهن الاستهانة بهذه الشريعة (الصلاة)؛ فأغلب الناس لا تصلي مـــع العلم أن العهد الذي بينهم وبين الإســـلام هو الصلاة فمن تركها فقـــد كفر كفراً عملياً يقدح في انتســـابه إلى الإسلام! ألا نخجل مِن تركنا للصلاة ونحن من المكلفين، ما عسانا نجيب به هذا الحديث؟

قال معاذ بن عبد الله بن خبب الجهني لامرأته: (متى يصلي الصبي؟ فقالت: كان رجل منا يذكر عن رســـول الله ﷺ أنه ســـئل عن ذلك، فقال: إذا عرف يمَينه من شِـــماله فمُروه بالصلاة)[1].

والصلاة هي البوابة إلى حسن الخلق؛ فهي التي تنه عن الفحشـــاء والمنكر، وتعين على ذكر الرب ســـبحانه، فإذا أدَّاها العبد كما أُمر فإنه ينتقل إلى مسؤولية الأمر بالمعـــروف والنهي عن المنكر والصبر في ســـبيل الدعوة إلى الله عز وجل. لهذا جاءت موعظة لقمان مشيرة إلى أن هذه الأشياء هي من عزم الأمور، بل هي التي تحيلنا إلى قضية مفادها: أن الإنسان اجتماعي ومدني بطبعه، يألف ويؤلف ويحتك مع بني جنســـه يتبادلون النصيحة، فلا خير في قوم لا يتناصحون ولا خير في قوم لا يقبلون النصيحة، كما يقال.

والأمر في الموعظة للابن بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكـــر، يقتضي إتيان الأمر وانتهاءه في نفســـه؛ لأن الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشر يعلم ما في الأعمال من خير وشـــر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره الناس ونهيه إياهم. ومن المفروض في نظر المتعلم – وهو الرأي الحق – أن يكون المربي متمثلاً لكل الضوابط الشـــرعية (عقدية وأخلاقية وسلوكية) وهو يؤدي المهمة المنوطة به؛ مهمة الرسالة المتمثلة في بناء الفرد المسلم بناءً سليماً مثمراً، لكن ولخيبة الأمل فإننا نجد أغلب المشـــتغلين بالحقل التربوي أبعد مَن تمثَّل القيم التي نحن بصدد دراستها في هذا المقال.

نحـــن في هذا الوقت في أمسِّ الحاجة إلى هذه الآداب والأخلاق التي جاءت بها الموعظة؛ لتحسين سلوكيات أفراد المجتمع؛ لا ســـيما التلاميذ، ولن نجد أفضل فضاء نستقي منه هذه الآداب مثل القســـم والفصل الدراسي. والمسؤولية ملقاة على عاتق المربين من الأساتذة الشرفاء، الذين يمثلون شخص لقمان الحكيم في العملية التعليمية التعلُّمية.

فمن جملة ما جاء فـــي الموعظة من الآداب في معاملة الناس: النهي عن احتقار الآخرين والافتخار عليهم، والأمر بإظهار المساواة مع الناس وعدِّ الشخص نفسه واحداً منهم. وبينت الموعظة أمثلة لهذه الأمراض التي تعيق صفاء القلوب والمحبة والإخوة بين أفراد المجتمع: كالإعراض عن المخاطَب أثنـــاء المحادثة، وهو ما عبَّر عنه اللفظ القرآني بالصَّعار أو الصَّعـــر، فمن يفعل ذلك لا يجد قبـــولاً لدعوته ولا صدى

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة، رقم: ٤١٩.

لتعليمه. فكـــم كان عزيزاً علينا أن نلقى أســـاتذة اتَّصفوا بأحسن الخِلال يتقربون من طلبتهم ويتوددون إليهم: إقبال، حنو، تواضع يزيدهم كلُّ هذا في أعيننا رِفعَة وشموخاً على عكس نماذج لا يَحسُن بهم أن يتقلدوا تلك المناصب الشريفة في التربية والتعليم؛ لأن هذا الأمر من مهام الأنبياء والرسل – عليهم صلوات اللـــه أجمعين – لذلك عبر النص القرآني في الموعظة بعزم الأمور تشـــبيهاً بأولـــي العزم من الأنبياء والمرسلين.

وبالرجوع إلى لغة العرب نقف على حقيقة الكلمة، يقال: صاعر خده، صعره: إذا أماله عجباًص وكبراً. والصعر: داء في العنق لا يستطاع معه الالتفات[1]؛ فكأنه صيغ له صيغة تكلُّف بمعنى تكلف إظهار الصعر، وهو تمثيل للِاحتقار؛ لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقِر المســـتخِف في غالب الأحوال. والاحتقار بالقول والشتم أَوْلى بالنهي.

وشمل النهي كذلك المشي الذي يوحي بالتكبر والخيلاء. والمأمور به إذن، هو القصد فيه وهو الوســـط بين السرعة المفرطة والدبيب، وكم عهِدنا أن نسمع وصفاً بالتشبيه يُشين التماوت في المشي فيقال لك: هل تمشي على البيض؟

والمشي القصد من الآداب المرتبطة بحالة الشخص الخاصة، وينضـــاف إليه الكلام، وهما أظهر مـــا يلوح على المرء من آدابه؛ فغـــض الصوت في حقيقة الأمر مـــن الآداب العالية التي ينبغي أن نراعيهـــا في الكلام مع الآخرين، والمـــراد بالغض هو الكلام المسموع الذي يكون دون الجهر الفاحش ولا السر الخافت. ووجه النكارة في الصوت أن يكون عالياً فاحشـــاً يشـــبه إلى حد بعيد نهيق الحمار، لذلك ورد تشبيهه به في موعظة لقمان الحكيم.

والحمـــار عند العرب مَثَلٌ في الذم البليغ والشـــتيمة وكذلك نهيقه. ومن استفحاشـــهم لذكـــره مجرداً فإنهم يكنُّون عنه ويرغبون عن التصريح باسمه، فيقولون: طويل الأذنين.كما يكنى عن الأشـــياء المســـتقْذَرة، وقد عُدَّ في مســـاوئ الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أُولِي المروءة.

ما أجملها وأقومها من قيم تضمنتها هذه الموعظة، وهي السبيل إلى تنمية بشرية حقيقية بأبعادها الإيمانية والمادية.

ومثل هذه الموعظة البليغة الجامعة والمانعة لا يمكنها إلا أن تنتج نموذجاً صالحاً متقياً يخدم الصالح العام، واثقاً بنفسه لا يَهاب أحـــداً إلا مولاه، حكيماً بليغـــاً وفاعلاً ومؤثراً في مجتمعه وقدوة للآخرين.

وإليـــك هذا النموذج الفذ تقربـــه إليك هذه القصة[2]، لنجعلها خير ما نختم به هذا المقال:

قحطت البادية في أيام هشـام بن عبد الملك، فقدمت القبائل إلى هشام ودخلوا عليه، وفيهم (درواس بن حبيب) وعمـره أربع عشـر سـنة، فأحجـم القـوم وهابوا هشـاماً، ووقعت عين هشام على درواس فاستصغره، فقال لحاجبه: ما يشـاء أحد أن يصل إلى إلا وصل، حتى الصبيان. علم درواس أنـه يريده، فقال: يا أمير المؤمنين! إن دخولي لم يخلَّ بك شـيئاً، ولقد شـرفني، وإن هـؤلاء القوم قدموا لأمر أحجموا دونه، وإن الكلام نشـر، والسكوت طي، ولا يُعرَف الكلام إلا بنشـره، فقال هشـام: فانشر لا أبا لك! وأعجبـه كلامه، فقال يـا أمير المؤمنـين! أصابتنا ثلاث سـنين: فسنة أذابت الشـحم، وسـنة أكلت اللحم، وسنة نقـت العظـم، وفي أيديكم فضـول أمـوال، إن كانت لله ففرقوها على عباد الله المستحقين لها، وإن كانت لعباد اللـه فعلام تحبسـونها عنهم؟ وإن كانـت لكم فتصدقوا بهـا عليهـم فإن الله يجزي المتصدقـين، ولا يضيع أجر المحسـنين، واعلـم – يـا أميـر المؤمنـين – أن الوالـي من الرعية كالروح من الجسد، لا حياة للجسد إلا به. فقال هشـام: ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عُذراً، وأمر أن يقسـم في باديته مئة ألف درهم. وأمر لدرواس بمئة ألـف درهـم. فقال: يا أمير المؤمنـين! أرددها إلى أعطية أهـل باديتـي فإنـي أكـره أن يعجز مـا أمر لهم بـه أمير المؤمنـين عن كفايتهم؟ فقال: ما لك من حاجة تذكرها لنفسـك؟ قـال: ما لي مـن حاجة دون عامة المسـلمين. فانظـر إلى ثقة هذا الغلام وجرأته في الحق. واجعله – يا ربنا قدوة – لشباب المسلمين، آمين.

(١) سعدي أبو جيب، القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، دار الفكر دمشق – سورية ص٢١٢ – ٢١٣.

(٢) راجع هذه القصة وفوائد أخرى في الوجيز في التربية بقلم: يوسف محمد الحسن، ص ٢٢.

لا خوف من الإلقاء بعد اليوم

كن خطيب زمانك

الدورات معتمدة

قالوا عن الدورة ...

تم تنفيذ ٣٠٠ دورة

وتدريب ٢٠,٠٠٠ متدرب ومتدربة

وتقديم ١٥ دورات دولية

وتقديم ١٠٠ برنامجاً لكبار الشخصيات والشركات والجهات الحكومية

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

- تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس.
- كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
- كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
- التعرف على أسرار التأثير.
- تنمية مهارات الإصغاء.
- التعامل مع الأسئلة المفاجئة.

الخطيب الصغير:

دورة إلقاء للأبناء:

آداب اجتماعية

+ علوم رجال

+ لبس المشلح

مدربون سعوديون
خبرة ١٢ سنة

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات: جرير و العبيكان

من إصداراتنا :

كتاب: لماذا نخشى الإلقاء؟

البوم قرص مدمج: فن الإلقاء

يحصل المتدرب على: إصدارات المركز + تصوير أداؤه على سي دي + شهادة معتمدة

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء و المواجهة

www.alelqa.com

الرياض هاتف : ٠١/٤٧٧٩٩٩٢

جوال: ٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤/٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص رقم ٤٨٩٥/٢١٤

Badr: 0508948947

الحلقة المفقودة

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com

في لقاء ثقافي عامٍّ قدَّم صاحب الورقة عدداً من الأفكار والرؤى المتعلِّقة بالشأن العام، تحفَّظ بعضهم على بعض هذه الأفكار وطالب بأهمية أن تدرَس لضمان التزامها بأحكام الإسلام؛ إذ رأى فيها تجاوزاً لبعض أحكامه، فما كان من مقدِّم الورقة إلا أن فتح فمه بحديث طويل ملأه بقائمة من الكلمات الآتية:

(هذه أحكام خلافية، قضايا ظنية غير قطعية، هو فهمك للنص، هذه متغيرات وليست ثوابت).

الذي لفت نظري في كلامه أنه لم يكن - كما يظهر - يعرف أساساً بوجود إشكالات على تقريره، فلما نُبِّه بها أخرج لها هذه المقطوعة المألوفة، وقد كان الموقف السليم أن يوقف نفسه قليلاً ويقول: لعلِّي أتأكد أو أبحث أو أسأل حتى أزيل هذا الإشكال.

مثل هذا الكلام يعني أن أحكام الإسلام ليست ملزمة لأحد ولا حاكمة على أحد، فاختر أي قول تراه ثم قل (خلافيٌّ) و (ظنيٌّ) و (متغيِّر) و (اختلافٌ في الفهم) وينتهي حينها الموضوع!

نعم، في الشريعة مساحة واسعة للقضايا الظنية، وفيها خلاف فقهي كبير، وتتضمن متغيرات عدَّة، ويقع فيها اختلاف في الفهم والتأويل وتحوي مدارسَ مختلفة فيه، لكن هذا لا يعني أن يتوقَّف التذكير بضوابط الشرعية ويتعطَّل الإلزام بها:

أولاً: لأن الشريعة ليست كلها ظنية وخلافية ومتغيرة، بل ثَمَّ مساحة للقطعيات والمتفق عليها في الشريعة، وحين يبادر الشخص فيتعلَّق بحبل الظنيات والخلافيات مباشرة لتجاوز أي إشكال يَرِد عليه، فإنه سيتعلَّق به مرَّة أخرى في القطعيات والمجمَع عليها في ما بعد، حتى تلاحظ بجلاء أن كافة الرؤى المتضمنة انحرافاً صريحاً تقول دائماً حين تذكَّر بالشريعة: هذه مساحة خلافية وظنية!

الثاني: أن وصف القضايا بكونها (ظنية) أو (خلافية) لا يعني أنها أصبحت مرسلة وفارغة وغير ملزمة، أو أنها مساحة اختيار من متعدد ينتقي منها الإنسان ما يشاء، أو يختار من واقعه وفكره ما يروق له ويصبح في حِلٍّ من نصوص الشريعة وأحكامها ما دام فيها خلافاً أو ظناً!

ليست هذه منهجية مقبولة في الشريعة، فإذا كان ثَمَّ خلاف وظن في كثير من أحكام الإسلام، فإن ثَمَّ منهجاً قطعياً مُجْمَعاً عليه في كيفية التعامل معه، هو أن يبذل الإنسان جهده ويسعى للوصول لأرجح ما يعتقد من خلال منهجية علمية موضوعية تتقصَّد الكشف عن مراد الله قَدْرَ الطاقة ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فالتنازع يُذهَب به إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس هو إشارة عفو أو إرشاد إلى الاختيار المفتوح. فلا يكفي أن تأتي برأي ثم تقول: (ظنيٌّ) أو (خلافيٌّ)، بل حدثنا كيف توصَّلت إلى هذا الرأي؟ ما المنهجية التي سلكتها لاختيار هذا القول؟ ما هي الطريقة والآلية المتبَعة عندك في القضايا الخلافية والظنية؟ فالعلماء وطلاب العلم وعامة الناس لهم منهجية في التعامل مع المسائل الظنية والخلافية فما هذه المنهجية التي يسلكها مثل هذا المتحدث؟

معرفة هذه المنهجية تضع في يدك فائدتين:

الفائدة الأولى: أن تعرف مدى موافقة هذه المنهجية للشريعة: فحين يقول أحد: إن منهجه هو في الاجتهاد والموازنة بين الأدلة لكونه عالماً ومجتهداً، فهذا منهج سليم ومنضبط. أو يقول: إن منهجه اتباع المذهب الفلاني الذي يثق فيه وفي اختياراته، فهذا منهج سليم ومنضبط. أو يقول: أتَّبع علماء البلد الذي أنا فيه لكوني أراهم أوثق علماً وديناً فهذا منهج سليم

ومنضبـــط. فمعرفة المنهج يخلِّص المنهج الشـــرعي من المناهج العبثية الفوضوية كمثل من يقول: منهجي أن اختار الأسهل! أو أن اختار ما أشـــاء! أو أختار ما هو أقرب للواقع وأكثر ملائمة له، أو ما يكون متوائماً مع متطلبات الحداثة!

فالقضايـــا الظنيـــة والخلافية هي الدائرة الأوســـع في الشـــريعة الإســـلامية ولا يمكن أن تكون قضايا مهمَلة يختار الشـــخص ما يشاء وينتقي ما يشاء، وإلا فما فائدة وجودها من الأســـاس؟ ولماذا أنفق العلماء أعمارهم في تحريرها وتفصيلها وبيان دلائلها ما دامت مجرد قائمة اختيارات متســـاوية يختار الشخص الأسهلَ والأجمل والأقرب؟

فهذه منهجيات مخالفة لقطعيات الشـــريعة، وتؤدي لتعطيل الشريعة وتجعل نظر المســـلم ليس إلى الشريعة بل إلى التخلُّص من قيودها، حتى ولو كانت في مسائل خلافية؛ فالخلاف لا يلغي ضرورة اتباع الشرع.

الفائـــدة الثانيـــة: أن نحاكم آراء هذا القائل التي يختارها إلى منهجه؛ فما دام أنه اختار منهجاً معيَّناً فيجب أن تكون آراؤه منطلقة منه، فيجب أن تكون هذه الآراء مبنية على منهج صحيح وليست آراءً مشـــتتة مقطَّعة لا يجمعها أي جامع؛ وإنما يختار لاعتبارات غير شرعية ثم يظنُّ أنها شرعية!

وثمَّ فائـــدة أخرى تزيد علـــى هاتين الفائدتين: هي أن يحفظ الإنســـان أصولَه القطعية وأحكامـــه المجمَع عليهـــا؛ فالتهاون مع الظنيات سيُضعف الثقة في القطعيات تدريجياً؛ لأن الشخص حين يرتفع صوته دائماً بـ (فيه خلاف)، فإن هذا الصوت لن ينقطع حين لا يكون في المســـألة (خلاف)، بل سيتردد الصوت ذاته في المسائل القطعية والمجمَع عليها في ما بعد، ولن يبالي بذلك حينها لأنه عوَّد نفسه أن لا يلتفت إلى الأحكام الشرعية ما دام فيها خلاف، وحدود الخلاف ليست معلومة له دائماً، فحين يعتاد أن لا ينظر في الشريعة إلا في ما بعد فإنها ســـتكون ثقيلة ومزعجة وســـيجد أي تأويل لها مخرجـــاً مريحاً ومقبولاً. ولهذا - ومن واقع ملاحظة شـــخصية - وجدتُ أن كثيراً ممن يقول: (فيه خلاف) وهذه مساحة (ظنية)، هو ذاته حين تأتي القضايا القطعية يقول لك: (كيف عرفت أنها قطعية) و (كل يظـــنُّ أن ما يراه قطعياً)! فيتهاون في المســـاحة الظنية لأنه مستمســـك بالقضايا القطعية، ثم صار يشك - أصلاً - في وجود القضايا القطعية التي هو مستمسك بها.

يـــأتي بعضهم فيقول: من الضروري مراعاة المتغيرات التي تؤثر في الأحكام الشرعية؛ فليس كلُّ ما كان في عهد النبي ﷺ يكون ملزماً لنا الآن لتغيُّر الحال.

فهـــذا كلام فيه حـــق، وفيه باطل كثير أيضـــاً، وهنا تأتي أهميـــة تحديد المنهـــج؛ فما المنهج لمعرفة المتغيـــر والثابت في أحكام الإسلام؟ وما هو المتغير والثابت مما كان في عهد النبي ﷺ؟ فهذا الكلام يقوله أشـــدُّ العلماء تمسكاً وتعظيماً لأحكام الإســـلام، ويقوله أشـــدُّ العلمانيين تفلتاً وانحرافاً عن أحكام الإسلام.

ويـــأتي آخر فيقول: ليـــس كل ما صدر عن النبي ﷺ يكون تشريعاً فثَمَّ أمور ليست تشريعية.

لا بأس، السؤال المهم ما الضابط لمعرفة التشريعي من غير التشـــريعي لديك؟ فهذا الكلام قد يكـــون كلاماً أصولياً دقيقاً منضبطـــاً وقد يكون تحلُّلاً وتفلُّتاً من قيود الشـــريعة، والفارق بينهما هو في معرفة المنهج الذي سيسلكه الشخص في معرفة السنة التشريعية من غير التشريعية.

تحديد المنهجية يفتح العين على ظاهرة فكرية شائعة في زمننا، ظاهرة من يأتي بالأقوال المنبتَّة التي ليس لها امتداد فقهي ولم تخرج من البيئة الشـــرعية فيتمســـك بها بدعوى أن فيها خلاف وأنها ضمن المســـاحة الخلافية أو المتغيرة، والحقيقـــة الظاهرة أن القول لم يـــأتِ من قراءة فقهية، بل من إســـقاط خارجي على الفقه، حاول بعده أن يكسِّـــر في أبنية الفقه ومذاهبـــه وأقواله حتى يجد لهذا الدخيل مكاناً مناسباً يجلس فيه فوقع بســـببه في إشكالات أكبر؛ فمثلاً: ينفي وجود حدِّ الردة في الشريعة الإسلامية متأثراً بضغط مفاهيم الحريات المعاصرة وأســـئلتها، فيحاول أن يبحث لها عن مذهب هنا أو قول هناك، لكنه يصطدم بمثل قول النبي ﷺ: «من بدَّل دينه فاقتلوه» فيتملص منه بأنه حديث آحاد أو ليس سُنة تشريعية أو كان لظرف زمني معيَّن... إلخ. وهكذا يدخل في منهجيات مضطربة حتى يســـتقيم له إسكان هذا الفرع الفقهي الدخيل؛ فهـــل من منهجك أن ترفض حديث الآحاد؟ وما هي السنة التشريعية من غير التشريعية لديك؟ وما هي المتغيرات التي تؤثِّر في الحكم؟ كلها أســـئلة منهجية لن تجد لها جواباً محرَّراً؛ لأن هذا القول لم يخرج من منهج فقهي أساساً.

إنها (الحلقة المفقودة) في كثير من القضايا المعاصرة، تضع يدك عليها حـــين تبحث عن المنهج وآلية التفكير التي يســـير عليها الإنســـان في القضايا الخلافيـــة والظنية، وفي منهجية ومستندات الأقوال التي يتبناها، وربما تُصْدَم حين تجد الحلقة المفقودة التي وضعتَ يدك عليها هي المنهج ذاته؛ حيث إن الأمر كثيـــراً ما يكون بمنهج مضطرب أو بلا منهج وطريق واضح من الأساس!

التداول الحداثي لنظرية المقاصد

دراسة نقدية (1)

سلطان العميري

يقــوم الاتجاه الحداثــي على مبادئ مسـلَّمة لديه لا يقبل التشــكيك فيهــا أو التردد فــي قبولها، ويعتقــد أن الأخذ بها والخضوع لها أمــر محتَّم على الجميع، ويصف كلَّ من لم يأخذ بها أو لم يسلم لها بكل أوصاف الذم والتقبيح.

وأهم تلــك المبادئ وأعظمها منزلة وأخطرها شــأناً: مبدأ التاريخية الــذي يعني: أن للأحداث والممارســات والخطابات أصلها الواقعي وحيثياتها (الزمانية والمكانية) وشروطها (المادية والدنيوية)، وخضوع البنى والمصطلحات والأفكار للتطور والتغير وإعادة التوظيف.

فهذا المبدأ يســتفرد برأس الهرم فــي المنظومة الحداثية ويشكِّل البعد المعرفي الأكثر عمقاً وتقديساً في المشروع الحداثي.

ولأجل هــذا لا يزال الخطاب الحداثي يســعى جاهداً إلى إحلال النظرة التاريخية في التعامل مع الشــريعة الإســلامية والتراث القائم حولها بدل النظرة المطلقة التي يتعامل بها الفكر الديني كما يقول.

ولا يُخفــي الخطــاب الحداثي أنه يجد صعوبــة بالغة في تأسيس تلك النظرة في العقل العربي المعاصر، ولأجل هذا يلجأ في أحيــان كثيرة إلى المراوغة الفكرية؛ فبدل أن كان يتعامل مع التراث بنفسية القطيعة، وأنه شيء مختلف عنه ويمثل طرفاً آخر مباينــاً له، أخذ في محاولة البحث عمــا يمكن أن يمثل جذوراً ولبنات تراثية يبني عليها النظرة التاريخية، وهذا التعاطي يمثل انعطافــاً حاداً في الطرح الحداثي، ويكشــف بصورة كبيرة عن مقدار الأزمة الانهزامية التي يعيشها الحداثيون العرب.

ومن الأبعاد الشرعية والتراثية التي وجد الخطاب الحداثي فيها منفذاً ينفذ من خلاله إلى تأسيس التأريخ الفكري لأنظمة الشريعة وأصولها وتفاصيل أحكامها (نظرية المقاصد).

ويســتوقف القارئَ للمنتَج الحداثي كثرةٌ ملفتة من التداول الموســع لمصطلح المقاصد وحضور مكثــف للمفاهيم التي ترجع إليها؛ فقد لقيت تلك النظرية اهتماماً واسعاً ونالت احتفاءً كبيراً في المحافل الفكرية والاجتماعات الحوارية لديه.

وانتهــى الخطاب الحداثي من خــلال الاعتماد على نظرية المقاصــد إلى إهــدار أحكام الشــريعة التفصيلية والشــرائع التكليفية، وتوصَّل إلى اعتبار أن أحكام الشــريعة لم تشــرع إلا لتحقيق مقاصدها، فهي تقوم مقام الوســائل بالنسبة للغايات؛ فأحــكام الحدود لم تشــرع إلا لردع مقترفــي المعاصي، ومنع الربا لم يشــرع إلا لتحقيق مقصد العدالة ومنع استغلال القوي للضعيــف، وهكذا الأمر في كل حكم من أحكام الشــريعة، فهي لا تحمــل أي قيمة فــي ذاتها؛ وإنما قيمتها مــن جهة تحقيقها لمقاصدها، فإذا تحقق المقصد مــن غيرها بحيث إن العصر أو حاجة النــاس أوجبت طريقاً آخر يحقق لنــا المقصد منها فلا داعي للالتــزام بها، ولا يبقى مبرر لاســتمرارها، وهذا الحكم شــامل لكل العبادات الشرعية؛ فالشــريعة إنما جاءت بها لأنها هي التي تحقق أغراضها في زمن الرسالة، وهذا يعني أنها غير مقصودة بالتشريع إلا على جهة الوسيلة فقط[1].

(١) انظر: القراءة الجديدة للنص الديني، عبد المجيد النجار (ص٦٩).

ولأجل تحقيق مزيد من العدل والانضباط في نسبة هذا القول إلى الخطاب الحداثي لا بد من نقل بعض مقولاته الدالة على ذلك.

ومن أكثر من أَوْلى نظرية المقاصد اهتماماً: عبد المجيد الشرفي؛ فإنه انطلق من أن الشريعة تعيش في أزمة مع معطيات الحداثة المعاصرة، وأنه لا سبيل للخروج من تلك الأزمة إلا بالتخلص من المُطْلَقَات التي لا تراعي اختلاف البيئة والتاريخ والمكان، وبيَّن أن التخلص من تلك المُطْلَقَات المنافية مع الحادثة يتم عبر طرق منها: «ضرورة التخلص من التعلق المَرَضِي بحرفية النصوص - ولا سيما النص القرآني - وإيلاء مقاصد الشريعة المكانة المثلى في سَنِّ التشريعات الوضعية التي تتلاءم وحاجات المجتمع المعاصر»[1].

ودعا إلى: «قلب المسلَّمة التي استقرت في الوجدان الإسلامي من القرن الثاني للهجرة، وإلى الإقرار بأن العبرة ليست بخصوص السبب ولا بعموم اللفظ معاً؛ بل في ما وراء السبب الخاص واللفظ المستعمَل له يتعين البحث عن الغاية والمقصد» ثم كشف نتيجة ذلك فقال: «وفي هذا البحث مجال لاختلاف التأويل بحسب احتياجات الناس واختلاف بيئاتهم وأزمنتهم وثقافتهم»[2].

ونتيجة لذلك توصل إلى إلغاء لزوم العبادات الكبرى في الإسلام: من صلاة وصيام وزكاة وحج؛ بحجة أن الشريعة إنما جاءت بأحكامها لمصلحة تناسب ذلك العصر، فإذا تحققت مقاصدها في ترقية الروح وتحقيق العدالة بأشكال أخرى فنحن لسنا ملزمين بتفاصيلها التشريعية[3].

ويجعل حسن حنفي المصلحةَ المصدرَ الأولَ للتشريع والأساسَ الذي تحاكَم إليه نصوص الوحي، والمرجعَ المعتمدَ في التسليم به، فيقول: «تقوم مصادر التشريع كلها... على مصدر واحد هو المصلحة باعتبارها المصدر الأول للتشريع؛ فالكتاب يقوم على المصلحة، والسنة أيضاً تقوم على المصلحة»[4]، ويقول: «كما يؤوَّل النقل لصالح العقل في حالة التعارض، كذلك يؤول النقل لصالح المصلحة في حالة التعارض»[5]، ولم يفرق بين النقل القطعي وغيره؛ فالكل خاضع للمصلحة.

وينتقد الجابري عمل الفقهاء ويصفهم بأنهم انشغلوا بالمسائل اللغوية عن المقاصد الشرعية، وينتقد قاعدة الفقهاء التي تجعل الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، ويدعو إلى تغييرها؛ بحيث يكون الحكم يدور مع مصلحته وجوداً وعدماً، ويضرب لذلك مثلاً، وهو: تحريم الربا في بعض المستندات والاستثمارات البنكية، وجزم بإباحتها لعدم وجود الاستغلال فيها، ويؤكد ذلك بقوله: «ومعلوم أن منه الاستغلال هو الحكمة من تحريم الربا»[6].

وأما نصر حامد أبو زيد فإنه يرى أن الفكر الديني يعاني من سيطرة فكرة قداسة النص الديني عليه وأنه يتعامل معه على أنه نص متجاوِز لواقعه الذي تشكَّل فيه، ويرى أن الحل في التخلص من سلطة النص الديني، وإحلال النظرة التاريخية في التعامل مع العقائد والتشريعات التي تضمنها، يمكن من خلال إحلال النظرة المقاصد في التعامل مع النص الديني، كما فعل عمر بن الخطاب، كما يقول[7].

وتتابعت إشادات الخطاب الحداثي بنظرية المصلحة على أنها هي التي تمثل الأساس والمرجع للتشريع الإسلامي وهي التي يمكن من خلالها الحفاظ على روح الإسلام في عصر الحداثة، وهي التي من خلالها يمكن للمجتهدين أن يقوموا بنسخ ما فقدت مصلحته، ويمكنهم من خلاله التخلص من سلطة النص الديني كما يقولون ويسيحون أحراراً في كيان التشريع الإسلامي ليغيروا من معالم خريطته بناء على ما يرونه مصلحة[8].

ولا نريد من القارئ الكريم أن يبادر إلى إصدار حكم مَّا على هذه النظرية بمجرد قراءتها؛ إذ ليس من المنهجية الصحيحة في التعامل الفكري مع الدعوة الحداثية إلى تحكيم نظرية المقاصد أن نبادر إلى إنكارها أو نتسرع في الحكم عليها بالبطلان؛ وإنما لا بد - ابتداءً- أن نقوم بالتوجه نحوها بالتحليل ونستحضر المنهجية التي تراعي الضرورات العقلية والدلائل التاريخية والمتطلبات المعرفية.

وإذا قمنا بذلك فإنَّا سنكتشف بوضوح أنها تعاني من إشكاليات معرفية ومنهجية عميقة أحدثت خللاً كبيراً في بنيتها وفساداً معرفياً في كيانها، وحتى لا يكون الكلام مقتصراً على مجرد الدعوى الخالية مما يسندها من الواقع فلا بد من سرد تلك الإشكاليات توضيحها.

وقد أخذت تلك الإشكاليات أشكالاً متعددة؛ فمنها ما يرجع إلى الفكرة المنتجة، ومنها ما يرجع إلى الآلية التي قامت عليها النظرية، ومنها ما يرجع إلى الذهنية التي تناولت الشواهد والأمثلة.

(١) لبنات، الشرفي (ص١٦٢).
(٢) الإسلام بين الرسالة والتاريخ، الشرفي (ص٧٠).
(٣) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، الشرفي (ص٥٩) وما بعدها.
(٤) من النص إلى الواقع، حسن حنفي: (٢/ ٤٨٨ - ٤٨٩).
(٥) حصاد الزمن (الإشكالات)، حسن حنفي (ص٧٦).
(٦) وجهة نظر، محمد الجابري (ص٦١)، وانظر بنية العقل العربي (ص٦٣).
(٧) انظر: مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد (ص١٠٤).
(٨) انظر في جمع مقولاتهم: العلمانيون والقرآن، أحمد الطعان (٣٨٢ - ٤١٨).

وتتضح تلك الإشكاليات بأنواعها في الأمور التالية:

الأمر الأول: المفهوم الزئبقي: فعلى الرغم من الأهمية البالغة التي أولاها الخطاب الحداثي للمقاصد، والمنزلة العالية التي حظيت بها لديه؛ إلا أنه لم يقدم للقارئ بياناً لمفهوم المقاصد التي يقدمها على النص الشرعي ويجعلها متحكِّمة فيه، ولم يقدِّم له المضامين المعرفية التي تكشف عن جوهرها وحدودها ومعالمها، وتضمن استعمالها بشكل منضبط؛ فإذا كانت النظرة المقاصدية تبلغ عند الخطاب الحداثي إلى أن تكون أحد المرتكزات الكبرى التي تحاكَم إليها النصوص الشرعية وتفهَم على ضوئها، وتغيَّر قطعيات الشرعية بناءً على تغيرها، فإن هذه المنزلة تتطلب مهامَّ كبيرةً تستوجبها الآثار المترتبة عليها وتؤكدها الأبعاد المعرفية التي بنيت عليها.

ولنا أن نتساءل: هل قام الخطاب الحداثي بتلك المهام الكبيرة بالشكل الذي يلبي المهام المنهجية؟

إننا حين نستقرئ المنتَج الحداثي لا نجد فيه إلا التكرار لأهمية المصلحة والمطالبة بتحكيمها على النصوص الشرعية وتقديمها عليها، ولكنه لم يتوجه إلى بناء منظومة معرفية متكاملة يكشف من خلالها عن ماهية المصلحة التي ينادي بها، وبيَّن فيها هويتها ويوضح معالمها، وبين حدودها وضوابطها، ويشرح أسسها ومبادئها، ويزيل اللبس والغموض عن أقسامها وأصنافها، وبين المعيار الحقيقي في اعتبارها؛ فما المصلحة التي تقدَّم وما شروطها؟ وما ضوابطها؟ وما حدودها؟ ومن يمكنه أن يفعل ذلك؟ وكيف الجواب عما يعارض تلك الفكرة؟ كل هذه الأسئلة المنهجية لا نجد لها جواباً في المنتَج الحداثي.

فالمصلحة التي يطالب بها الحداثيون، مصلحة هلامية زئبقية فضفاضة بلا هوية ولا معنى ولا كيان ولا حدود، وهذا ما صرح به حسن حنفي حيث يقول عن المصلحة: إنها «أمور إضافية تختلف باختلاف الأفراد والأحوال والظروف، وربما العصور والأزمان»[1].

فهل من المقبول عقلاً أن تتم المطالبة بشيء ويُعلَى من شأنه إلى درجة عالية؛ بحيث يكون هو المتحكم في النصوص الشرعية، ثم يهمَل ويبقى بلا شرح ولا بيان؟ وهل من المقبول عقلاً أن تترك النصوص الشرعية الواضحة في دلالتها والبينة في لفظها والمتسقة في معانيها وتصبح خاضعة لأمر غير واضح ولا محدد المعالم؟

ولو كان الخطاب الحداثي ملتزماً بالمنهجية العلمية الصحيحة لبادر إلى تنفيذ المهام المعرفية الواجبة عليه، ولكنه لم يف بشيء من ذلك.

ولو قمنا بعقد مقارنة بين تعامل الفقهاء والأصوليين وبين الحداثيين مع نظرية المقاصد، لوجدنا أن الفقهاء استوعبوا كل ما تتطلبه المصلحة من مهام؛ فقد اجتهدوا في بيان ماهيتها ومفهومها، ودرسوا تاريخها ومراحلها، وبحثوا في أقسامها وأصنافها، وبالغوا في ترتيبها وتصنيفها، وبيان حدودها وخصائصها، وأوضحوا أهميتها وأقاموا الأدلة الشرعية والعقلية والتاريخية على ذلك، وكشفوا عن فوائدها وآثارها، واستغرق ذلك منهم مئات الصفحات.

ونجد في المقابل الخطاب الحداثي لم يفعل شيئاً من ذلك، مع أن منزلة المصلحة لديه أكبر وأعلى من منزلتها لدى الفقهاء.

ألا يدل هذا على تسرُّب كبير في منهجية البحث العلمي وإهمال للواجبات المعرفية، وتضييع للأمانة العلمية وللأسس الفكرية؟ وهو ما أدى إلى إحداث الخلل في النظرية وفقدانها الانضباط والاتساق في نفسها وانسيابها مع الأصول والمبادئ العملية، ألا يدل إهمال الخطاب الحداثي لتنفيذ المهام الواجبة عليه على عدم احترامه للعقل العربي وعدم تقديره للوعي المعرفي لدي؟

ولا بد من التأكيد على أن المشكلة ليست في ضرورة اعتبار المصلحة ولا في أهميتها، ولا في الإقرار بالارتباط الوثيق بينها وبين أحكام الشريعة، فإن هذه القضية غدت من الضروريات العلمية الواضحة، وهي من البدهيات المعرفية لدى الفقهاء والأصوليين؛ وإنما المشكلة في تحديد ضوابطها ومعالمها وتوضيح معاييرها ومحدداتها[2]، والكشف عن الضمانات الموضوعية التي يعتمد عليها ويرجع إليها في التحقق من المصلحة، وكل هذه الأمور تم طيها وإغفالها في الخطاب الحداثي.

وهذا الإهمال المنهجي الذي ظهر بشكل بيِّن في تعاطي الخطاب الحداثي مع النظرة المقاصدية يتجلى في مواطن عديدة من منتجه المعرفي؛ فقد أضحى الغموض والاعتماد على المصطلحات المجملة الفضفاضة والغامضة سمة بارزة فيه، وتتالت الشكاوى من تلك الاستعمالات حتى من بعض الخطاب نفسه[3].

---

(١) من النص إلى الواقع، حسن حنفي: (٢/ ٤٨٧).

(٢) انظر: الاجتهاد، النص الواقع المصلحة، أحمد الريسوني، ومحمد باروت (ص٣٣)، وضوابط المصلحة، البوطي (ص١٤١).

(٣) انظر: التفسير السياسي للقضايا العقدية، سلطان العميري (ص١٩).

والعقل المسلم لا يستطيع أن يعتمد على المصلحة الهلامية الحداثية؛ لأنها ستؤدي - حتماً - إلى السيلان في الأحكام الشرعية، وإذابة الحدود التي وضعتها الشريعة لأحكامها، وعلى مخالفة ما أجمع عليه الصحابة الكرام والأمة الإسلامية كلها على مرِّ تاريخها، ويبقى الباب مفتوحاً لتبدُّل أحكام الشريعة القطعية، وتغيُّرها بحسب تغيُّر المصالح الطارئة، ومن ثمَّ تصل النتيجة إلى ذوبان هوية الإسلام نفسه وميوعة أحكامه وضياع معالمه.

ولا بد من التأكيد أيضاً على أن المطالبة بالكشف عن ماهية المصلحة وتبيين حدودها وضوابطها ليست خاصة بالمصلحة ولا بالخطاب الحداثي فقط، بل الأمر عام في كل الأصول المنهجية التي يرجع إليها في دراسة الشريعة؛ فمَن طالَبَنَا بالأخذ بالنصوص لا بد أن يقدم لنا الشروط والضوابط التي تضمن لنا الاعتماد على تلك النصوص بالشكل المنضبط، ومن طالَبَنَا بالاعتماد على الإجماع أو القياس، لا يُقبَل منه كلامه حتى يكشف عن ماهية ما يدعو إليه وحدوده.

الأمر الثاني: الاختزال الشديد: فالمتجول في المنتج الحداثي يجد أنه قد مارس تضييقاً واسعاً في طبيعة المصلحة التي ادَّعى أنها مقدَمة على الشريعة، أو ادَّعى أن الشريعة خاضعة لها؛ فالمتلمس لطبيعة المصلحة التي ينادي بها الخطاب الحداثي يجد أن الطابع الغالب عليها هو الطابع المادي، الذي يقوم على إبراز المصالح الراجعة إلى الحياة المادية كالحفاظ على المال وشؤون الحياة اليومية، أو الطابع الذي يرجع إلى المصلحة المحسوسة فقط، ولا شك أن هذه المصالح أمور مقصودة للشريعة، ولكنه يغفل المصالح المعنوية، والمتعلقة بالجوانب الروحية والنفسية والأخروية، ويغفل المصالح الخفية المتعلقة بسياسة النفس الإنسانية والمجتمعات البشرية.

والسبب وراء الاختزال الحداثي لنظرية المقاصد: أنه لم يقم باستقراء النصوص الشرعية؛ وإنما اكتفى بالعموميات فقط، ولو رجعنا إلى المنتج الفقهي والأصولي لوجدنا تأكيد عدد من علماء المقاصد على أن الشريعة اهتمت ببيان المقاصد التي يريد الشارع تحقيقها بوضوح.

وهذا ما تؤكده دلالة العقل أيضاً؛ فبما أن المقاصد قضية محورية في الشريعة فمن المستبعَد عقلاً ألا تتضمن نصوصها بياناً لها؛ فإن الشريعة قد بينت تفاصيل الأحكام الشرعية، وهذا يقتضي بالضرورة أن تبين - نصاً أو إشارة - مقاصدها الأصلية والفرعية، وهذه القضية كانت واضحة بشكل كبير لدى علماء المقاصد - كالشاطبي وغيره - ولهذا تراهم كثيراً يؤكدون على أن السبيل إلى معرفة المقاصد المؤثرة في الأحكام هو نصوص الشريعة نفسها.

وإذا رجعنا إلى النصوص الشرعية (الكتاب والسنة) لنتحقق من طبيعة المصالح التي انبنت عليها الأحكام الشرعية نجد أنها شملت كلا النوعين (المصالح المادية والمعنوية) بشكل متوازن ولم تفرق بينهما، بل أبانت عنهما بشكل واضح، وأقامت لكلا النوعين وزناً وثقلاً معتبراً في الأحكام التفصيلية.

ومن الأمثلة الشرعية التي تبرز فيها المصالح المعنوية: قوله - تعالى -: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٥]، فهذه نبهت على أن مقاصد الصلاة منها ما يرجع إلى المعاني المعنوية والعبادية ومنها ما يرجع إلى المعاني المادية الظاهرة.

ومن أمثلة ذلك: قوله - تعالى -: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [**التوبة**: ١٠٣] فهذه الآية دالة على أن من مقاصد الزكاة مقصداً معنوياً، وهو تطهير النفس وتزكيتها.

ومن أمثلة ذلك: قوله ﷺ: «تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، في رواية ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف؛ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له وطهورٌ»[1]، فهذا الحديث يدل على البعد المعنوي في مقاصد إقامة الحدود بخلاف التصور الحداثي عنها.

وقد تكرر التنبيه في النصوص الشرعية على المصالح المعنوية بشكل مكثف، كما جاء في وجوب الصيام، وتقديم الهدي في الحج، وتحريم الخمر، ووجوب القصاص وغيرها.

وهذا الحال يستوجب على من أراد أن يتعامل مع النصوص الشرعية بالنظرة المقاصدية أن يراعي جميع أصناف المقاصد التي جاءت الشريعة لتحقيقها، وعليه أن يكون مدركاً للفرق بين المقاصد الأصلية من العبادة وبين المقاصد التابعة، ومتى لم يكن لديه الإدراك الكافي للفرق بين النوعين فإنه سيقع في الخلل والانزواء نحو الجور في التعامل مع الشريعة المتكاملة المتزنة.

(١) أخرجه: البخاري (٣٨٩٢).

وانظر إلى الشـــاطبي كيف كان مدركاً لهذه الحقيقة، وكيف اســـتطاع أن يتعامل مع مقاصد الشـــريعة بمهارة فائقة، واستمع إليه وهو يقول عن الصلاة: «الصلاة – مثلاً – أصل مشـــروعيتها الخضوع لله – سبحانه – بإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قـــدم الذلة والصغـــار بين يديه، وتذكير النفـــس بالذكر له. قال – تعالى –: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْـرِي** ﴾ [**طه**: ١٤]، وقال: ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْـرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللّهُ يَعْلَـمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [**العنكبوت**: ٤٥]، وفي الحديث: «إن المصلي يناجي ربه».

ثم إن لهـــا مقاصد تابعة: كالنهي عن الفحشـــاء والمنكر، والاســـتراحة إليها من أنكاد الدنيا فـــي الخبر: «أرحنا بها يا بلال»، وفي الصحيح: «وجُعلَت قرة عيني في الصلاة»، وطلب الـــرزق بها. قال الله – تعالى –: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَـكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَـا لا نَسْـأَلُكَ رِزْقًا نَّحْـنُ نَرْزُقُكَ** ﴾ [**طـه**: ١٣٢]، وفي الحديث تفســـير هذا المعنـــى، وإنجاح الحاجات: كصلاة الاســـتخارة وصلاة الحاجة، وطلب الفـــوز بالجنة والنجاة من النار، وهي الفائـــدة العامة الخالصة، وكون المصلي فـــي خفارة الله، في الحديث: «من صلى الصبح لم يزل في ذمة الله»، ونيل أشرف المنازل. قال – تعالى –: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَـى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [**الإسـراء**: ٧٩]؛ فأعطى بقيام الليل المقام المحمـــود»[1]، فهو يفرق بوضوح بـــين المقاصد الأصلية والمقاصـــد التابعة، ويحقـــق التوازن بين المقاصـــد الظاهرة والمقاصد المعنوية.

ونبَّه ابـــن تيمية منذ زمن مبكر على خطورة تغليب المصالح المادية وإغفال المصالح الروحية والمعنوية، وحذر من ذلك وكشف عن آثارها وكأنه يتنبـــأ بالخطاب الحداثي؛ حيث يقول: «وكثير من الناس يقصـــر نظره عن معرفة ما يحبه الله ورســـوله من مصالـــح القلوب والنفوس ومفاســـدها ومـــا ينفعها من حقائق الإيمان وما يضرها من الغفلة والشهوة كما قال – تعالى –: ﴿ **وَلا تُطِعْ مَـنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ [**الكهف**: ٢٨]، وقـــال – تعالى –: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [**النجـــم**: ٢٩] ﴿ **ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ** ﴾ [**النجم**: ٣٠] فتجـــد كثيراً من هؤلاء في كثير من الأحكام لا يرى من المصالح والمفاســـد إلا ما عاد لمصلحة المال والبدن. وغاية كثير منهم إذا تعدَّى ذلك أن ينظر إلى سياسة النفس وتهذيب الأخلاق بمبلغهم من العلم.

وقوم مـــن الخائضين في أصـــول الفقه وتعليـــل الأحكام الشـــرعية بالأوصاف المناســـبة، إذا تكلموا في المناســـبة وأن ترتيب الشارع للأحكام على الأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم ورأوا أن المصلحة نوعان (آخروية ودنيوية): جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية مـــا تضمن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقـــول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهـــرة من أنواع المعارف بالله – تعالى – وملائكته وكتبه ورســـله، وأحوال القلوب وأعمالها: كمحبة الله وخشيته وإخلاص الدين لـــه والتوكل عليه والرجا لرحمته ودعائه وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة. وكذلك في ما شرعه الشـــارع من الوفاء بالعهود، وصلة الأرحـــام، وحقوق المماليك والجيران، وحقوق المســـلمين بعضهم على بعـــض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه حفظاً للأحوال الســـنية وتهذيب الأخلاق. ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشـــريعة من المصالح. فهكذا من جعل تحريم الخمر والميســـر لمجرد أكل المال بالباطـــل؛ والنفع الذي كان فيهما بمجـــرد أخذ المال»[2]، فابن تيمية في هذا النص يؤكد على ضرورة التوازن في مراعاة المقاصد التي جاءت الشريعة بها، وأنه لا يجوز تغليب نوع على نوع ولا إغفال نوع لحساب نوع آخر.

ومرة أخـــرى، فإنا لـــو قمنـــا بالمقارنة بين جهـــود الفقهاء والأصوليـــين وبـــين جهود المشـــروع الحداثي في بيـــان مقاصد الشـــريعة العامة والخاصة والمادية والمعنويـــة منها، فإنا نجد أن الفقهاء بذلوا جهوداً كبيرة، وقطعوا مســـافات شاسعة في البحث والتنقيب عن مقاصد الشرع، واستطاعوا من خلالها أن يتوصلوا إلى أنواع من المقاصد التي جاءت الشريعة بتحقيقها ونحن لا ننكر أن مشـــروعهم ذلك قد وقعت فيه أخطاء ومبالغات، ولكن القارئ يســـتطيع أن يخرج من جملة ما قدمـــوا بصورة ناضجة يتبين بها أحقية الشـــريعة ووجاهتها ولزوم تطبيـــق ما جاءت به من أحكام وحـــدود، وأنها جاءت على أكمل وجـــه وأنصع صورة وأبين حالة، ويجـــد في المقابل قصوراً ظاهـــراً في الخطاب الحداثي في هذه القضية، وهو ما أوقع بحوثهم فـــي أخطاء كبيرة مخالفة للتاريخ فضلاً عن مخالفتها للنص الشرعي نفسه.

(١) الموافقات، الشاطبي: (٣/١٤٢ – ١٤٣).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية: (٣٢/٢٣٣ – ٣٣٤).

رُكَام اللَّغو والزَبَد!

عبد الله عيسى السلامة

ما هؤلاء؟ ركام اللغوِ والزبدِ ... الخالدون - كما قالوا - إلى الأبدِ
الجاثمون صخوراً، فوق أضلُعنا ... واللاثِمون من الأعداءِ كُلَّ يدِ
بنو تميم، بنو عَبسٍ، بنو جُمَحٍ ... بنو نُمَير، بنو كُليبٍ، بنو أسَدِ
كلاَّ! قريظة هذي والنَّضيرُ معاً ... وقينقاعُ... حَماكَ الله يا بَلدي!
أمِنْهُم الظلم، أَمْ منَّا؛ بغَفْلتنا؟ ... ونحن كالرملِ، أو كالقَشِّ، في العددِ

لا لوم، مَن ذا يلوم الذئب منهمكاً ... يفري قطيعاً بلا راعٍ ولا سَندِ؟
قد مكَّنتْه تُيوسٌ من أزمَّتنا ... مَدفوعةً بسُعار اللؤم والحسَدِ
ربَّتْه جرواً لتصطاد الخُصومَ به، ... فاصطادها، بِعَماها، وهو في رمدِ
ألقى بها خارج التاريخ، مهمَلةً ... بلا نصير، ولا عزم، ولا رَشَدِ

وأصبحَ الوطن المنكوبُ مزرعةً ... لبارعٍ بفنون السطو مجتَهِدِ
والشعبُ يمضغ ذلَّ القَهرِ منتظراً ... لُقيا غدٍ، دون سَعي لانتزاع غدِ
ممزَّقاً تَلِغُ الذؤبان في دمِه، ... ملقى طريحاً، طعين النفْس والجسَدِ
الرعبُ والجوع شلاَّ عزمه، فغدا ... في ذُلِّه مثل (عير الحي والوتدِ)!

وصفٌ، هِجاءٌ، رثاءٌ... ما أقول به؟ ... هيهاتَ: شعبي: دمي، أهلي، لظى كَبدي
لو لمْ أجد فيه ما أرجوه مِن أمَلٍ ... للُذتُ بالصمت، والإذعان، والكَمدِ
إن الكُوى، في كُهوف الظلم، واسعةٌ ... تدعو ذوي اللُّبِّ والإصرار والجَلَدِ

في حوار مع البيان

الشيخ الدكتور طه الدليمي:

«الصراع بين أهل السنة والشيعة ديني وليس طائفياً».

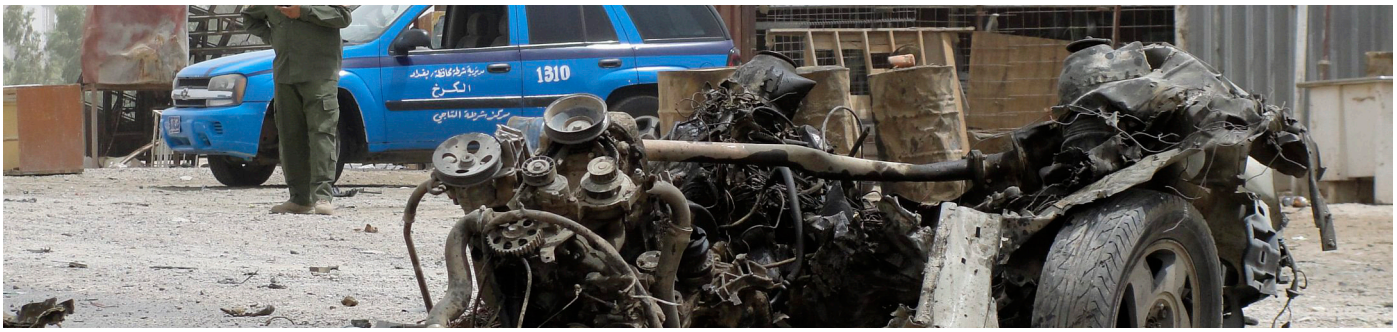

حـــوار: أبـــو بـكـر أحمـد

الصراع الديني آخذ بالتصاعد في الآونة الأخيرة، وتنوعت صوره وأشكاله؛ فمنه على شكل احتلال إقصائي استيطاني إجلائي، ومنه نَفُوذ في شرايين الحياة يرمي إلى إبادة وتصفية دموية وفكرية وسياسية واجتماعية تهدد الوجود مثلما تهدد الهوية العربية والإسلامية، ويسرُّ مجلة البيان أن تستضيف عَلَماً من أعلام هذا الصراع تجمعت فيه فروسية المنافحة بالحجة والبرهان، إنه الشيخ الدكتور (طه حامد الدليمي)، المشرف العام على موقع القادسية، الذي بادرنا بالتعبير عن سعادته وحبه قائلاً: «يسعدني أن ألتقيكم في مجلتكم الرائدة».

البيان: يصنف بعض المتابعين التصعيد الطائفي على أنه مخالف لسنة الله - تعالى - في التعايش والتعارف، كيف توفِّقون بين هذا التصعيد وسُنة التعايش والتعارف؟ وهل تصنفونه ضمن سُنَن التدافُع؟

الدكتور طه الدليمي: هذا يؤكد الحاجة إلى مراجعة المفاهيم. يبدو أننا نتحرك في ركامٍ منها ما أحوجه إلى تصفية وتنحية وإضافة لإعادة البناء على عناصر سليمة. فتسمية التصعيد أو الصراع بين الشيعة والسنة بـ (الطائفي)، هو برأيي خطأ فكري وعقائدي مِفْصَلي أو أصولي، والصحيح تسميته بـ (الصراع الديني)؛ فما بين الشيعة والسنة (عقيدةً وديناً وعلاقةً)، أشد وأبعد مما بين اليهود والعرب. وتسمية الأشياء بمسمياتها ليست فناً إنشائياً ولا ترفاً فكرياً، بل هو في صلب الأمر (مفهوماً وبناءً). فما يبنى على مسمى (الصراع الطائفي) يدخل ضمن ما يبنى على مفهوم (الفتنة). أما ما يبنى على مسمى (الصراع الديني) فيدخل في باب (الجهاد). وهذا كله متفرع عن: هل التشيع والتسنن دين واحد أم دينان؟

أما (التعايش) الشيعي السني فنفهمه على أنه عَقْد اجتماعي له طرفان، هما: (الشيعة والسنة). وإذا كان العقد - أيُّ عقدٍ بين اثنين - يبنى على موافقة الطرفين شرطاً أو ركناً، فإن تخلُّف موافقةِ أيٍّ منهما ناقض لماهية العقد. والآن نسأل: هل لدى الشيعي استعداد للتعايش مع (الآخر)؟ أم أن الشيعي كـ (اليهودي) لا ينظر إلى علاقته بالآخر

إلا علـى أنهـا علاقة وجـود لا حدود؟ وما حصـل في العراق ولبنان وسـورية والبحريـن والكويت وإيران شـاهد على أن التعايش لم يكن إلا من طرف السـنة فقط؛ فحين يحكم السُّنة ينمو الشيعة في ظلهم ليكونوا (دولة داخل دولة)؛ حتى إذا سيطروا بدؤوا باجتثاث السُّنة!

إن الشـيعي ملغـوم بشـيئين: عقدة وعقيـدة، وثالثة أخـرى: مرجعية إيرانية تقـوده باتجاهين: مخالفـة وإلغاء الآخر، والتوجه نحو إيـران قبلةً وانتماءً وخدمة. فعقيدة الشـيعي توجب عليه – بعد تكفير السُّـنة – وجوبَ قتلهم وسلبَ مالهم متى ما قدروا علـى ذلك. وأما العِرض فيؤجل إلى حين مجيء المهدي المزعوم، غير أنهم يمارسـون انتهاكه عملياً. كيف إذن يمكن تحقيـق التعايـش مع فصيل مـن الناس بهذه العقائد المتخلِّفة؟ فإذا أضفتَ العُقَد النفسـية الجمعيـة – ومنهـا المظلومية والحقـد والشـك والغدر واللـؤم ضمن عشرين عقدة أحصيتها في كتابي «التشيع عقيدة دينية؟ أم عقدة نفسية؟» – تبين أن سنة الله – تعالى – في التعارف والتعايش قد عطلها الشيعة بأنفسهم.

إن السـنن كلها مشـروطة بشـروط ومقيـدة بقيود، إن لم تتوفـر باتت لوازمها لاغية مـن الأصل؛ فوثيقـة التعايش التي كتبت بين الرسـول ﷺ واليهـود لم يلتزم بها الطرف المسـلم من جانـب واحد بعد أن نقضهـا الجانب الآخر. والله – تعالى – يقول: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ – ٦٢]. هذه هي (سنة الله) في التعايش مع السـفهاء الذين لا يردعهم رادع من عهد أو خُلُـق أو رعاية لمصلحة. وهم ثلاثة أصناف (منافقـون، ومرضى قلـوب، ومرجفون). وعندمـا نرجع إلى الآيتين اللتين سـبقتا: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ لَعَنَهُـمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُـوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَـا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًـا﴾ [الأحزاب: ٥٧ – ٥٩]: نفهم أن هذه (سُـنة الله) التي لا تتبدل في التعامل مع من آذى النبي في أهله (أزواجاً وبناتٍ)، وآذى المؤمنـين في مثل ذلـك. فأين تضع الشيعة بالنسبة لحكم هذه الآيات؟

أرى أن المسـلمين فـي حاجـة إلى (قرأنَة) مفاهيمهم.

أما التدافع فهناك عدوَّان للمسلمين: الكفـار والمنافقون، وكلاهمـا يجاهَدون بإحدى الوسيلتين (السـلمية والعسكرية) حسـب الحال. ومـا يُعرَف مـن الحكم للمنافقين بأحكام المسلمين، فهذا إنما في حال ما لم يظهروا نفاقاً، أو يحدِثوا حدثاً. والآيات السـابقة دليل. وليس السـلم مع المنافقين حُكْماً مُطلَقاً في كل حال. ولذلك تفصيل ربما يخرجنا عن السياق.

البيان: إن مواجهة الصراع العقائدي مسوَّغ شرعاً وعقلاً. أما كون الصراع الطائفي أساسه عقدة وليس عقيدة، فهذا أمر يقتضي التفصيل والتأصيل؟

الدكتور طه الدليمي: العراق (مطبخ التشـيع)؛ فمركز وبؤرة التحدي الإيراني والشـيعي في هذا البلد المبتلى على مرِّ التاريخ بهذا التحدي منذ عصور ما قبل الإسلام وإلى اليوم. وعليه فإن (التجربة العراقية) غنية، بل هـي أغنى التجارب طـراً، وأنضجها. ممـا أضافتـه التجربة العراقية – بسبب حدة التحدي وضراوته – البعدُ النفسـي الجمعي للصراع الشيعي السُّـني. التشيع ليس مشكلة فكرية حتى يعالَـج بتصحيح الفكـر وحده. ليس هو (سـوء فهم) إنما هو (سـوء قصد)، كما يقول الأسـتاذ علاء الدين البصير. خذ مثلاً الكذب عند الشيعة: ليس هو رذيلة يشعر بها صاحبها ويتألم منها حتى يكون ثمة أملٌ في أن يدعها يوماً. إن الشـيعي يمارس الكـذب على أنـه فضيلة دينية يؤجـر عليها، وحالـة اجتماعية صحية ينتفع من ورائها. انظر إلى وجه السُّـني حـين يكذب، ترى وجهه يتغير، ولسـانه يتلعثم، وحركات يـده تختلج. لكن جرب أن تنظر إلى وجه شـيعي عـندما يعبر عن هذه الطبيعـة النفسـية المتـأصلة فيـه: لا شـيء من ذلك تراه! ثم إن كذب الشيعة من النوع الذي قيل عنه: إن رجلاً قـال: إن لأبـي قِدْراً عثر بـه ثور هائج فضاع في جنباته وظلوا يبحثون عنه فلم يجدوه إلا بعد ثلاثة أيام رابضاً في زاوية من زواياه. فقـال آخر: وأبي غرس بذرة يقطين على شـاطئ بحر فخرجت منها ثمـرة كبرت وكبرت حتى غطت سـطح البحر وعبرت إلى شاطئه الآخر فاتخذها الناس جسراً يعبرون عليه. فأجابه الأول: ألا ما أكذبك! هـلا أخبرتنا في أي قدر يمكن أن توضـع وتطبخ؟ فقال: في قدر أبيك الذي ضاع فيه الثور فلم يجدوه إلا بعد ثلاثة أيام!

عندما يقول معمَّم مثل هادي المدرِّسي (والمقطع في اليوتيوب): إن اليمن شيعية، والسـعودية أغلبية شـيعية، نعم أغلبية شيعية وأقولها بالفم المليان. وعندما تعلن

قناة (العالم) الإيرانية أن ثمانية ملايين سيارة (شيعية) خرجت للتظاهر في شوارع البحرين في ما أسموه بـ (طوق الكرامة)، والحقيقة أنه ولا سيارة واحدة (وقد شهدت ذلك بنفسي). ماذا نسمي هذا؟ إنَّ هذا - حسب الوصف الطبي، وأنا طبيب - عقدة متأصلة وليس خَصلة طارئة. عقدة نتجت عنها عقائد وسلوكيات لا تعالج بالوسيلة الطبيعية التي تجنح إلى ملاحظة الفكر وتصحيحه. إنها عميقة الغور في التركيبة النفسية الجمعية؛ بحيث تمارَس طِبقاً للاوعي الجمعي. صراعنا مع الشيعة ليس من النوع البسيط؛ إنه من النوع المعقَّد لابتنائه على عُقَد قبل أن يبنى على عقائد. إن هذا يحتاج إلى عقد ندوات لمناقشته ومدارسته وإقراره منهجياً لإضافته إلى منظومة المواجهة. وقس عليه بقية العُقَد. التشيع عُقَد أنتجت عقيدة وفكراً وسلوكاً، وليس العكس. التشيع عصيٌّ على الفهم والتفسير، بله (المعالجة) دون فهم هذه المعادلة. وقد أتيت عليها في كتابي (التشيع عقيدة دينية أم عقدة نفسية؟).

البيان: لقد كانت لكم مساهمات رائدة في مسألة الأغلبية والأقلية في المجتمع العراقي، كيف توفّقون بين النظرة القرآنية لهذين المفهومين، والنظرة الواقعية وتداعياتها لا سيما السياسية؟ وهل نحن نعمل على أساس الكم أم النوع؟

الدكتور طه الدليمي: احتُل العراق في سنة ٢٠٠٣م بحجة إنقاذ مكوناته من اضطهاد (الأقلية السنية الحاكمة). مع دعوى عريضة بأن الشيعة يمثلون أغلبية المكونات في العراق، وجاء على لسان جورج بوش الابن أن نسبتهم ٦٥٪ ! وذكر الحاكم المدني بول بريمر في أكثر من موضع في كتابه (عامي في العراق) أن نسبة السنة العرب ١٩٪، بينما أعطى لإخواننا الكرد نسبة ٢٠٪، بينما الحقيقة أن السنة العرب ينوف على عدد الكرد بأكثر من ثلاثة أضعاف. فتصور مدى الصفاقة!

وهي النسبة التي اعتادت عليها جميع التقارير الأمريكية التي تُرفَع لمراكز القرار! وأصل هذه الدعوى إحصائية مبتسرة قام بها الإنجليز سنة ١٩١٩م لا تصلح أن تسمى إحصائية؛ إنما هي عبارة عن (تخمين ورد في تقارير الحكام السياسيين البريطانيين عن إدارة مناطقهم في وادي الرافدين)[1]. وقد أشاع الإنجليز أثناء احتلالهم العراق هذه الأكذوبة كي يثيروا الشيعة ضد السنة طبقاً لمبدأ (فرق تسد)، وتلقَّفها الشيعة منهم ليبنوا عليها أصل (مظلوميتهم). بينما الحقيقة هي أن الشيعة العرب لا يتجاوزون نسبة ٣٥٪ من العراقيين.

وعندما تُحرَّف الحقائق وتزوَّر وتغطَّى إلى هذه الدرجة، ويكون الكذب من هذا العيار، ويُحتَل وطن على أساسه، ويُجتَث أهل العراق الحقيقيون تبعاً لذلك: لا بد من البيان مقارعة لدعاوى الباطل بدلائل الحق؛ وذلك باستعمال السلاح الذي شهروه نفسه. وقد استعمل أسلافنا هذا الأسلوب، فكثيراً ما يرد شيخ الإسلام ابن تيمية على المبطلين مستعملاً من الحجج ما هو من جنس حججهم.

أما إذا أردت المقياس الشرعي للأغلبية والأقلية فليس هو هذا على وجه الدقة. إن الكثرة والقلة ليست هي المعيار في ترجيح كفة على كفة إلا في مسائل محددة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]. ويقول أحد السلف: «الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدَك. فالأغلبية الحقيقية للحق وأهله مهما

(١) هذه هي الحقيقة، ص٣٥، د. طه حامد الدليمي.

قلُّوا، والأقليـــة والصَّغـــار للباطل وأهله مهما كثروا، كما قال - ســـبحانه -: ﴿كَم مِّـن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِـإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وهذا هو مقياس المنطق والعقل، حتى إن نيتشـــة يقول: «أنا والحقيقة أغلبية»!

ونحن نقول: (البلد لمن يبنيه لا لمن يبغيه، وهو لمن يحميه لا لمن يشـــريه). نحن الذين بنيناه، ونحـــن الذين حميناه. أما الشـــيعة فشروه للأجنبي وخربوه من قبل أن يحكموه ومن بعد أن حكموه، إلا قلة قليلة منهم.

البيان: يشير بعض المتابعين أن ما تقوم به بعض القنوات الفضائية إنما هو رد فعل على ما تبثه وسائل الإعلام الشيعية، ومعلوم أن ردَّ الفعل عادة يكون ضعيفاً ومحكوماً لا حاكماً، كيف يمكن أن نكون مبادرين في صراعنا مع الصفويين؟

الدكتور طه الدليمي: قـــال لي صديق منذ عشر سنوات: يتهمك البعض بأن موقفك من الشـــيعة هو رد فعل على ما تعرضَّت له مـــن أذاهم؟ فأجبته: وما الغرابة في ذلك؟ الميت هو الوحيد الذي لا ردة فعل له، وأنا حيٌّ بحمد الله. ليس المهم أن يكون دافـــع الحركة فعلاً أم ردَّ فعل؛ إنما المهم هو: هـــل إن حركتي في الاتجاه المضبوط وبالمـــدى المنضبط؟ أم تريد مني أن أظل جامداً إزاء ما يجترحه الشـــيعة بحقنا من أذى قبل أن أحســـم وصـــف حركتي: هل هي فعل أم رد فعل؟ هذا منطق غريب؛ فكيف وهم يحاربوننا وجوداً ودِيناً وموقفاً؟ فكيف وهم يحاربون الله - جل في علاه - جهاراً نهاراً!

هـــذا إن كان ما نفعلـــه ردُّ فعل. أما الواقع فبعض ما يصدر عنا ردُّ فعل على فعلٍ مقابل، وبعضه فعـــل يوجبه الدين، ويســـتدعيه الأهل والوطـــن. وهذا إنما يكون حين نعمل ضمن مشروع مبنيٍّ على فكرة صحيحة، وهدف واضح، ووســـيلة صالحة للوصـــول، آخذين بنظر الاعتبار الإمكانات المتاحـــة، والظروف المحيطة. وبذلك نكون فاعلين مبادرين.

البيان: الصراع الطائفي في العراق محطُّ جدل؛ فمنهم من يراه صراعاً سياسياً يوظف الدين والطائفة لكسبه، ومنهم من يراه صراعاً دينياً ومذهبياً يوظف السياسة لتغذيته وتصعيده حتى تتحقق الأهداف الدينية القائمة عليه؟ كيف تصنِّفونه في مشروعكم؟

الدكتور طه الدليمي: نحتاج إلى تحرير المعنى المـــراد بوصف (الطائفي) قبل الجـــواب؛ حتى نصل إلـــى النتيجة بعيداً عن الخلط والضبابية:

فـــإن كان هذا الوصـــف تعبيراً عن طائفة من البشـــر، فيبقى السؤال هو: ما الخصائص التي تميز طائفة عن أُخرى؟ ومن المقطوع به أن هذا غير مقصود.

وإن كان معنـــى (الطائفـــي) يعبِّر عن المذهبيـــة الفقهيـــة بمعنـــى أن الخلاف (الشيعي السُّني) خلاف فقهي فهذا باطل.

وإن كان للتعبير عن خلاف في العقيدة ضمن دائرة الإسلام الواسعة كالخلاف مع المعتزلة والأشاعرة وعموم المتصوفة فهذا غير دقيق؛ إذ التشـــيع دين كامل مناقض بالكامل لدين الإسلام بالكامل، وأوله تكفير المسلمين وأولهم الصحابة، وقد أجمع علماء الأمة من المذاهب الأربعة دون مخالف على تكفير من كفَّر جمهور الصحابة؛ فكيف إذا أضفتَ إليـــه بقية الموبقات المكفِّرات. هذا ما يتعلق بالتشيُّع دِيناً، فإذا أضفنا إليه ما يتعلق بالشـــيعة طائفةً معبأةً بهذه العقائد والشـــعائر والســـلوكيات والعُقَد النفسية، ومـــا يصدر عنها لذلك من عداوة واعتداء متعـــدد الأصنـــاف والأوصـــاف، اكتملت الصورة وتبينَّ أن ذلـــك الوصـــف بعـــيد كل البعد عن التعبيـــر عنهـــا؛ فوصف (الطائفي) لا ينطبق على الصراع الشيعي السُّـــني، فليس صحيحاً إذن أن يقال عما هو حاصل في العراق: إنه صراع طائفي؛ فلا هو مســـتنِد على خلافات فقهية، ولا خلافات عقائدية محـــدودة. ولا يصدقه الواقع.

إن الفـــرق بين التشـــيع والإســـلام هو فـــرق بين دين وديـــن. والصراع بين الشيعة والسُّـــنة قائم على هذا الأساس، وليس على أســـاس آخر. إنه صراع ديني حقيقي، يستند على عقيدة دينية تختلف عن عقيدة الإســـلام جذرياً؛ ســـوى أنها تتخذ من مصطلحاته وأسمائه غطاءً لها. أمَّا أن هناك من يستثمر الدين لأغراض سياسية فهذا لا يغير من الحقيقة شيئاً. وإذا كان هذا هو المعيار السياسي للصراع فالشيء نفسه يمكن أن يقال عن الصراع (الإسرائيلي الفلسطيني)، فيوصف بأنه صراع سياسي، لا ديني؛ لأن السياسيين يوظفون الدين أو الخـــلاف بين الدينين اليهودي والإسلامي لمكاسب سياسية.

على أنـــك إذا أردتَ وصف الصراع علـــى وجـــه الدقـــة وجدتَـــه أعمق من سياســـي، وأكبر من طائفي، وأوسع من ديني. إن الخلاف بين الشـــيعة والســـنة هو خلاف بين ثقافتين، وصورة من صور الصراع بين حضارتـــين: حضارة عربية وحضارة فارســـية أنتجت التشيع ليعبِّر عنها فـــي مضامينه، ويحقـــق أغراضها

في أهدافه. فكما استطاع الغرب أن يهضم المسيحية ويتمثلها في شخصيته، لتظهر في صورة الصليب (صليبيةً) تمثل الحضارة الغربية وتعبِّر عنها في كل عناصرها الأساسية في صراعها مع حضارتنا العربية الإسلامية، كذلك تمكَّن الشرق من أن يهضم الإسلام ويتمثله في شخصيته ليظهر في صورة العمامة (تشيعاً فارسياً) يمثل الحضارة الفارسية، ويعبِّر عنها في كل عناصرها الأساسية في صراعها مع ديننا وحضارتنا.

والصراع الحضاري صراع معقَّد وعميق، صراع تحاول فيه كل حضارة أن تجتاح الأخرى أو تزيحها لتحُل محلها في كل عناصرها ومقوماتها: في دينها وعقيدتها، وقوميتها وأصالتها، ولغتها وآدابها، وثقافتها وتراثها، وقيمها وأخلاقها، وتقاليدها وعاداتها، وتاريخها وأمجادها، وتطلعاتها وأهدافها، وحاضرها ومستقبلها. هذا هو صراعنا مع الشيعة.

وهو صراع قديم، بدأ مع فجر التاريخ قبل أكثر من سبعة آلاف عام، واستمر طيلة هذه الحقب المتطاولة من الزمان، وسيستمر ما دام هناك ثقافتان مختلفتان، وحضارتان متناقضتان متصارعتان.

البيان: في الشأن العراقي يبدو أن المشروع الصفوي يُلقي بظلاله على المشهد السياسي والأمني، ولكن آثاره الاقتصادية والثقافية والتعليمية غير جلية، هل لكم رصد لهذه الجوانب؟

الدكتور طه الدليمي: لدينا دراسات في الجانب الثقافي على شكل كتب ومقالات رصدت بعض مظاهر التزوير في التاريخ والفكر والعقيدة. كما أن لنا دراسة علمية ميدانية رصدنا فيها ما استطعنا من التغيير في المناهج التعليمية خصوصاً في مادة الدين عقيدة وفقهاً، وفي مادة التاريخ. أما الجانب الاقتصادي فتقارير الجهات والمنظمات المتخصصة داخل العراق وخارجه كثيرة جداً، أغنتنا عن المتابعة المركزة.

البيان: ما تداعيات تولّي التشيع السياسي الحكم العراق على مناهج التعليم سواء للمراحل الأولية أو التعليم الجامعي لا سيما في الكليات والجامعات الإسلامية؟ هل قمتم بعملية رصد وتحليل لهذا الأمر؟ وهل يمكن عرض نماذج منه؟

الدكتور طه الدليمي: بدأ الشيعة بتغيير المناهج الدراسية منذ وقت مبكر بعد الاحتلال، ودخل التشيع في عقائده وفقهه وتاريخه كل بيت سني عربي تقريباً. وقد رصدنا هذا التغيير منذ سنوات. وإذا كانت الصورة تتضح بالأمثلة فإليكم آخر الأخبار عن بعض ما فعله علي الأديب – وهو الرجل الثاني في حزب الدعوة، إيراني الجنسية – بوزارة التعليم العالي. فبمجرد أن تولى منصبه وزيراً للتعليم باشر بحملة علنية ومباشرة باجتثاث من تبقَّى من السُّنة من مناصبهم ووظائفهم في الوزارة. هذا بعد زجِّه سبعة من موظفي مكتب الوزير السابق (السنِّي) في السجن، ووضعهم جميعاً تحت طائلة القانون المعروف بـ (٤ إرهاب) وعقوبتها الإعدام. مصرحاً بأن قانون اجتثاث البعث لم يطبَّق في الوزارة، وعلينا اليوم أن نعمل على تفعيل هذا القانون. علماً بأن عملية التطهير لم تشمل أياً من الشيعة حتى الذين ثابت عليهم انتماؤهم لحزب البعث وآخرها شمول (١٤٠) أستاذاً جامعياً في (جامعة تكريت) بالطرد الاجتثاثي، وقبلها تم تنحية نحو ٣٠ كفاءة سُنية من مناصبهم (معاوني رؤساء الجامعات، وعمداء الكليات، ومدراء المراكز) وتم استبدالهم بشيعة.

ثم أصدر الوزير المذكور أوامر رسمية للاعتراف بعدد من الجامعات والكليات الأهلية العائدة لعدد من الأحزاب الشيعية والمراجع الدينية، التي ازدادت بنسبة كبيرة بعد الاحتلال. وفي الوقت نفسه قام بإلغاء أو أصدر قرارات بإلغاء الاعتراف ببعض الجامعات والكليات والمعاهد العربية مثل (معهد البحوث العربي) التابع إلى الجامعة العربية والكائن في منطقة المنصور وسط بغداد ومعهد الدراسات والبحوث، والمعهد العربي العالي للدراسات التربوية والنفسية وغيرها. فضلاً عن فتح الباب واسعاً أمام الطلبة الشيعة للقبول في الجامعة الإسلامية، وهي من الجامعات القليلة السنية في بغداد. كما أصدر قراراً بإغلاق الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) فيها. ووصل التغيير إلى اسم الجامعة الذي تحول إلى (الجامعة العراقية) بدلاً من (الجامعة الإسلامية).

هذه أمثلة قليلة جداً على حملة تشييع التعليم الجارية على قدم وساق في العراق، وفي قطاع واحد هو وزارة التعليم العالي! والموضع لا يتسع لأكثر من ذلك.

البيان: تصنفون مشروع التشيع الصفوي على أنه تحدٍّ للأمة وليس لبلد أو طائفة، وما دام الأمر كذلك فإنه يستلزم أن يقابله مشروع أمة وليس أفراداً أو مؤسسة أو دولة؟ هل لديكم تصور لمشروع بهذا المستوى؟

الدكتور طه الدليمي: نعم، مشروع التشيع الصفوي أو الفارسي هو التحدي الأول للأمة، وهو قضيتها المركزية المعجَّلة الأولى، على الأقل بالنسبة للعراق والخليج والشام (سوى فلسطين فالتحدي الأول فيها يهودي)، وهؤلاء يمثلون - تقريباً - ثلاثة أخماس الأمة إذا أخذنا بنظر الاعتبار مقياس التأثير في الأحداث العالمية. وقارن بين السعودية (٢٢ مليون نسمة) وإندونيسيا (٢٢٠ مليون نسمة).

والأحداث ستسوق المنطقة إلى هذه النتيجة. وستفصح عن مشروع جماعي للمواجهة عاجلاً أم آجلاً. أما رؤيتنا للمشروع فواضحة ومكتوبة ومعلَنة ومنشورة على موقعنا (القادسية) في محور (منهجنا في التغيير). والمشروع في أساسه وخطوته الأُولَى من مرحلته الأُولَى يقوم على ركنين: (المنهج والبرنامج).

أما المنهج فأساسه (الهوية السُّنية) القائمة على العقيدة بمنهجها القرآني العابر للتسميات، ووسيلتها التجديد والإبداع مستفيدين من علم النفس والاجتماع والتاريخ وغيرها من العلوم الحديثة. وأما البرنامج فأساسه التخطيط طبقاً للعلم الحديث في علمي الإدارة والقيادة.

هذا - باختصار - هو المنهج. الذي يتكامل مع البرنامج لتحويله إلى مفردات عمل في ساحة الواقع. وهذا كله يمثل بداية الطريق لتحقيق المرحلة الأولى وهي مرحلة (التحصين). انتقالاً إلى مرحلة الثانية وهي (التكوين)، وصولاً إلى المرحلة الثالثة وهي (التمكين).

وهو منفتح على كل المشاريع الأخرى (دينية وغير دينية)، يتعامل معها، ويتفاعل ويتعاون مع أصحابها على البر والتقوى؛ ما لم يتعارض ذلك مع منهجيته الإسلامية، أو هويته العروبية، أو خصوصيته العراقية. من هنا ننطلق لتأسيس مشروع عربي جماعي لمواجهة المشروع الشعوبي الإيراني.

البيان: بدأت دعاوى التقريب تظهر من جديد. كيف تقيِّمون مسألة التقريب سابقاً ولاحقاً؟ وهل لكم أن تصوغوا مشروعاً أو أطاراً تنسيقياً لمسألة التقريب؟

كل محاولات التقريب بين السنة والشيعة فشلت بلا استثناء. وهي محكوم عليها بالفشل ابتداءً وانتهاءً؛ لأسباب جوهرية لا يمكن عبورها: فإن كان المقصود بالتقريب صنع دينٍ وسط فهذا غير ممكن؛ لأن الخلاف في أساس الدين وأصوله. وإن كان المقصود به التقريب السياسي فهذا غير ممكن لعدم وجود نية صادقة لدى الشيعة لهذا التقريب. كما أنه ليس في مقدورهم امتلاك هذه النية؛ إذ دينهم يفرض عليهم - بعد تكفير السنة - وجوب قتلهم وسلب أموالهم، وعقدهم النفسية تدفعهم لخدمة أغراض دينهم دفعاً ليس بمَلْكهم مقاومته. الشيعي لا يؤمن بحق السُّني في الحياة ولا في التملُّك، وهذان هما أساس السلم الاجتماعي الذي نحتاجه للبدء بأي مشروع. حالة واحدة يمكن أن تلتقي فيها مع الشيعة سياسياً فقط وليس دينياً قط، هي أن تكون قوياً لتفرض عليهم الوفاء بالعهد والالتزام بتنفيذ بنود العقد، كما فعل ربنا مع بني إسرائيل، وهو ما أخبر عنه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٣ - ٦٤]. امتلاك القوة هي المنطلَق لبناء مشروع تقريب سياسي (لا ديني) مع الشيعة، ومن دون ذلك فالمشروع فاقد لأساسه.

النموذج الخامس

أحمـــــد فـهـمـي
afahmee@hotmail.com

إنـــه تحدٍّ كبيرٌ يواجه التيارات الإســـلامية في مصر، تحدٍّ يمكـــن اختصاره فـــي جملة واحدة هـــي: «النموذج الخامس»؛ فما هي قصة هذا النموذج؟

مـــن يتابع الكتابات الغربية عن الحركات الإســـلامية في العالم الإســـلامي، وكذا كتابـــات من يتوافق معهم من أصحـــاب التوجهات العَلمانية، يمكن له بيســـر أن يحصر أربعة نماذج للحكم، يبرزها هؤلاء بوصفها منظومة معيارية لتوقع مسار أي محاولة إسلامية للوصول إلى الحكم.

النمـــاذج الأربعة تمثل أربعة تيارات مختلفة تنتمي إلى أربعة بلدان، واحدة منهم فقط عربية، وهذه هي حســـب ترتيب ظهورها الزمني:

- نموذج ولاية الفقيه في إيران.
- نموذج جبهة الإنقاذ في السودان.
- نموذج طالبان في أفغانستان.
- نموذج حزب العدالة في تركيا.

يتناول الغربيون هذه النمـــاذج وكأنها صارت «حتمية تاريخية» لا تملك أيُّ قوى إســـلامية جديدة أن تخرج عن إطارها، والحتمية بحسب التعريف: هي افتراض أن كل ما يحدث في تاريخ الإنســـان يخضع لتسلسل منطقي سببي ضمن سلسلة غير منتظمة (ظاهرياً) من حوادث متعاقبة، وأن كل ما يبدو في الظاهر عشوائياً، هو في حقيقة الأمر خاضع لقوانين مُحْكَمَة لا يمكن الخروج عنها.

وهكـــذا تصبح هذه النماذج الأربعـــة وكأنها «حتمية» لا تقبل الجدل، ويصبح التساؤل محصوراً في: أي هذه النماذج يمكن أن تســـلُكها التجارب الإســـلامية الناشـــئة في دول الثـــورات العربية؟ فلا مجال إذن للحديث عن نموذج خامس يتجاوز سلبيات النماذج الأربعة، أو حتى يضيف إليها.

لست معنياً في هذا المقال بمناقشة ذلك الطرح الغربي الأعوج، إنما أريـــد فقط تحليل هـــذه المنظومة الرباعية وبيان كيفية استخدامها في توقُّع المسارات التي ستسلكها التجارب الإسلامية الجديدة.

توجـــد ثلاثة مكوِّنات أساســـية تتحكم في تقويم هذه النماذج ويكشف تحليلُها ما إذا كان النموذج (محلُّ البحثِ) يمكن تصنيفه على أنه «نموذج إيجابي» أم «نموذج سلبي»، وهـــي مكونات مســـتنبَطة من خلال الدراســـة التاريخية للنماذج الأربعة ومســـاراتها التاريخيـــة، كما أنه بالإمكان استخدامها من قِبَل أي جهة سواء كانت موالية أو معادية. فهي تتسم بالحيادية الموضوعية، والخلفية الفكرية للباحث هي التي تحدد كيفية استخلاص النتائج من هذه المكونات. وهذا تعريف مبسط لها.

أولاً: المشروع السياسي: ويقصد به البرنامج السياسي الذي تتبناه القوة الإســـلامية وتســـعى لتطبيقه في البلد الذي تتســـلم مقاليد حكمه، ومدى نجاحها أو إخفاقها في تطبيق هذا البرنامج، ومدى التزامها بالحريات السياسية وتداول السلطة.

ثانياً: التوافق الداخلي: ويقصد به مستوى التقارب أو التنافر بين الحزب الإسلامي الحاكم وأقرانه (أو شركائه) الإسلاميين، وبينه وبين بقية القوى السياسية في المجتمع.

ثالثـاً: المحتوى الديني: ويقصَد به مســـتوى التطبيق لمبادئ وأحكام الإسلام الذي يتبناه الحزب الحاكم، والآلية التي يعتمدها في التطبيق.

بحســـب وجهة النظر الغربية، لو طبقنا هذه المكونات الثلاثة على النماذج الأربعة، فسنجدها كالتالي:

أولاً: النموذج الإيراني:

لديه مشـــروع سياســـي قوي، وتمكَّن من إقامة نظام مؤسَّســـي، ولكنه تخلى عن وعوده بحرية تداول السلطة، وقلَّص الحريات السياسية؛ فمحصلة هذا المكون سلبية.

على مستوى التوافق الداخلي، فقد تخلَّت القوى الدينية عن رفاق الثورة وأبعدتهم، وانقســـمت الســـاحة لاحقاً إلى محافظين وإصلاحيين، وهم بدورهم منقسمون إلى تيارات شتى، والجميع يتصارع بدرجة تؤثر سلباً على الأداء السياسي للنظام ككل.

أما المحتوى الديني: فيعدُّه الغربيون محتوىً متطرفاً بالنظر إلى مســـتوى تطبيق الإسلام وآلياته.

بهذا الشكل ينظر الغربيون إلى تلك التجربة على أنها نموذج سلبي في المجمل.

ثانياً: التجربة السودانية:

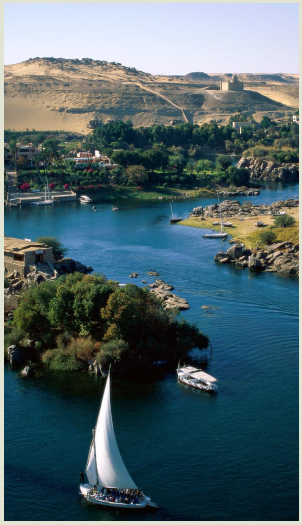

قدمت مشـــروعاً سياســـياً متماســـكاً من الناحية النظرية، لكنها أخفقت في تطبيقه، ولم تسمح إلا بقدر شكلي من تداول السلطة، ومستوى الحريات السياسية غير مُرْضٍ، كما أن الفساد السياسي متفشٍّ في أوساط النخبة الحاكمة؛ فالتجربة في عمومها سلبية.

أما التوافق الداخلي: فالعلاقة بين الحزب الحاكم والقوى الإســـلامية الأخرى غير مستقر، وأما مع بقية القوى السياسية فالعلاقة متوترة للغاية.

وأما المحتوى الديني: فعلى الرغم من أن «منظِّر» التجربة الســـودانية (د. حســـن الترابي) يعدُّه الغرب في مصافِّ الأستاذ راشد الغنوشي؛ من حيث أطروحاتُه المتعارضةُ مع المنهج السلفي - وهذا تصنيف إيجابي - إلا أن المحتوى الديني لا يزال متطرفاً في نظرهم؛ سواء من حيث الطرحُ النظريُّ أو التطبيقُ العملي.

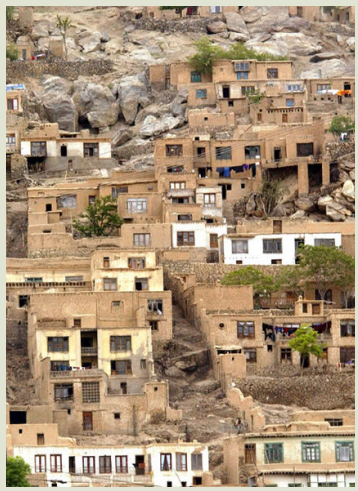

ثالثاً: تجربة طالبان:

لا يوجد مشروع سياسي واضح، فالوصول إلى الحكم حدث باستخدام القوة العسكرية، ولم تفلح الحركة في «مأسسة» الدولة، ولم تسمح بتداول السلطة، أو بالحريات السياسية.

أما التوافـــق الداخلي: فالحركة تعمل في إطـــار عرقي قَبَلي محكوم بصراعات تاريخية تشـــكل خريطة الولاءات داخل الدولة، كما أن علاقاتها مع الأقران الإسلاميين سيئة إلى درجة التقاتل.

وبالنســـبة للمحتوى الديني الذي تبنَّته طالبـــان، فيعده الغرب الأكثرَ تطرفـــاً في النماذج الأربعة، وهذا ســـبب كافٍ لوضع التجربة في أســـفل المنظومة الرباعية.

رابعاً: التجربة التركية:

لديها مشـــروع سياسي قوي ومتميز، ملتزمة بتداول السلطة، محافظة على مناخ الحرية السياسية.

أمـــا التوافق الداخلي: فقد أثبـــت حزب العدالة التزامـــه بعلاقات متوازنة مع منافسيه، كما أن الساحة التركية خالية من أي منافسة إسلامية.

المحتـــوى الديني في التجربة التركية، هو نقطة قوَّتها من الوجهة الغربية، ونقطة ضعفها من الناحية الإسلامية؛ فبالكاد يمكن تلمُّس ملامح دينية باهتة في الأداء السياســـي للحزب، فضـــلاً عن كون قادته أقروا علانية ودون مواربة بتمســـكهم بالنهج العَلماني للدولة، لكن دون تطرف.

هذه هـــي النماذج الأربعة لحكم الإســـلاميين كما يراها الغربيون، ومن الجلي أنهم يصنفونها: ثلاثة ســـلبية، وواحدة إيجابية، وهذا التصنيف (الغربي) ينطلق من ترتيب عكســـي للمكونات الســـابقة (المحتوى الديني - التوافق - المشـــروع السياسي).

فزيادة المحتوى الديني، من أهم أســـباب الضعف والفشل حســـب الرؤية الغربيـــة، ثم يأتي التوافق. وهـــم هنا يهتمون أكثر بعلاقة الإســـلاميين مع القـــوى العَلمانية الأخرى وليس الإسلامية؛ فتضييق الإسلاميين على المعارضة العَلمانية سببٌ آخر للفشل، وأخيراً يأتي المشروع السياسي.

هكذا يصبح نموذج طالبان هو الأكثر إخفاقاً؛ لأنه الأكثر «تطرفاً» من الناحية الدينية بحســـب الرؤية الغربية، والأكثر إبعاداً لقـــوى المعارضة. يليه النموذج الإيرانـــي، ثم النموذج الســـوداني، ثم يتحول المؤشـــر إلى المنطقـــة الإيجابية حيث النموذج التركي صاحب التجربة الأضعف من حيث محتواها الدينـــي، والتجربة الأقوى من حيث التزامه بقواعد اللعبة في تعامله مع المعارضة العَلمانية.

التحليل السابق يفسر لماذا بادرت دول غربية إلى الترحيب بفوز حركة النهضة التونسية بالأغلبية في الانتخابات الأخيرة، فالحزب يؤكد على أمرين:

الأول: التزامه بعدم تغيير مكتسبات عَلمانية تحققت في الفترة الماضية، ومن ثَمَّ تخفيف المحتوى الديني.

والثـاني: حرصـــه على تحقيق توافـــق وتحالف مع قوى عَلمانية، وهذا يعني أن الترحيب الغربي ينطلق من تقويم أوَّلي بأن النهضة تتجه ناحية النموذج التركي، وهذا هو المطلوب.

إننا لو نظرنا إلى الساحة الليبية، فسنجد تيارات إسلامية ناشـــئة متفرقة، ليس لديها رؤية سياسية واضحة أو مشروع متكامل بســـبب الظروف التاريخية الصعبـــة التي مرت بها، وهذا ينقلنا مباشرة إلى الساحة المصرية؛ حيث تنعم التيارات الإســـلامية بحالة أكثر اســـتقراراً، كما أنها تمتلك إمكانات أكثـــر رحابة، وتجربة عريقة في المجال السياســـي (الإخوان المسلمون) وشعبية كبيرة تضعهم في مقدمة القوى السياسية.

بعض الكتابات الغربية تتوقع أن تنطلق تجربة الإسلاميين فـــي مصر صـــوب النموذجين (الإيراني أو الســـوداني)؛ لأن نموذج طالبان مقترن بقوة عســـكرية غيـــر موجودة، ونموذج تركيا ينطلق من خلفيـــة علمانية حاكمة تتعارض مع الظرف السياسي المصري.

إن التحـــدي الذي تواجهه تلـــك التيارات في هذه الحالة المعقدة: هو أنها مطالَبة بتقديم نموذج خامس يكسر «الحتمية الرباعية» المعتسفة التي يروج لها الغرب وأذيالُه، هذا النموذج يجب أن يعيـــد ترتيب المكوِّنات الثلاثة الســـابق ذِكرُها على النحو التالي:

- المحتوى الديني المكثف والمتدرج في الوقت نفسه.
- التوافق الداخلي بين الشـــركاء الإسلاميين، ومع القوى السياسية الأخرى، وتجنب مناخ الصراع.
- تقديم مشروع سياســـي متكامل يحافظ على ما سبق الإقرار به قبل الدخول إلى الساحة السياسية: من قَبُول بمبدأ تداول السلطة وإتاحة الحريات السياسية، مع وضع ذلك كله في إطار إسلامي صحيح.

إذا نجح الإســـلاميون في مصر في تقديم هذا النموذج المتكامل، فإنهم ســـيُحْدِثون بذلك شرخاً هائلاً في النظريات السياسية الغربية المفسِّرة للحركات الإسلامية، وسوف يكون فعلهم هذا بمثابة الثورة الثانية والربيع العربي الحقيقي.

[المسلمون.. والعالم]

التحديات التي تواجهها تونس

فتحي السعيدي

تداعيات الهزيمة الأمريكية والأطلسية في أفغانستان

د. محمد مورو

الثورة الإيرانية في غانا

يوسف عمر جلو

مرصد الأحداث

جلال سعد الشايب

التحديات التي تواجهها تونس

فتحي السعيدي(*)
www.alkhayr-tn.org

الدولة كائن له (ولادة) و (حياة) و (تغيُّر هيئة) و (موت).

الإجابة على عنوان المقالة (التحديات التي تواجهها تونس)، مرتبطة بطبيعة اللحظة التاريخية التي نعيشها: أهي من لحظات التحول الهادئة التي يتغير فيها مسار الدولة عبر تراكمات داخلية، مع المحافظة على حدودها ولو بتغيُّر نسبي في بُنَاها؟ أم هي من اللحظات المتفجرة المنتجة لولادة جديدة تُشكَّل فيها حدود جديدة ومسارات قاطعة مع السابق؟

الاستشراف على المدى البعيد للتحديات التي تواجهها تونس صعب جداً؛ لعدم القدرة على استقراء انزلاقات ما نعيشه من أحداث، أحداث أنتجت مخاضات جديدة داخل البلاد وخارجها: في مصر وليبيا وسوريا واليمن... وجاوز تأثيرها بلاد العرب حتى وصل إلى وول ستريت.

لذلك سوف نأخذ في هذا الطرح ما هو ممكن من ناحية التحليل النظري؛ أي أن البلاد تواجه تحولاً يحافظ على الدولة وحدودها، ولكن يعاد تشكيل البُنَى الاجتماعية والاقتصادية فيها ويقطع مع النظام السياسي السابق وآلياته.

(*) رئيس جمعية الخير الإسلامية – تونس.

التحدي السياسي:

كسبت النهضة الانتخابات عن جدارة، وبحنكة سياسية وتنظيمية، تُدرَس. ولكنها لن تستطيع في السنة أو السنتين الأوليتين إنجاز نجاحات سياسية جوهرية نتيجة المراقبة اللصيقة الموضوعة تحتها، وهي التي وافقت عليها. مراقبةً من طرف أمريكا وأوروبا وبعض قوى الابتزاز العَلماني في تونس. وكي تُخرِج نفسها من هذه الزاوية وتفتح زوايا أوسع، عليها العمل على إنجاز نجاحات جذرية وفاعلة في الاقتصاد وفي إصلاح القضاء، تمكنها في ما بعد من الحصول على موقع سياسي أثبت أمام المنافسين والأعداء.

للنهضة واحد وتسعون عضواً في المجلس التأسيسي، دون حساب الأعضاء الذين مررتهم عبر الأحزاب الأخرى، أولئك الذين سيُؤكدون قراراتها عند أي تصويت؛ وذاك تكتيك انتخابي كان من حقها استعماله نتيجة لنظام القوائم الجائر الذي استعمل في الانتخابات، والذي وُضع أساساً لضرب النهضة. ولولاه لجاوزت نسبتها ٨٠٪.

ستعمل النهضة بحرية على تغيير أو تركيز الآليات، دون تغيير جذري في المضمون، مثال ذلك: سيكون رأيها حاسماً في مسألة تنزيل الدستور من عدمه للاستفتاء الشعبي، وهذا أمر ليس بمقدور الضاغطين عليها ردعُها فيه، ولكن مضمون نصوص الدستور نفسه لن تكون لديها فيه الكلمة الفصل. هذا لا يعني أنها لن تكون عامل تحييد لمتطرفي العَلمانية، وأذناب فرنسا، بل هي ضمانة شعبية أمام أعداء الإسلام والعروبة في

تونس، وهم قلة قليلة ولكن مدعومون بشكل كبير خارجياً.

فرنسا وإيطاليا (التي يملك رئيس وزرائها برلسكوني نسبة كبيرة من أسهم قناة نسمة التلفزيونية التي استفزت المسلمين بالفلم الإيراني الأخير المسيء للذات الإلاهية) وأذنابهما، سيُخرِجون كل أسلحتهم وخيوطهم في تونس في معركتهم الأخيرة والحياتية أمام صحوة هذا الشعب المسلم. قد يتعدى الأمر إلى إلصاق بعض الأعمال الإجرامية أو المنفلتة بالسلفيين ومن ثَمَّ بالصحوة الإسلامية. ولكن يبدو أن الشعب - ولله الحمد والمنة - ملقَّح جيداً ومستعدٌّ لمثل هذه (السيناريوهات).

قد تستعمل أوروبا ورقة الاقتصاد للضغط على القرار السياسي التونسي، فأغلب منتوج زيت الزيتون والنسيج مثلاً - وهما من القطاعات المركزية في الاقتصاد التونسي - يصدَّر إلى أوروبا. هي بالطبع لن تستطيع محاصرة تونس مثلما فعل الصهاينة مع حماس لما فازوا بالانتخابات؛ ولكنها قد تقلل من الصادرات التونسية لأوروبا، أو قد تستعمل الديون التي أسندتها للدولة للضغط عليها. ونحن نعتقد أن للنهضة طولَ نَفَس وصبراً ومخارجَ لمواجهة مثل هذه الضغوطات.

موازنة الحكومة القادمة بين مصلحة الشعب والمصالح الوطنية من جانب ومصالح قوى خارج تونس (الجزائر وليبيا) وقوى أجنبية (فرنسا، وأمريكا، والعدو الصهيوني، وإيران الصفوية...) من جانب آخر، كلٌّ حسب تأثيره وأهدافه. هذه الموازنة ستأخذ جهداً كبيراً من حكومة ليس من خياراتها ولا شخصيتها الحسم مع الآخر.

التحدي الأمني:

التحدي الأمني فيه ما هو مرتبط بالسياسي وفيه ما هو مرتبط بالفساد أو الإجرام أو كذلك بالوضع الاجتماعي.

قطاعاً، سيبرز الإشكال الأمني في المواضع التالية:

وزارة الداخلية: كانت للحبيب بورقيبة الرئيس التونسي الأسبق فوبيا الانقلابات العسكرية؛ وخصوصاً أن أوج وهجه زعيماً كان في الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي، الفترة تلك التي اشتهرت بكثرة حدوث الانقلابات العسكرية فيها، في مشرق بلاد العرب أساساً. لذلك ركز جهده على تقوية وزارة الداخلية على حساب وزارة الدفاع التي أفرغها مادياً وعقدياً.

وبدأ الظل الثقيل لوزارة الداخلية يغطي شيئاً فشيئاً كلَّ مكامن الحياة في تونس.

تغولت هذه الوزارة وكانت عصى الإجرام التي استعملها ابن علي ضد الشعب ومنظماته المدنية والسياسية، الإسلامية منها بالخصوص.

الآن، وبعد الثورة، توجد صراعات قوية داخل وزارة الداخلية، ومن الصعب جداً أن يقبل عناصرها بوزير من النهضة. فقد عُيِّن عليها بعد ثورة قاضٍ فيه نزاهة، فكادوا له إلى أن تم عزله؛ فما بالك بوزير من النهضة يترأس من كان جلاده. لا أرى وزير الداخلية في الحكومة الأولى من النهضة.

لوزارة الداخلية أجنحة متعددة مستقلة بعضها عن بعض وكانت في وقت ابن علي يراقب بعضها بعضاً.

عملية اغتيال خليل الوزير (أبو جهاد) القائد الفلسطيني في تونس كانت بمشاركة عنصر من الموساد برتبة عالية جداً من داخل وزارة الداخلية التونسية، وهي دليل من ضمن عديد الأدلة على وجود خلايا للموساد في هذه الوزارة من ضمن خلايا استخباراتية أخرى لدول أخرى.

إن تراخي الوزارة في القيام بواجبها الأمني بعد الثورة وفي لحظات حرجة جداً، زاد بشكل متعمَّد من فوضى الإجرام التي وقعت في البلاد.

وتطهير هذه الـوزارة من أخطبوطـات الإجرام والخيانة والفسـاد، من أكبر التحديـات الأمنية التي ستواجه أُولَى الحكومات الجديدة.

إن بقايا التجمع الدستوري الديمقراطي (الحزب الحاكم السابق) هم أصل الداء ومكمن البلاء، والحديث هنا عن الذين تلطخوا بدماء ومعانات التونسـيين أو تلطخوا بالفساد، وليس الذين دخلوه اضطراراً أو عن مصلحة شخصية لا تضر، مثل الحصول على ترخيص لمقهى أو تاكسي.

لقد بدأ تسرُّب السلاح إلى المجتمع التونسي ضمن التهريب غيـر القانوني المتعود عليه للبضائع بين ليبيا وتونس. وهذا موضوع دقيق له تحليل خاص لا يسـع مجال المقالة التعمق فيه.

إن غموض ما يقع داخـل الجيش هيكلياً، بمعنى حجـم الإعداد والإنفاق الـذي لا يخفى على المراقب أنه تطور في الأشـهر الأخيـرة، دون وضوح مصدره ولا شـروطه. رغم أنه تبـين أن الجيش كان مطروحاً ضمانةً أمريكية أمام التفاف النهضة على الشـروط التي أُلزمـت بها بعد زيارة الباجي القايد السبسـي (الوزير الأول التونسـي المؤقت) إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ فهل سـيتدخل الجيش بشـكل مباشر في القرار السياسي؟ ما هي عقيدته الجديدة؟

الإجـرام: ظاهرة استشـرت في وقـت ابن علي، ووجدت لها الآن واقعاً مسـاعداً. ولكنها لم تصل إلى حدود مَرَضيَّة. لو تشكلت حكومة قوية، يمكن التعامل مع هذه الظاهرة.

التحدي الاجتماعي:

واقعياً: حتى مقدم زين العابدين بن علي إلى السـلطة عبر انقلاب أبيض، كان النسيج الاجتماعي للشعب التونسي يتكون من حزام واسـع من الطبقة المتوسـطة تقارب ٨٠٪ من الشعب، وتنقسم ٢٠٪ الباقيات بين أغنياء وفقراء، عبر طيف ليس فيه الغنـى الفاحش ولا الفقر المدقع، مع وجود استثناءات فردية بالطبع.

هذه التركيبة (الاجتماعية – الاقتصادية) نتجت بعد ما ضرب بورقيبة النسـيج القبلي والأوقاف في تونس. وهذا في رأيي من أبشع جرائم بورقيبة التاريخية في حق الشعب التونسـي، ويجب أن تخصص له دراسـة خاصة – إن شاء اللـه – عبرة ونذيراً لباقي أقطار الأمة التي تحاول أنظمتها الإعلامية المسَّ من المنظومة القبلية.

فالفـرد العربي محمي بأحزمة، وهـي (العائلة والقبيلة والدولة)؛ فلما سقطت الدولة في العراق والصومال – مثلاً – حمت القبيلة الفـردَ، ولولا وجودها لرأينا مآسٍ فيهما أعظم مما حصل. فتصوروا لو سقطت الدولة في تونس إبان الثورة في ظل غياب القبيلة، فمن كان سيحمي الفرد والعائلة؟

نعلم من بديهيات ديننا أن أمتنا صاحبة رسـالة ومبتلاة بفتن إلى قيام السـاعة. والقبيلة من ضمانات الفرد المسلم عموماً والعربي خصوصاً، في مواجهة هذه الفتن.

قد تشوب القبيلَة شوائبُ – ويجب معالجتها وتنقيتها – لكن من الإجرام اقتـلاع المنظومة القبلية تماماً. مثل الدين قد تشوبه بدع وشوائب وهذا من السنن التاريخية مع الدين، ويبعـث الله من ينقيه قرناً بعد قـرن وليس مُتخيَلاً اقتلاع الدين من الأمة.

والكائن الاجتماعـي عموماً – وأهمـه القبيلة – أكثر تجذراً وأكبر عمراً من الكائن السياسي (أي الدولة). قـال – تعالى –: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل: (شعوباً ودولاً).

أتى ابن علي ومنظومة الشعب قائمة على الطبقة المتوسطة، وعلى نسيج اجتماعي محافظ، فتوجه لهذه الطبقة قهراً وتنكيلاً وأثقلها بالديون والإفساد، وإغراقها في هموم الحياة. فاستنزفت

أيما استنزاف، وأصبحت هشة، فكثرت الأمراض الاجتماعية من طلاق وعنوسة، وشوهدت جرائم لم تكن معروفة سابقاً في تونس، بل وظهر في تونس شيء غريب جداً عنَّا وهم أطفال الشوارع! والحمد والمنة لله أنَّ هذه الظاهرة ما زالت في بداياتها ونرجو من الله أن يوفِّق من يمسك بزمام الأمور في البلاد لمعالجتها سريعاً.

البعض يرى أن أهم التحديات هو التحدي الاقتصادي أو السياسي، ولا أعتقد ذلك. إن أهم التحديات في تونس، هو التحدي الاجتماعي؛ لأن حل الإشكالات الاقتصادية والسياسية مرتبط بالإرادة السياسية والتخطيط. أما التحدي الاجتماعي فيضاف إلى هذين العنصرين عنصر الزمن. الإصلاح الاجتماعي يحتاج إلى إمكانيات وجهد دعوي وزمن. وحلول الإشكاليات الاجتماعية تتطلب شجاعة ومواجهة وصبراً.

لا يمكن أن نغلق الفقرة الاجتماعية دون الحديث على نقابات العمال: ستحصل تغيرات كبيرة داخل (الاتحاد العام التونسي للشغل) هذه المنظمة العتيدة، التي كانت من أبرز مَن سطر التاريخ التونسي المعاصر؛ حيث لا نرى أمينَها العام (عبد السلام الجراد) يبقى على رأسها بعد مؤتمرها الذي سيعقد قريباً.

هذه المنظمة من أبرز اللاعبين، وراء الستار، هي وبعض رجال الأعمال، في عملية تشكيل الحكومة. كانت في وقت بورقيبة، مع الجامعة التونسية، متنفسَي الشعب. عرف ابن علي كيف يغرق قادتها في المزايا وأصبح كثير منهم لا يبحث إلا عن مصلحته الشخصية، فبهِّت ودُجِّن الاتحاد. الآن مع واقع الحرية الكبير سياسياً، قد تولد نقابات جديدة أو قد يقع تحول جذري في مساراتها بعد مؤتمرها الذي سيقام قريباً.

الفساد: هو مرض مستشرٍ، ولكن اللحظة مناسبة جداً لمداواته، مع الروح الجديدة للمواطن بعد الثورة الذي لم يعد يقبل أن يدفع رشوة أو أن يُظلَم.

والمداواة الفعلية والدائمة للفساد والرشوة لن تمرَّ إلا عبر إصلاح منظومة القضاء. وتحضرني هنا قصة لتشرشل (الوزير الأول البريطاني إبان وبعد الحرب العالمية الثانية): أتاه من يشتكي مِن تفشي الرشوة في البلاد، فسأل تشرشل: هل وصل الأمر إلى القضاء؟ أُجابوه بالنفي، فالقضاء بقي سليماً من داء الرشوة. فطمأنهم تشرشل وقال لهم بأن لا يهتموا فسيُصلح الأمر.

إن منظومة قضائية نزيهة وذات صلاحيات مناسبة، قادرة وبإمكانها - بإذن الله - التصدي للفساد. أعتقد أننا نحتاج من سنتين إلى أربع سنوات لإصلاح القضاء. وبداية الإصلاح تكون بمعهد القضاة الوحيد بالبلاد، الكائن بمنطقة (مقرين) من ولاية بن عروس.

من المكاسب التي يمكن بسهولة تأكيدها بعد الثورة: القضاء على المحسوبية في المناقصات، وهو ما سيمكن شركات جديدة من البروز في أطر شفافة ومنافسة نزيهة. وهذه عوامل ضرورية لتنمية اقتصادية سليمة. قد يكون هذا في غير صالح الشركات الأوروبية المتعودة على سوق تونسية تعتبرها مجالها. وفي المقابل هي في صالح شركات دول أخرى مثل تركيا.

التحدي الاقتصادي:

النجاح في مجابهة هذا التحدي يعني النجاح في محاربة البطالة وإعادة نوع من الاستقرار الاجتماعي إلى التونسي. استقرار وطمأنينة قد تعيده إلى فطرته السليمة وأصله الطيب المحافظ المتدين. فرميه من طرف ابن علي ومن سبقه في إعصار ماديات الحياة واللهث وراء لقمة العيش لعقود مريرة، أَنْسَت بعض التونسيين للحظات من هم، وما هي قيمهم وأعرافهم وشيمهم.

الحمـــد لله أننا نرى الآن عودة لهذا الأصل الطيب ناتجةً عن نفحات الحرية وليس مـــن فتحات الاقتصاد. ونرجو من الله بناءً فاعلاً للاقتصاد يعيد للإنسان كرامته كي تتأكد هذه العودة.

قد تســـاهم المنافسة الشـــريفة في انتخابات محلية في تنمية اقتصادية جهوية بشـــكل جدي. وكي يكون هذا المسار فاعلاً أكثر، يجب إيجاد تقسيم جهوي إداري جديد من حيث المساحةُ يكون أكبر من الولاية. وهذه تجربة ناجحة في أوروبا.

تقســـيم قائم إدارياً على الانتخاب وموازٍ لنظام الولايات، القائم على التنصيب.

حيـــث إن الوالي يُنصَّب من قِبَل وزير الداخلية ولن يحمل همَّ التنمية الجهوية مثلما ســـيحمله ابن الجهة الذي انتخب، والذي من البديهي أنه ســـيركز على برامج تنموية للجهة كي يتم انتخابه. يضاف إلى ذلك ما ســـيكون - إن شاء الله - من انتخابات بلدية ستفرز بالضرورة نخَباً همُّها التنمية البلدية.

مثال: لنأخذ الشـــمال الغربي التونسي الذي يمثل الولايات الأربع: باجة، جندوبة، الكاف وســـليانة. لكل ولاية والٍ ينصَّب مـــن وزارة الداخلية. قد يكون من غير الجهة أصلاً، وهذا مهم وهو ضمانة إضافية للتماسك الوطني، ولكنه غير فاعل تنموياً.

لـــو قامت الدولة بإنشـــاء مجالس جهويـــة منتخَبة، لها صلاحيات تنموية فســـيتكفل رؤوس المال بكل جهة الشـــمال الغربي الغني بالموارد، والذي يعاني الفقر نتيجة لهجرة رؤوس أمواله وعدم وجود مخططات تنموية خاصة بالجهة، ستتكفل رؤوس الأموال هذه بجانـــب كبير من التنمية للمحافظة على وجودهـــا صاحبةَ قـــرار في الجهة، وكـــي لا يفلت منها هذا القرار الجهوي.

عموماً من المفيـــد أن تدرسَ الحكومـــات الجديدة هذه النقاط:

١ - العمل على تثمين الثروات الجهوية والمحلية بشـــكل دقيق مهني فاعل، وتنميتها[١].

٢ - العمـــل على إيجـــاد الحلول الاقتصادية المناســـبة للقطاعات التي تعاني أزمات كقطاعات وليس كحالات فردية، وتكون مداوات الحالات الفردية داخل القطاع ذاته[٢].

٣ - الكرامـــة تقوي الاقتصـــاد على المســـتويين (العام والخاص)؛ ولهذا يجب أن تكون الأجور ســـنداً لكرامة الفرد ورخائه ومســـاعداً له في الحصول علـــى نوعية حياة مقبولة ودافعة للمبادرات. فأجور العمال المدروسة على أسس كرامة العامل تســـاهم في النمو الاقتصادي بتنمية القدرة الشرائية للعامل.

وطنيـــاً: وعـــي المجموعـــة بمفهومَي (الكرامـــة الوطنية والســـيادة) يجعل كلَّ من يريد التعامل معهـــا مهتماً بتقديم الأحســـن في النوعية والتكلفة. وفي إطار هذه النقطة، تجب مراجعـــة فورية لحيثيـــات قانون (٧٢) الخاص بالاســـتثمار الأجنبـــي، الذي اســـتعبد عشـــرات الآلاف من التونســـيين وخصوصاً النســـاء. هذا القانون الذي يكاد يبيح للمســـتثمر كل شـــيء، وكان النظام يروج له خارج تونس ويتفاخر برخص اليد العاملة التونسية؛ وكأن إهانة واستغلال المواطن مفخرة.

قطـــاع خدمات متطور وبرنامج (مراقبـــة الجودة) عالي الفاعلية[٣].

تقديم إجابة للتحدي الغذائي، والإسراع في إصلاح البنية الأساسية المائية الزراعية.

إدارة مرنة وسلسة وسريعة:

وأخيراً، إن أمكن - رغم أنه من المســـتبعد أن تلتفت إليه الحكومة الجديدة في المرحلة الأولى - مراجعة العقود الكبيرة التي أبرمتها الدولة في عهد بن علي، مثل عقود الطاقة، التي لو بُنيَت عليها إســـتراتجية تراعي المصلحة الوطنية لتمكنت البـــلاد من الحصول على اكتفائها مـــن الطاقة، وأقصد هنا الغاز والبترول.

ختامـــاً: لـــو اعتمدنا فرضية اســـتقرار الوضع في تونس في المســـار الذي هي عليه الآن، وعدم حدوث مفاجآت حاسمة تاريخيـــاً، في المنطقة أو داخل البلاد، يمكن - إن شـــاء الله - تصوُّر نموذج آخر لتجربة نجاح على الشاكلة التركية أو الماليزية.

نرجو من اللـــه العلي القدير أن ينعم على هذا الشـــعب الطيب وعلى أمة الإسلام جمعاء بالخير والرخاء والتُقى.

---

(١) قامت جمعية الخير الإسلامية بدراسة تطبيقية - معتمدة هذا المبدأ - على منطقة (سجنان) من ولاية بنزرت، وهي مستعدة لتقديمها لمن يهمه الأمر.

(٢) من أصعب الأمثلة: مُجازي اللغة العربية الذين يعانون من بطالة تكاد تكون شاملة. يمكن إيجاد حلول للقطاع ككل، ولا يجب أن يكون الحل في البحث عن وضيفة لفلان ثم أخرى لفلان، ارتجالياً.

(٣) هذا من أهم الجوانب الضامنة لديمومة النمو الاقتصادي وسمعته.

البيان

دار رسالة البيان

وبالتعاون مع

مؤسسة الجديد النافع

بالجديد النافع

يا من بقيت بعدي

تأليف : توفيق الرفاعي

خير عزاء لمن أصيب بفقد حبيب..
مع أفضل صيغ الدعاء للمتوفى

سنن مهجورة

تأليف : مطلق الجاسر

كن مساهماً في إحياء سنن منسية مهجورة..
فالدّال على الخير كفاعلة

القرآن الصاحب الوفي

تأليف : مؤيد عبد الفتاح حمدان

قصة أحداثها لا تنتهي في الدنيا وإنما تمتد للآخرة..
جامع فضائل سور القرآن مرتبة صحيحة

40 كتيب

100 ريال

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

هاتف : 4546868 - تحويلة : 502/500 - جوال : 0506461065

المنطقة الغربية : 0506461057 - المنطقة الجنوبية : 0506461058

القصيم : 0502220616 – الشرقية : 0506292689 - مكة : 0507266120

تداعيات الهزيمه الأمريكية والأطلسية في أفغانستان

د. محمد مورو

عندما يعلن الرئيس الأمريكي بارك أوباما أن حكومته تنوي سحب حوالي ٣٠ ألف جندي أمريكي من أفغانستان في نهاية عام ٢٠١١م، وأن الحرب في أفغانستان ليست حرباً ستستمر طويلاً، وأنه على حكومة الرئيس كرازي الاعتماد على نفسها في المستقبل، فإن معنى ذلك أن أمريكا بدأت تجهز الرأي العام الأمريكي لإعلان الهزيمة الأمريكية في أفغانستان، وبدء الانسحاب نهائياً من هناك.

علينا قبل أن نبدأ في تحليل تداعيات الهزيمة الأمريكية في أفغانستان أن نضع أمام أعيننا مجموعة من الأرقام والحقائق، كالتالي:

• بدأت الحرب على حكومة طالبان عام ٢٠٠١م؛ أي أنها استمرت حتى الآن حوالي عشر سنوات قابلة للزيادة، ووصل عدد القوات الأمريكية والأطلسية هناك حوالي ١٢٠ ألف جندي، وأن الجندي الواحد يكلف الخزانة الأمريكية حوالي مليون دولار سنوياً، وأنه حسب تقديرات كبار الجنرالات فإن الأمر لن يتغير حتى لو زادت القوات إلى الضعف، وأن نزيف الخسائر سيستمر بل يزيد مع زيادة عدد القوات، وأن طالبان أظهرت قدراً هائلاً من الكفاءة والمرونه والقدرة على الصمود وإنزال الضربات القوية بقوات الحلفاء هناك.

• أن أفغانستان تفتقر إلى الموانئ والبنية التحتية والطرق المعبَّدة، وهو ما يجعل الأمر شديد الصعوبة، وأن تزويد القوات هناك بالوقود والسلاح والطعام يتم عن طريق باكستان، وهذه الطرق البديلة تتعرض لعمليات فدائية من مقاتلين تابعين لطالبان باكستان أو طالبان أفغانستان تعمل في الأرضي الباكستانية، وهو ما يزيد الأمر صعوبة.

• أن الإنفاق العسكري على الحرب في أفغانستان وحدها وصل مع بداية عام ٢٠١١م إلى حوالي ٤٤٣ مليار دولار حسب الأرقام الرسمية، وتصل إلى حوالي ٢.٥ تريليون دولار في تقديرات مكاتب المحاسبة، مع الأخذ في الاعتبار أن الاقتصاد الأمريكي يعاني من أزمات ضخمة، كما أن الرأسمالية العالمية تعاني من خلل بنيوي خطير لا يمكن حلُّه على المدى القريب أو المتوسط، وأن الحكومة الأمريكية باتت تقترض لتمويل الحرب هناك، وأن التكاليف المتوقَّعه سنوياً حوالي ١٢٠ مليار دولار.

• أنه تم قتل حوالي ١٥٢٢ جندي أمريكي في أفغانستان ناهيك عن خسائر الحلفاء، وأن هؤلاء الحلفاء مثل الألمان والإنجليز والكنديين لم يعودو قادرين على الاستمرار في تلك الحرب المكلفة. أما الحديث عن المصابين فهم بالآلاف وتصل بعض التقديرات بهم إلى حوالي ٥٠ ألف مصاب، وهذا معناه أن هؤلاء سوف ينفقون على العلاج لعشرات السنين، وهو ثمن باهظ على الخزانة الأمريكية.

• يقدر أحد مكاتب الميزانية في الكونغرس عدد المعدات التي تم إعطابها في كلٍّ من العراق وأفغانستان إلى حوالي ٢٦ ألف معدَّة بين المركبات السريعة (همفي)، و ٦٦ ألف مركبة تكتيكية متوسطه، و ١٥٢٠٠ مركبة تكتيكية ثقيلة.

• تقول إحدى الباحثات الأمريكيات من مؤسسات المجتمع المدني: إن الحكومة الأمريكية تمارس الخداع بشأن الخسائر المادية والبشرية وخاصة عدد المصابين في أفغانستان، وأن هناك زيادة مستمرة في عدد الجنود الذين أدمنوا المخدرات، أو أصيبوا بأمراضٍ نفسية أو حتى انتحروا.

• أن معنى تلويح الرئيس الأمريكي باراك أوباما بالانسحاب من أفغانستان – وهو الذي كان يرى أن الحرب في أفغانستان ضرورية أكثر من الحرب في العراق، وسحب قوات من العراق وإرسالها إلى أفغانستان – أن الرجل اضطر أن يعترف بالفشل.

أسباب الهزيمة الأمريكية في أفغانستان:

دخلت القوات الأمريكية إلى أفغانستان يوم ٧ أكتوبر عام ٢٠٠١م، وصمدت حكومة طالبان من ٧ أكتوبر حتى ١٣ نوفمبر؛ أي حوالي ٣٧ يوماً كاملة تحت أقسى أنواع الضرب بكل الوسائل (طائرات ودبابات، وقنابل ١٥ ألف رطل، وصواريخ، وقنابل عنقودية)، ثم قررت طالبان أن تغير تكتيكات المواجهة، فانسحبت من المدن وممارست حرب العصابات، ولا شك أن الطريقة التي انسحبت بها طالبان من المدن كانت نوعاً من النجاح، فلم يحدث انهيار عسكري لقواتها ولا سقطت تلك القوات أسرى بالآلاف في يد القوات الأمريكية كعادة الفشل العسكري التقليدي، ثم بدأت حرب العصابات مع تصاعد نوعيتها وعددها من عام إلى عام، وحاولت القوات الأمريكية حسم المسألة مراراً وتكراراً دون جدوى، ثم استعانت بقوات حلف الناتو، ثم سحبت قوات من العراق وأرسلتها إلى أفغانستان، ولكن المقاومة كانت تتصاعد باستمرار، ولعلها قد وصلت إلى الذروة في علمياتها النوعية والكمية التي نفذتها في عام ٢٠١١م.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن طالبان نجحت في استخدام ما يسمى بإستراتيجية الضعيف؛ وهي التخلص من أعباء السلطة، ثم اللجوء إلى الجبال ثم عدم دخول معارك مباشرة مع قوات أكبر منها عدداً وعدة، ثم إنهاك الخصم بالعمليات النوعية.

وفي الوقت نفسه فإن طالبان مارست قدراً هائلاً من الانضباط الأخلاقي مع جماهير الشعب الأفغاني، وهو ما جعلها تحصل على ضمانة قوية من هذا الشعب، وتعزل حكومة كرازي والعملاء، الذين أصبحوا في نظر الشعب عملاء للأجنبي وفاقدي الاحترام، وفي الوقت نفسه فإن الحكومة العميلة لأمريكا كالعادة كانت فاسدة ومرتشية وبدون كفاءة، بل إنها مارست عملية تزوير الانتخابات لحساب الرئيس حامد كرازي، وهو ما أوقع أمريكا في حرج شديد؛ حيث ظهر أنها تدعم حكومة ديكتاتورية وأن حديثها عن دعم الديمقراطية مجرد هراء وخداع، بل إنها أيضاً تتستر على الفساد.

والتاريخ والجغرافيا كانت إحدى العوامل الهامة في هزيمة أمريكا، فالتاريخ يقول: إن أفغانستان نجحت في هزيمة الإمبراطورية البريطانية عدة مرات عام ١٨٤٢م، وعام ١٨٨٠م وعام ١٩٢٩م وظلت عصية على الخضوع للتاج البريطاني، ثم هزمت الاتحاد السوفييتي السابق وتسببت في تفكّكه في النهاية منذ غزا اللاتحاد السوفييتي أفغانستان في ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩م، ثم انهزم وانسحب في ١٥ فبراير عام ١٩٨٩م، وهكذا فإن من المتوقع أن تكون الهزيمة الأمريكية في أفغانستان هي بداية هبوط المنحنى الأمريكي، إن شاء الله.

أما عن الجغرفيا، فإن أفغانستان التي يبلغ عدد سكانها ٣٠ مليون نسمة وتتكون من مجموعة من الأعراق أهمها وأكبرها البشتون، ومعظم هؤلاء السكان من المسلمين السُّنة (٨٢ - ٩٠٪) والباقي شيعة إثنا عشرية وإسماعيلية وغيرهما، وأفغانستان تقع في قلب آسيا وهي دولة قارِّية بلا أي منافذ بحرية وتقدر الحدود الدولية لأفغانستان بطول حوالي ٥٥٢٩ كم مع باكستان في الشرق والجنوب، ومع إيران في الغرب، مع الصين في الشرق ومع دول الاتحاد السوفييتي السابق، وتبلغ مساحة أفغانستان ٦٥٢ ألف كيلو متر مربع ويشبه شكلها شكل ورقة الشجرة ومعظم أراضي أفغانستان أراضٍ وعرة باستثناء المناطق الشمالية السهلة.

وبالإضافة إلى الجغرافيا والتاليخ، فإن الثقافة الإسلامية والتركيبة العرقية تضيفان عاملين هامين إلى قدرة الأفغان على المقاومة؛ فالإسلام يدعو إلى مقاومة الفرد الأبغى والتركيبة العرقية البشتونية لا تقبل بالخضوع للاحتلال بسهولة.

تداعيات الهزيمة الأمريكية في أفغانستان:

هناك شبه إجماع بين المحللين الإستراتيجيين على أن الانسحاب الأمريكي من أفغانستان رغم أنه بطعم الهزيمة، وأنه سوف يؤدي إلى وصول طالبان إلى السلطة، وزعزعة الاستقرار في المنطقة، وهو ما يشكل خطراً إرهابياً كبيراً على أمريكا، وإن أمريكا سوف تعتمد على الهند لتحل محلها في الفراغ المتوقع، هناك إجماع على أن ذلك يرجع إلى الأزمة الاقتصادية الأمريكية؛ حيث إن الولايات المتحدة لم تعد قادرة على دفع فاتورة الحرب، بالاضافة إلى إعلان عدد من دول الحلفاء رغبتها في التخلص من هذا العبء وكذلك زيادة كفاءة ونوعية عمليات طالبان هناك؛ فإن ذلك كله ليس السبب الأساسي لتسليم أمريكا بالهزيمة في أفغانستان؛ ذلك أن هناك خطراً أكبر على أمريكا يتمثل في تداعيات الربيع العربي؛ فإذا لم يتم ضبط الأمور في كلٍّ من لبيا وتونس بطريقة تجعل هناك حكومات قوية قادرة على ضبط الأمور، فإن ذلك معناه أن تنتشر الفوضى في المنطقة كلها بدءاً من موريتانيا وحتى الصومال واليمن وفي تلك الحالة فإن المنطقة ستكون أولاً مرتعاً للإرهاب.

وهو ما يحتاج إلى عشرات الملايين من الجنود الأمريكيين وليس مئات أو عشرات الألوف فقط، ويحتاج إلى تريلونات من التكاليف والمليارات، وإن الأمر لن يتقصر فقط على الإرهاب بل وكذا الهجرة الإفريقية وغير الإفريقية إلى شواطئ أوروبا على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، انطلاقاً من الساحل الجنوبي لذلك البحر الذي يفصل أوروبا عن إفريقيا وإن هذا كله يقتضي التخفيف من الأعباء في أي مكان آخر من العالم، لمراقبة الحاله هناك والاستعداد لكل الاحتمالات والله - تعالى - أعلم.

الثورة الإيرانية في غانا

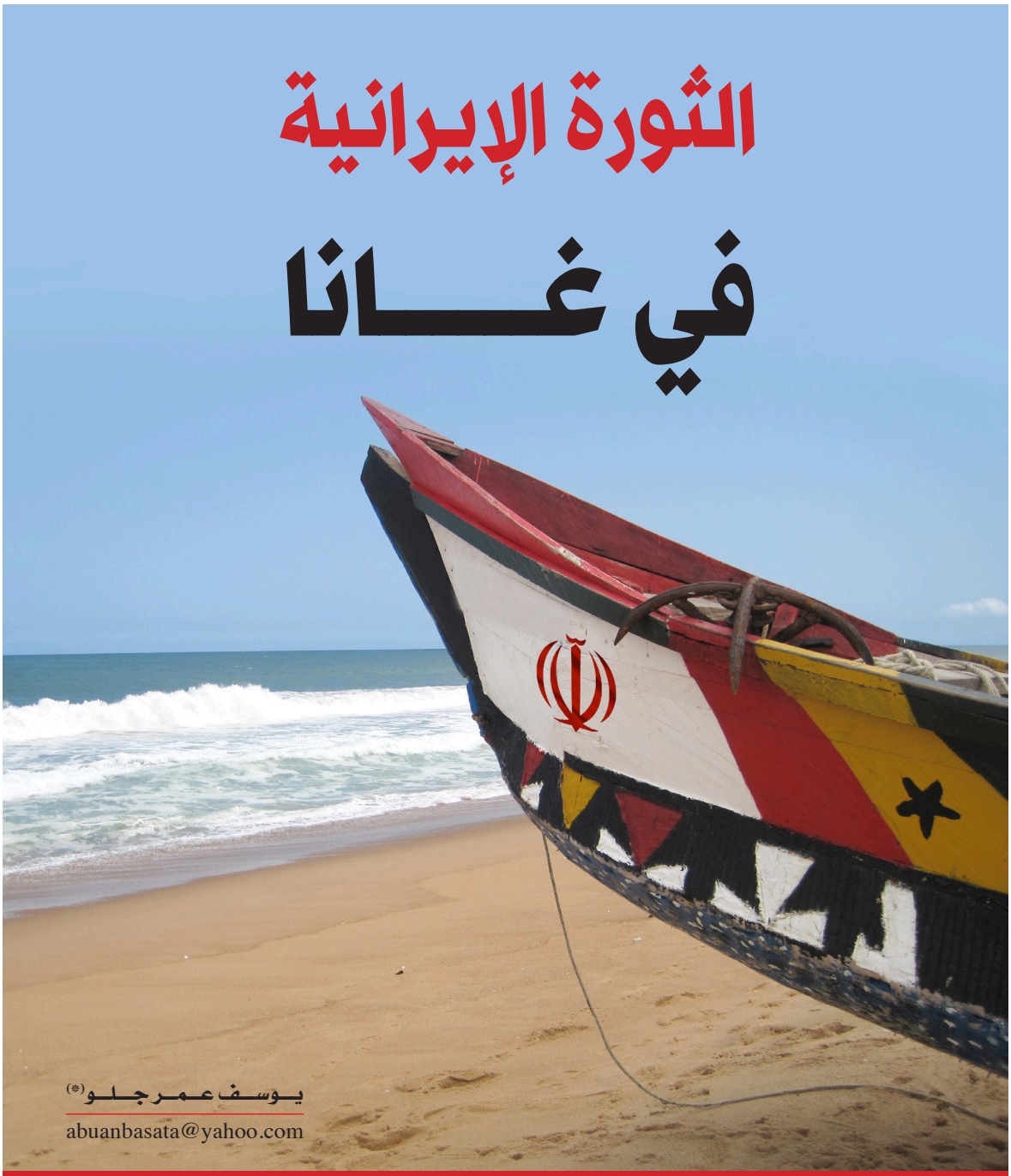

يوسف عمر جلو(*)
abuanbasata@yahoo.com

وصل خطر التشيع إلى مجاهل إفريقيا ومعاقل أهل السُّنة فيها، ولا يزالون في دربهم يخططون وينفِّذون؛ فما من يوم يمر إلا وهم يفكرون كيف يتخلصون من مسلمي غانا؟ وكيف يتمركزون فيها؟ كيف لا نتألم من أنيابهم وليس لهم هدف غيرنا؟ إن الأمر قد أصبح خطيراً جداً، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ونسألك - اللهم - أن لا تأخذنا بما لا نستطيع يا رب العالمين!

(*) خريج جامعة أبي بكر الإسلامية - باكستان.

خطط الرافضة المستقبلية الخطيرة لغزو مسلمي (غانا):

١ – محاولة إيجاد علاقة قوية بينهم وبين المنظمات الإسلامية ذات الصبغة الحكومية من خلال تبنِّي الأنشطة التي تقوم بها تلك المنظمات، مثل جمعية فومواغ (FOMWAG)، وهذه الجمعية نسائية، والله المستعان.

٢ – محاولة إيجاد منفذ للحصول على موافقة لدى مسؤولي الجريدة اليومية المسماة بـ: (DAILY GRAPHIC) لنشر أفكارهم الهدامة.

٣ – امتلاك أراضٍ لتنفيذ بعض المشروعات المخطَّط لها، وإليكم بياناً لهذه الأراضي:

• امتلكوا أرضاً في (برم برم) لإنشاء كلية البترول والبنزين مستقبلاً.

• وفي (دودوا) امتلكوا أرضاً لإنشاء كلية أهل البيت لتدريب الممرضات مستقبلاً.

• وفي (مدينة) أكرا (العاصمة) لهم أرض لإنشاء كلية العلوم والتقنية مستقبلاً.

• وفي (كوماسي) لهم موقع خصصوه لإنشاء كلية اللغات الحديثة مستقبلاً.

• ولهم أرض في (ونشي) لإنشاء معهد أهل البيت لتعليم علوم الاتصالات.

• وفي (أشايمن) امتلكوا أرضاً لإنشاء الثانوية العالية لأهل البيت بالعربية والإنجليزية، وحالياً لهم هناك مجمع الإمام المهدي للدراسات العربية والإنجليزية.

• وفي (كاسوا) أكرا (العاصمة) لهم أرض لإنشاء مركز أهل البيت للبحوث العلمية والصيدلية مستقبلاً.

• وفي (ننغوا) امتلكوا أرضاً لإنشاء معهد التدريب المهني، وفي الموقع نفسه قرروا إنشاء المسجد الجامع في السَّنة المقبلة قبل المعهد الذي يريدون إنشاءه.

• وفي (نانانو رود) لهم أرض كبيرة جداً خصصوها لتوسعة جامعتهم مستقبلاً، وهذه الخطة هي التي جعلت الحكومة تميل إليهم أكثر فأكثر؛ لأن البلد بحاجة ماسَّة إلى هذه الأشياء، وكيف لا؟ ولقد صرَّح بهذا كله مدير جامعتهم (أحمد علي الغاني) في أحد لقاءاته.

٤ – محاولة السيطرة التكاملية على قناة (NET٢) قبل إيجاد وإنشاء قناة خاصة لهم. ولهم الآن برنامج على تلك القناة المذكورة في كل يوم جمعة بعد صلاة العشاء، وقد مضى على ذلك البرنامج أكثر من سنة، ولا زال مستمراً إلى وقتنا هذا، ونحن لم نستطع أن نقدِّم برنامجاً على القنوات ولو مرة في شهر، والله المستعان.

٥ – سعيهم الحثيث وضغطهم على جامعة ليغون التي هي أكبر وأفضل الجامعات في (غانا) لتفتح شعبة اللغة الفارسية في قسم اللغات الحديثة تحت مظلة كلية الآداب، عن طريق الزيارات وتكرارها، وما يصاحبها من الهدايا للجامعة، ثم لأعيانها مثل مدير الجامعة وبعض العمداء، كما أنهم يعِدون بأنه لو فتحوا هذه الشعبة فسيتكفلون برسوم تسجيل بعض طلابها. وزياراتهم هذه التي يقومون بها للجامعة تنشَر في مجلة الجامعة ودورياتها.

نشاطات الرافضة الحديثة:

١ – المسابقات القرآنية للجامعات الغانية، والفائز الأول يتم تكريمه بالمال، وتذكرة سفر إلى طهران.

٢ – تقديم وتوزيع آلة الخياطة لدُور الخياطة النسائية خاصة.

٣ – دورة الأئمة والخطباء في كل سنة، وقد تم تخريج الدفعة الرابعة، وعددهم سبعون داعية وخطيباً.

٤ – مساعدة الفلاحين بما يحتاجون إليه من الأدوات الزراعية ومعداتها؛ من ذلك – مثلاً – (التراكتورات) وكل متطلبات الزراعية، وتقديم عشرين ألف دولار لتنمية المناطق الريفية، ولقد تم لقاء بين السفير الإيراني في أكرا (غانا) وبين المدعي العام الغاني (ماتيو حامد) بخصوص هذا الموضوع.

٥ – التمكن لتطوير جامعتهم التي هي الطامة الكبرى، وقاصمة ظهر أهل السُّنة والجماعة، من خلال بناء عمادة القبول والتسجيل الجديدة – وستأتي صورتها بإذن الله – وفتح تخصصات جديدة، كتخصص إدارة الموارد البشرية، وتخصص مهارات الاتصالات، هذا وقد فتحوا قِسماً للدارسات العليا في الفلسفة، وفي العلوم الإسلامية، بالإضافة إلى دارسة في العطل الأسبوعية، وزيادة عدد الطلاب بعد أن كانوا قلَّة، وعددهم حالياً (١٨٠٠) طالب، بعد أن كان عددهم أربعةً وثلاثين طالباً في سنة ٢٠٠٠م، وعدد طلاب أهل السُّنة في هذه الجامعة حالياً (٦٠٠)، والعجب كل العجب أنك تجد من بين هؤلاء الطلاب أبناء كبار مشايخ السُّنة، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥ – البث الإذاعي: حيث تمكَّنوا من شراء ساعات في بعض إذاعات (أف أم) كإذاعة (أُمان)، يبثون من خلالها عقائدهم الهدامة المنحرفة والله المستعان نسأل الله أن لا يأخذنا بما لا نستطيع.

٦ – تقديم مئة ألف دولار إضافة إلى سيارات الإسعاف التي قدموها للحكومة. وهذه المبالغ مخصصة لما يطرأ على السيارة من إصلاحات وغيرها؛ حتى تبقى هذه السيارات من دون مشكلات تُذكَر، ولقد ذكرنا عددها في التقرير السابق دون ذكر هذا المبلغ.

٧ – تعيين مندوب في كل إقليم، ويحرصون على أن لا يكون هذا المندوب معروفاً لدى الناس، ويكون له أعوان يستعين بهم وعن طريق هؤلاء يتم إيصال كل ما يريدونه إلى الإقليم.

٨ – توزيع المصاحف في الجامعات المعروفة، كجامعة كبكوس، وجامعة ليغون في أكرا، وجامعة العلوم والتقنية في كوماسي، ثم خصصوا بعد ذلك لكل إقليم (١٥٠) مصحفاً بعد ما تم توزيعه في الجامعات.

٩ – توصيل الكهرباء إلى قرية (غدن توبا، يعني: دار التوبة) بأموال طائلة، ونوروا القرية كلها بغية تشييعهم.

١٠ – إقامة ندوة علمية بعنوان (الندوة الأولى لمؤتمر المنهج العلمي للإمام الصادق)، وذلك يوم السبت الموافق ١٣ رمضان ١٤٣٢هـ.

١١ – الزيادة في المنح الدراسية التي يقدمونها لأبناء المسلمين من الفقراء في الداخل والخارج.

١٢ – برنامج إفطار الصائمين وما يصاحبه من الهدية لكل من حضر.

الجامعة الإسلامية في (غانا):

اســم هذه الجامعة يوحــي لكل من لا يــدري الحقيقة بأنها صالحة للمســلمين ولأبنائهم ومجتمعاتهم؛ لأنها مرتبطة بالإسلام مباشرة، ولقد زعم مؤسسو هذه الجامعة في بدايتها أنهم أسسوها لمســاعدة المجتمع الإســلامي في غانا من الناحية العلمية؛ حيث إن هناك عدداً كبيراً من طلاب المســلمين، لا يستطيعون مواصلة تعليمهــم الجامعي بعد التخرُّج فــي الثانوية؛ لشــدة فقر أولياء أمورهم. فنتيجة لهذا الزعم المعســول، الذي ظاهره رحمة وسرور وجمال، وباطنه قُبْح وعذاب وفساد، فقد التحق مئات من الطلاب بهذه الفتنة التي سمُّوها بالجامعة الإسلامية، ومع مرور سنتين من إنشاء الجامعة ارتفع عدد الطلاب إلى أكثر من ألف، فألغوا جميع الإعانــات المالية التي يقدمونها للطــلاب في بداية الأمر إلا الذي يصلــي معهم مثل صلاتهم، ويُظهر أنه قد تشــيع وقَبِل عقيدتهم، وسجل اســمه في قائمة الذين تشــيعوا، بل حتى عندما يريد أن يلتحــق الطالب بهذه الجامعة فهناك فقرة في اســتمارة الالتحاق مكتوب عليها: هل أنت ســني أو شــيعي؟ ويجب أن يعبِّئه الطالب حتى يتم قَبُوله، ومن خلال بناء هذه الجامعة اســتطاعوا كســب الحكومــة الغانية التي عجزت عن توفير جامعات كافية لشــعبها. والهدف الأول من تأسيس هذه الجامعة هو بثُّ التشيع، وإذا وجدوا طالباً يناقشــهم فــي عقيدتهم كثيراً ولم يقتنــع بما هم عليه من الضلالــة، يحاولون كل المحاولة لإبعاده وفصله من جامعتهم، وهذا أمر مشاهد ومعايَش، كما فعلوا للطالب السُّني (فيصل أبو بكر).

إننا إذا أردنا مســتقبلاً صحيحاً للمســلمين في غانا فعلينا القيام بالبديل. نســأل الله التوفيق والسداد، والتصدي للرافضة أينما كانوا، اللهم آمين!

حلول عاجلة ملحَّة:

هذه حلول عاجلة منتظَرة نقدِّمها مختصرة بسبب النشاطات التي قامت بها الرافضة في غانا، والتي استعملت جميع الوسائل الحديثــة والجذابة في ســبيل دعوتها إلى التشــيع والرفض والضلالة، ولم يتركوا فرصة إلا استغلوها لإضلال إخوانكم في غانا، وصدِّهم عن عقيدتهم، وإليكم بيان هذه الحلول:

• إيجاد جامعة عصرية تشمل أكثر التخصصات العلمية يقــوم عليها أهــل السُّــنة والجماعة، ويمكــن البدء ببعض التخصصات على أمل الإتمام مستقبلاً، إن شاء الله.

٢ - إيجــاد معاهــد ومــدارس عديدة (باللغــة العربية والإنجليزية).

٣ - تقوية الدعوة عن طريق وســائل الإعلام؛ وذلك من خلال إيجاد:

• قناة خاصة لأهل السنة.

• وإذاعة خاصة لهم أيضاً.

٤ - إيجاد مستوصفات عديدة كما لهم مستوصفات.

٥ - إيجاد مركز أو معهد خاص لتدريب الدعاة والمعلمين وإعدادهــم؛ ليتصدوا لخطر الرافضــة وعقيدتهم، وليقوموا ببيان خطرها على المجتمع بالوسائل الصحيحة.

٦ - تكثير المنح الدراسية (للطلاب الذين نرى لهم نشاطاً في مجال الدعوة واستعداداً لمحاربة الرافضة).

٧ - إيجــاد صالة تجمع جميع دعاة أهل الســنة، ويكون فيها دروس ومحاضرات مستمرة.

٨ - تكثير الدورات العلمية (في بيان عقائد الرافضة).

٩- مكتبة خاصة تشــمل جميع كتب الســنة التي تكلمت حول خطر الرافضة وأسلوب الرد عليهم.

١٠ - إيصال الكتب التي تبيِّن بطلان عقيدتهم والتمسك بالعقيدة الصحيحة المترجَمة باللغة الإنجليزية للعوام.

١١ - تكثير القوافل الدعوية في جميع أطراف البلاد.

١٢ - الخدمات العامة الإنســانية المهمة لما له من التأثير في نفوس البشر.

١٣ - المسابقات العلمية (في فضائل الصحابة وسيَرِهم)، وتقديم الجوائز التي ترغِّب الناس للمشاركة فيها.

لو نظر القارئ في هذا التقرير فسيجد أنني لم أذكر أهم مراكز الشــيعة ومؤسســاتهم: كمعهد شــيعة أهل البيت العالي للدراسات الإسلامية، ومجمع الإمام المهدي ومدرسة فتح المبين، ومنظمة شــيعة أهل البيت ومركز شــباب أهل البيت، ومدرسة فاطمة الزهراء الإســلامية للبنات، ومؤسسة الإمام الحسين... وغيرها، ومتى كان ولوغهم في هذه الأراضي؛ لأنه ســبق ذكرها في تقرير سابق، وبعد هذا التقرير نريد من أهل السنة وقياداتها الكريمــة المحبوبة، أن يقوموا بعمل إنقاذ المســلمين في غانا من براثن وجراثيم التشيع والرفض والضلالة والانحرافات.

اللهم اشــهد! اللهم اشهد! اللهم اشهد قد بلغنا! ما نملك إلا هذا فاعذرنا يا رب العالمين!

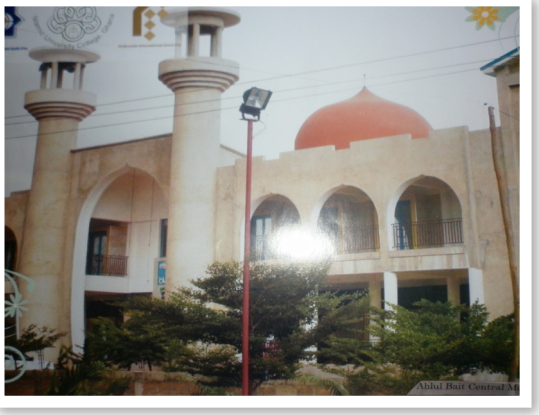

صورة المسجد الجامع لأهل البيت في (مدينة) أكرا العاصمة.

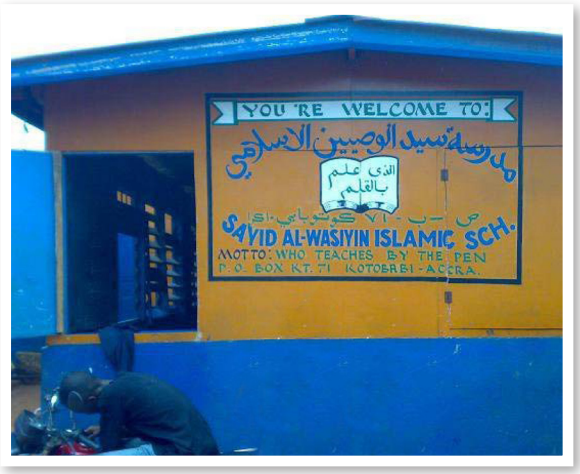

هذه صورة مدرسة سيد الوصيين الإسلامي في كوتوبابي أكرا العاصمة.

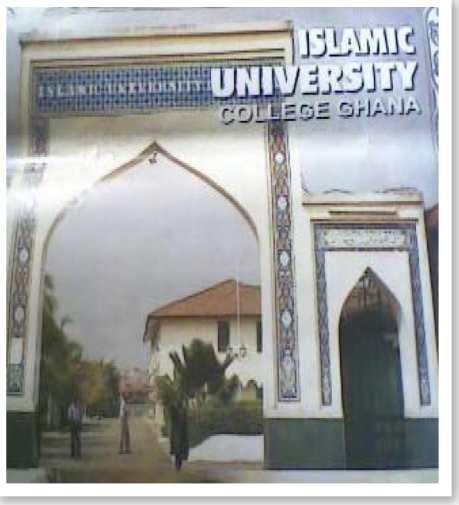

صورة لجامعتهم التي سموها بالجامعة الإسلامية تدليساً وتمويهاً وجذباً للناس.

صورة عمادة القبول والتسجيل الجديدة التي بنوها في جامعتهم التي سموها بالجامعة الإسلامية تدليساً وتمويهاً.

مجلة البيان

جديد مجلة البيان

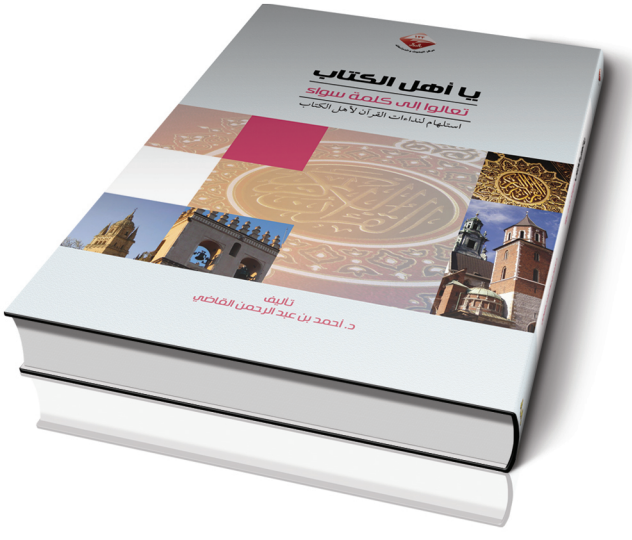

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مرصد الأخبار

جـــلال ســـعـــد الـــشـــايـــب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

قانون لمكافحة التمييز بمصر

أصدر المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية مرسوماً بقانون لتعديل بعض أحكام قانون العقوبات لمكافحة التمييز، وقد شـــرع المرســـوم أنه: «يعاقب بالحبس وبغرامة لا تقل عن ثلاثين ألف جنيه ولا تتجاوز خمســـين ألف جنيه، أو بإحدى هاتين العقوبتين كل من قام بعمل أو بالامتناع عن عمل يكون من شأنه إحداث التمييز بين الأفراد أو ضد طائفة من طوائف الناس بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة، وترتب على هذا التمييز إهدار لمبدأ تكافؤ الفرص أو العدالة الاجتماعية أو تكدير للسلم العام.

وتكون العقوبة الحبس مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر، والغرامة التي لا تقل عن خمسين ألف جنيه ولا تتجاوز مائة ألف جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين إذا ارتكبت الجريمة المشار إليها في الفقرة الأولى من هذه المادة، من موظف عام أو مستخدم عمومي أو أي إنسان مكلف بخدمة عمومية.

[جريدة الشروق المصرية ١٥/١٠/٢٠١١م]

علمانيو مصر يستقوون بالصوفيين

نشرت صحيفة وول ســـتريت جورنال الأميركية، أن العلمانيين في مصر يسعون إلى اســـتقطاب الطرق الصوفية إلى جانبهم في مواجهة المد المتعاظم للإخوان المسلمين والسلفيين؛ إذ إنهم اكتشفوا أن الإســـلاميين يفوقونهم عـــدداً في وقت تحشـــد فيه الأحزاب السياسية قواها لخوض الانتخابات التشريعية الشهر المقبل.

وقد أشاع فوز حزب حركة النهضة الإسلامي في تونس بالانتخابات إحساســـاً لدى العلمانيين في مصر بأهمية التحرك العاجل؛ خاصة بعد أن اتضحت غلبة المرشـــحين الإسلاميين على قوائم الترشيحات بعد قفل باب التسجيل للانتخابات الإثنين الماضي.

ويؤكد مشـــايخ الطرق الصوفية في مصـــر أن لديهم أتباعاً يفوق عددهم الســـلفيين وجماعـــة الإخوان المســـلمين مجتمعين؛ إلا أنهم يفتقرون للتجربة السياســـية؛ وما حدث في أغسطس الماضي عندما نظَّم أحد قادتهم تجمعاً فـــي ميدان التحرير ردّاً على المظاهرة التي حشـــدها الإسلاميون قبل ذلك؛ فلم يستجب لتلك الدعوة سوى بضع مئات من الناس.

[الجزيرة، عن وول ستريت جورنال الأميركية ٢٧/١٠/٢٠١١م]

دفعة تعويضية جديدة لمتضرري الغزو العراقي للكويت

اعتمـــدت لجنة الأمم المتحـــدة للتعويضـــات المعنية بالمتضررين من الغزو العراقي للكويت سنة ١٩٩٠م، صَرْف دفعة جديدة من التعويضات تقدر بمليار دولار أمريكي من أموال عائدات النفط العراقـــي، وأكدت أن هذه الأموال ستذهب إلى أربع شركات وأربع حكومات ومنظمات دولية، دون توضيح هوية مســـتحقي هـــذه التعويضات. مكتفية بالإشارة إلى أنها تعمل داخل الكويت.

ويذكر أن اللجنة المكونـــة من ١٥ عضواً – هم ممثلو الدول الأعضاء في مجلس الآن – قد دفعت حتى الآن ٣٤,٣ مليار دولار.

كما يذكـــر أنه حتى بدء الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م كانت اللجنة الأممية تحصل على ٢٥٪ من عائـــدات النفط العراقـــي وبعد ذلك خفضت النسبة إلى ٥٪.

[شبكة BBC العربية ٢٧/١٠/٢٠١١م]

(*) نرحب بمقترحاتكم البناءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

دراسة بريطانية: أرقام مقلقة عن أطفال المدارس ببريطانيا

وجدت دراسة جديدة لوحدة التربية الصحية للمدارس البريطانية، مبنية على بيانات مجمعة من أكثر من ٨٣ ألف طفل بين سن ١٠ و ١٥ عاماً أن ٤٪ من الأطفال في سن ١٢ أو ١٣ عاماً احتسوا ٢٨ قدحاً أو أكثر من الخمر في الأسبوع السابق لسؤالهم، وتجاوز هذا العدد حدود البالغين الذين يتناولون ثلاثة إلى أربعة أقداح يومياً. وكان معظمهم يشرب في المنزل أو في منازل الأصدقاء أو الأقارب بدلاً من تناولها في الحانات أو المحلات.

وقد ذكرت الدراسة كذلك أن الخوف من العنف كان من أكبر الهموم بين الأولاد؛ إذ إن واحداً من كل خمسة أولاد قالوا: إنهم كانوا يحملون في بعض الأحيان أسلحة للحماية.

وأشار خبراء بريطانيون إلى أن الانغماس في شرب الخمر في سن صغيرة يقود إلى سلوك خطير يتعلق بالجنس والعنف والتعطل عن التعلم والتنمية الاجتماعية وغير ذلك مستقبلاً. [صحيفة ديلي تلغراف البريطانية، ترجمة الجزيرة ٢٠١١/١٠/٣٠م]

مفهوم الراديكالية

الراديكالية: مصطلح قديم ظهر منذ العصور الوسطى، وتقابلها باللغة العربية حسب المعنى الحرفي للكلمة «أصل» أو «جذر»، ويقصد بها عموماً (مثل كلمة «أصولية») العودة إلى الأصول والجذور والتمسك بها والتصرف أو التكلم وَفْقَها، ويصفها قاموس لاروس الكبير بأنها «كل مذهب محافظ متصلب في موضوع المعتقد السياسي».

ويمكن القول أيضاً بأن الراديكالية: هي نهج أو سياسة تسعى لإدخال إصلاحات جذرية على النظام الاجتماعي القائم. والأحزاب الراديكالية في بعض الدول اليوم يمثلها عادة الأجنحة السياسية اليمينية المتطرفة أو الأحزاب ذات النظرة الدينية المتطرفة؛ سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو هندوسية.

وقد ظهرت في بداية الأمر للإشارة إلى تصلب رجال الكنيسة الغربية في مواجهة التحرر السياسي والفكري والعلمي في أوروبا، وللدلالة على تصلب رجال الكنيسة و «راديكاليتهم» (أي تعصبهم وتصلبهم وإصرارهم على الأصول القديمة دون تجديد).

ولكنها أصبحت تشير في ما بعد إلى العكس وإلى التغيير، ليس بمعنى «العودة للجذور» فقط، ولكن «التغيير عموماً بشكل جذري»؛ حيث أصبحت تنسب إلى جذور الشيء، ويقال: إن «الجذريون» أو «الراديكاليون» هم الذين يريدون تغيير النظام الاجتماعي والسياسي من جذوره؛ ولهذا فسرها البعض على أنها تعبِّر عن الإصلاح الأساسي «حسب نظرة هؤلاء» من الأعماق أو الجذور.

والعالم اليوم صبغ مصطلح «الراديكالية» بمعنى آخر هو التطرف، وأضاف إليه معنى العنف والإرهاب، وكثيراً ما أشير به إلى بعض المسلمين في العصر الحديث؛ ولهذا قال المستشرق البريطاني «هومي بابا» (أستاذ الأدب في إحدى الجامعات البريطانية): «الراديكالية كلمة ذات دلالات سلبية تلصق بالعالم الإسلامي، مع أن الظاهرة عالمية ولا تقتصر على ما كان يسمى دول العالم الثالث مثل الهند ومصر، بل وجدت طريقها إلى العالم الأول؛ حيث الراديكالية الإنجيلية على أشدها في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً».

ويقول المؤرخون: إن الصحفيين العرب تداولوا (بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م) ومن بعدهم الباحثون والمحللون الناطقون بالعربية، مصطلح (الأصولية) على نطاق واسع؛ وذلك ترجمة لمصطلحين غربيين استعملتهما الأوساط السياسية والإعلامية والثقافية في الغرب للإشارة إلى حالة ظهور عدة تيارات وجماعات دينية تتعامل في الشأن السياسي في عدة دول ذات غالبية مسلمة، والمصطلحان هما: Radicalisme وIntegrisme، في حين أن هذين المصطلحين بما يحملان من دلالات سياسية وفكرية لا يعبران تعبيراً دقيقاً عما توحي به لفظة (الأصولية) الرائجة حالياً؛ وخاصة ما يتضمنه المصطلح الثاني من معاني الرجعية المعادية لكل تقدُّم، وهكذا يصبح النعت بالأصولية بمثابة شتيمة سياسية.

وقد أصبحت الكلمة مرادفة للحياة السياسية عموماً؛ بحيث أصبحت هناك «أحزاب راديكالية» و «سياسة راديكالية»، و «توجه راديكالي»، و «زعيم راديكالي». ومع انحسار استخدام الكلمة في العالم الغربي تدريجياً بدأت الصحف الغربية ومراكز الدراسات تتحدث عن العالم العربي والإسلامي بهذا المصطلح، مثل وصف [الثورة بأنها راديكالية، والفكر الثوري بأنه راديكالي].

وغالباً ما ترتبط الكلمة بالتيارات الماركسية أو الاشتراكية أو اليمينية المتطرفة، وإن كانت أصبحت أكثر ارتباطاً في الوقت الراهن بالتيارات الإسلامية.

يحرق المصحف ويترشح للرئاسة!

أعلن القس الأميركي المتطرف تيري جونز الذي أحرق في مارس الماضي نسخة من القرآن الكريم في كنيسته بفلوريدا، نيته الترشح للانتخابات الرئاسية الأميركية المقررة عام ٢٠١٢م، رافعاً شعار «انهضي أميركا» بالتوازن في الميزانية العامة للحكومة الفدرالية، وتقليص المصاريف الفدرالية بشكل كبير، وتقليص ميزانية الدفاع، والتصدي «للبيروقراطية»، وإعادة الجنود الأميركيين الذين يقومون بمهمات في الخارج، وطرد جميع المهاجرين غير الشرعيين فوراً.

ويذكر أن القس الأمريكي هدد أولاً بحرق المصحف ثم تراجع ليفاجأ العالم فعلياً بحرق نسخة من المصحف الشريف في كنيسته، وهو ما أثار موجة عنيفة من التظاهرات الاحتجاجية في العالم؛ وخصوصاً في أفغانستان. كان من أعظمها تلك التظاهرات العنيفة التي جرت في الأول من أبريل في مزار الشريف بشمال أفغانستان؛ حيث هاجم المتظاهرون مقر الأمم المتحدة وقتلوا فيه ٧ موظفين أجانب يعملون لحساب الأمم المتحدة.

[جريدة الدستور الأردنية ٢٩/١٠/٢٠١١م]

قس مصري: مبارك أجج الفتنة الطائفية!

رفض القس أندريا زكي نائب رئيس الطائفة الإنجيلية في مصر (خلال حوار له على قناة الجزيرة الإخبارية) القول بوجود اضطهاد للأقباط في مصر، واتهم نظام الرئيس المخلوع حسني مبارك بتأجيج التوتر الطائفي.

وقال القس إن ما شهدته مصر في السنوات الماضية يتراوح بين نوع من التوتر الطائفي وبعض حالات التمييز ضد الأقباط، التي أرجع بعض أسبابها إلى الأقباط أنفسهم؛ وذلك بسبب سلبيتهم وإحجامهم عن المشاركة الفعالة في الحياة السياسية.

وقال زكي: إن نظام الرئيس السابق حسني مبارك استغل الملف الطائفي بشكل سيئ، وهو ما ساهم في تأجيجه، رافضاً أن يكون مبارك المخلوع قد دلل الأقباط، معتبراً أنهم تعرضوا في سنوات حكمه للتهميش.

ورداً على بعض الأصوات المنادية بالاستقواء بالخارج رفض زكي تلك الأصوات جملة وتفصيلاً؛ معتبراً أن هذا الاستقواء يمثل أكذوبة كبرى؛ لأن الغرب لا يهمه إلا مصلحته.

[قناة الجزيرة ١٦/١٠/٢٠١١م]

صوت المرأة عورة... أحدث الفتاوى بإسرائيل!

صدر مؤخراً فتوى لأكبر حاخامات إسرائيل تفيد بتحريم استماع المجندين بالجيش الإسرائيلي لغناء المطربات، على اعتبار أنَّ صوت المرأة عورة، وَفْقاً للشريعة اليهودية.

وطالب الحاخام يونا ميتزجر، في فتواه، باحترام حقِّ المجندين المتدينين في الامتناع عن سماع صوت امرأة تغنِي، في تصرُّف اعتُبِر دعماً لمجندين بالجيش الإسرائيلي قاطعوا حفلاً عسكرياً لوجود مطربة تغنِّي فيه، فتمَّ استبعادهم من دورة الضباط.

وأصدر الحاخام الفتوى بعنوان «صوت المرأة عورة»، في وثيقة مكونةٍ من ٧ صفحات، وقام مكتبه بتوزيعها على رجال الدين اليهودي في إسرائيل وخارجها.

[موقع الإسلام اليوم ٤/١٠/٢٠١١م]

صرح مكتب الإحصاء الوطني البريطاني: «أن عدد العاطلين عن العمل ارتفع بنحو ١١٤ ألفاً من يونيو إلى أغسطس الماضي ليصل إلى ٢,٥٧ مليون عاطل».

وأشار التقرير إلى أن عدد العاطلين عن العمل في بريطانيا يعد الأعلى خلال الـ ١٧ عاماً الماضية، موضحاً أن العاطلين من الفئة العمرية بين ١٦ و ٢٤ عاماً وصل إلى ٩٩١ ألفاً.

وكانت دراسة صادرة عن معهد الدراسات المالية قد أشارت إلى انخفاض أعداد العائلات من أصحاب الدخول المتوسطة، وهو ما أدى إلى دخول نحو ٦٠٠ ألف طفل تحت مستوى الفقر، موضحاً أنه بحلول عام ٢٠١٣م سيصل عدد الأطفال تحت خط الفقر إلى ٣,١ مليون طفل.

[جريدة اليوم السابع المصرية ٢٠١١/١٠/١٤م]

أقر موقع فيسبوك الاجتماعي بأن نحو ٦٠٠ ألف مستخدم للموقع من أكثر من مليار شخص يتعرضون كل يوم لمحاولة سرقة رسائلهم وصورهم ومعلوماتهم الشخصية من قِبَل قراصنة الإنترنت المحتالين.

ويذكر أن هذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها فيسبوك عن كيفية تعرضه لهذا السيل الجارف من القراصنة يومياً.

ومن الجدير بالذكر أن فيسبوك من أكبر مواقع الشبكات الاجتماعية في العالم؛ حيث يوجد به أكثر من ٨٠٠ مليون عضو يقضون أكثر من ٧٠٠ مليار دقيقة على الموقع كل شهر.

[شبكة محيط الإخبارية ٢٠١١/١٠/٣٠م]

نشر تقرير للأمم المتحدة أن إنتاج أفغانستان من الأفيون ارتفع بنسبة ٦١٪ هذا العام، بعد أن أدى ازدياد الطلب على المادة المخدرة وسوء الأحوال الأمنية في البلاد إلى الإضرار بالجهود المبذولة لمكافحة المخدرات.

وجاء في التقرير: أن قيمة الأفيون في المزرعة من محصول هذا العام زادت إلى أكثر من الضعف لتبلغ في مجملها ١,٤ مليار دولار أميركي.

وتُعَد هذه هي المرة الأولى منذ عام ٢٠٠٧م التي تقوم فيها الأمم المتحدة بتوثيق الأدلة بنسبة ٧٪ هذا العام على اتساع في الرقعة المستغلة في زراعة نبات الخشخاش الذي يُستخرَج منه الأفيون، والنسبة تضاعفت - تقريباً - بعد عام ٢٠٠٢م.

[صحيفة وول ستريت جورنال الأمريكية ٢٠١١/١٠/١٢م]

أظهرت المعطيات الحديثة التي نشرها الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني بمناسبة يوم الإسكان العربي، أنَّ عدد الوحدات السكنية المتوقعة في الأراضي الفلسطينية مع نهاية عام ٢٠١١م سيبلغ (٨٨٤,٣٨٥) وحدة سكنيَّة؛ أي بزيادة تصل إلى (٢٦٪) مقارنة مع عام ٢٠٠٧م.

وتشير تلك المعطيات إلى أن أكثر من ثلثي الأسر في الأراضي الفلسطينية (٧٢٪) بحاجة إلى وحدات سكنية في العقد القادم، بينما نحو (٣٧٪) منها فقط لديها القدرة المادية على بناء وحدات سكنية في الفترة نفسها.

وترتفع نسبة الأسر المقدسية، التي هي بحاجة إلى وحدة سكنية واحدة على الأقل؛ إذ تُشير المعطيات إلى حاجة حوالي (٧٩٪) من الأسر في محافظة القدس إلى مساكن في السنوات العشر القادمة.

[موقع الإسلام اليوم ٢٠١١/١٠/٤م]

قدر متخصصون حجم الاستثمارات الخليجية المتوقعة للعشرية المقبلة في مجال النقل والسكك والخدمات اللوجستيكية بنحو ٢٠٠ مليار دولار، ويقولون: إن أصول قطاع النقل البري بالمنطقة وحده تربو عن (٢٤ مليار دولار).

وقد أشارت التقديرات الإجمالية لمشروع الربط السككي الخليجي، الذي ينتظر الانتهاء منه عام ٢٠١٧م، قد وصلت إلى ١٥ مليار دولار على مسافة ٢٠٠٠ كيلو متر.

وقد بلغت مشاريع دولة قطر الخاصة بسكك الحديد ومترو الأنفاق قرابة ٣٥ مليار دولار، كما أن أصول قطاع النقل البري بالسعودية بلغ نحو ٦٠ مليار ريال سعودي (١٦ مليار دولار)، وبـ ٨ مليارات دولار ببقية دول التعاون الأخرى.

[موقع قناة الجزيرة ٢٠١١/١٠/١٧م]

الأقلية المسلمة في مملكة ليسوتو

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

مملكة ليسوتو: دولة إفريقية داخلية مغلقة لا تطل على ممرات مائية، وتحيط بها دولة جنوب إفريقيا من جميع الجهات. وتعد ماسيرو هي عاصمتها وأكبر مدنها.

تناوبت جنوب إفريقيا وبريطانيا على احتلالها حتى حصلت على استقلالها التام في الرابع من شهر أكتوبر عام ١٩٦٦م، ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من ٣ مليون نسمة، يشكل المسلمون منهم نسبة ٥ ٪ حسب إحصائية ٢٠٠٦م.

تُعَد مملكة ليسوتو من أفقر الدول الإفريقية، ويعتمد اقتصادها بصورة رئيسية على الزراعة.

الجماعات الإثنية: الباسوتو (٩٩,٧ ٪) – آخرون (٠,٣ ٪).

الأديان: مسيحيون (٨٠ ٪) – مسلمون (٥ ٪) – أديان أخرى (١٥ ٪).

اللغات: الإنجليزية هي اللغة الرسمية ولغات محلية مثل الزولو والسيسوتو.

دخول الإسلام:

يذكر السماني النصري محمد أحمد (الأستاذ بجامعة الزعيم الأزهري بالسودان) في كتابه «وصول الإسلام للجنوب الإفريقي» أن منطقة الجنوب الإفريقي التي تضم عشر دول، هي: ليسوتو، أنجولا، بتسوانا، ملاوي، موزمبيق، ناميبيا، جنوب إفريقيا، سوازيلاند، زامبيا وزيمبابوي، قد تأخر وصول الإسلام كثيراً إلى هذه المنطقة مقارنة بباقي أجزاء إفريقيا. بعض هذه الدول لم ينتشر فيها الإسلام حتى نهاية القرن العشرين، بينما وصل إلى بعضها الآخر في منتصفه. أما الدول المطلة على الساحل، فقد عرفت الإسلام منذ وقت مبكر.

ويضيف أن تلك المنطقة عرفت الإسلام في منتصف القرن السابع عشر الميلادي بوصول دفعات من السجناء السياسيين الآسيويين من جزر الملايو، وفي بادئ الأمر كانوا يُمنعُون من تأدية شعائرهم الدينية بصورة جماعية وعلنية، وكانت عقوبة الإعدام تنال كلَّ من قبض عليه (متلبساً بجريمة الصلاة)، وذلك بنص القانون.

وفي عام ١٧٩٣م سمح للمسلمين ببناء أول مسجد في جنوب إفريقيا بالكاب، ولأول مرة مارس المسلمون شعائرهم الدينية بصورة جماعية وعلنية. وفي عام ١٨٠٥م تم التصديق لأول مقبرة للمسلمين، وبطبيعة الحال أدى تنقُّل التجار الهنود إلى ليسوتو إلى انتشار الإسلام هناك.

سوء أوضاع المسلمين الصحية والاجتماعية:

ذكرت تقارير منظمة الأمم المتحدة للطفولة «اليونيسيف UNICEF» أنه من المسلَّم به أن وباء نقص المناعة البشرية المكتسب (الإيدز)، والفقر، والجفاف، تشكِّل جميعاً عوامل أساسية وراء الأزمة الحالية في ليسوتو، وقد ارتفع العدد المقدَّر للأشخاص المستضعفين الذين هم في حاجة إلى مساعدات غذائية طارئة ليشمل أكثر من نصف عدد السكان، لافتة النظر إلى أن معدل انتشار وباء الإيدز هو من بين أسوأ المعدلات في العالم.

كما تشير التقارير الرسمية إلى أن ليسوتو كانت بمثابة مزرعة جنوب إفريقيا للحصول على الغذاء، إلا أن جفاف ما يقرب من ثلث آبار البلاد، أدى إلى فقدان عدد كبير من العمال لعملهم، كما أن الأزمة المالية العالمية دمرت قطاع النسيج هناك، الذي كان يستوعب ٥٠ ألف شخص، وقد أدت كل هذه الظروف إلى انخفاض العمال بنسبة تصل إلى ٦٠٪.

إضافة إلى ذلك أوضحت منظمة الأغذية والزراعة (فاو) مؤخراً أنها تساعد ٣٦ ألف مزارع في ليسوتو؛ بهدف زيادة الإنتاج الزراعي في البلاد؛ حيث أدى ارتفاع أسعار البذور والأسمدة والأدوات الزراعية إلى الحد من قدرة المزارعين على إنتاج الغذاء.

كل هذه الأوضاع السيئة جعلت الشعب الليسوتوي يختار الانضمام إلى جنوب إفريقيا – التي احتلته من قَبْل – على البقاء تحت حكومة مستقلة؛ رغبة منه في تحسين أوضاعه ومكافحة مرض الإيدز المتفشي بقوة.

ولم يكن المسلمون بمنأى عن حالة الفقر التي تعاني منها ليسوتو؛ حيث يقول أحد المسؤولين في هيئة الشباب المسلم: «نعاني من ضعف الإمكانيات المادية بصورة واضحة، والتبرعات القليلة لدينا تذهب إلى بعض الأسر المحتاجة».

بيد أنه لم تسجل أية هيئة أو منظمة أيَّ اضطهاد أو تمييز تمارسه السلطات الحكومية ضد المسلمين؛ حيث ينص الدستور هناك على حرية العبادات وممارسة الشعائر الدينية.

ويقوم المركز الإسلامي في ليسوتو بالمهمة الرئيسية في تلبية احتياجات المسلمين الفقراء، لكنه يفتقر للدعم المادي من جانب المنظمات والمؤسسات الإسلامية الخيرية، فلديه كثير من المشروعات الخيرية التي لم تكتمل بعد لعدم توافر الموارد المالية. المثير للاستغراب أن نرى الأمير هاري حفيد الملكة إليزابث الثانية ملكة بريطانيا يزور ليسوتو مؤخراً، ويتبرع بملايين اليوروات من أجل بناء مدارس ومستشفيات جديدة للمسيحيين هناك، ولم نرى أياً من أثرياء المسلمين من يتبرع حتى بيورو واحد لرفع المعاناة عن كاهل المسلمين في البلد الأشد فقراً في القارة السمراء.

إن حاجة مسلمي ليسوتو إلى الدعم المادي والكتب الدينية باللغة الإنجليزية، وإقامة المساجد والمدارس الإسلامية، هي مسؤوليتنا جميعاً؛ سواء كنا أفراداً أو مؤسسات ومنظمات إسلامية، حتى يواجهوا الثالوث المدمر: «الجهل والفقر والمرض».

المراجع والمصادر:

- د. محمد عاشور مهدي، دليل الدول الإفريقية، جامعة القاهرة معهد البحوث الإفريقية، ٢٠٠٧م، ص٥٧١.
- مواقع: هدي الإسلام – المعرفة – أطلس الحضارة الإسلامية – الطريق – التاريخ – موقع سيد عبد المجيد بكر، والأقليات المسلمة في إفريقيا.

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

المَعْرُوف ...

محمد عبد الشَّافي القُوصي

مَـا عـرف الراحةَ يوماً، وما هَدَأَتْ نفسـه سَـاعَةً واحدةً منذ أَنْ خـرج من رَحِم الأحـزان، وتقاذفته صروف الزمان؛ فقد نَحَتَ الصخرَ بأظافره، وَمَشَـى على الشوك حافيَ القَدَمَيْن في سبيل مواصلة دراسته للطب.

في يوم ذي مَسْغَبَة طَافَ يميناً وشمالاً عساه أنْ يَجِدَ عملاً، فَلَمْ يجدْ!

فَتَسـلَّلَ إليه شـعور بالإحباط أكثر من ذي قبل، وَأَصَابَه من الهَمِّ والحزن ما أصابه؛ لِسَـطْوَةِ الدَّيْنِ وتراكمه، وشـبح الضَّيَاع الذي نَسَجَ خيوطه في طريقه.

فَقَرَّرَ أَنْ يقترض ما يكفيه للغد، فسـأل أحد زملائه فاعْتَذَرَ إليـه. وذهب إلى آخَر، فَعَلِمَ أنه سـافر إلـى أهله. فبلغ به اليأس مبلغـه لعجزه عـن تحقيق مطلب بسـيط كهـذا. فَتَحَامَلَ على نفسـه أكثر، وقام بمحاولـة أخيرة، فَتَوَجَّه إلـى صَدِيقٍ في قرية نائية، فَلَمَّا وَصَلَ إلى هناك لَمْ يجده!

فَضَاقَتْ نفسـه من نفسه، واسْتَبَدَّتْ به الحَيْرَة، وَأَحَسَّ بأنَّ الدنيا أَوْصَدَتْ أبوابها في وجهه؛ بعدما أعياه البحث عن ثمن وجبة عشـاء! فَتَمْتَـمَ يائسـاً: ليس هنـاك من خَيْرٍ يُرْتَجَى في هـذا الزمان! وراودته نفسه الأَمَّارَة بالانتحار ابتغاء الخلاص من غَلَبَة الدَّيْن وقهر الرِّجَال.

ظَـلَّ سـائراً بين الحقول الشاسـعة، يجوب الآفـاق بنظراته القَلِقَـة، فاقـداً الأمـل في إكمال دراسـته، بَـلْ كارهـاً البقاء في الدنيـا كلهـا! وبينمـا هو كذلك فإذا بـه يُبْصِر من بـين النَّخيل رَجُـلاً نحيلاً، تكاد قِرْبَة الماء التـي على كَتِفه تُرْدِيه على الأرض، فانْطَلَـقَ نحوه ليحملها عنـه. وما إنْ وَصَلَ إليه حتى تَهلَّلَ وجه الرجل بالسرور، فَرَحَّبَ به بشدة وَقَدَّمَ له في الحال طَبَقاً مملوءاً رُطَباً جَنِيّاً، فَأَكَلَ بنَهَم حتى شبع.

ثُـمَّ مَـا لَبِـثَ أَنْ قَصَّ عليه مَأْسَـاته، فَمَسَـحَ الرجلُ علـى كَتِفه برفـق، وقـال: اعلَـم أنَّ دوام الحـال من المحـال، ومـا دامَ رِزْقُكَ على الله فلا تَحْزَنْ، والأَجْرُ على قدر المَشَقَّة؛ فـ (إدريس) عَمِلَ خَيَّاطاً، و (نُـوح) نَجَّاراً، و (مُوسَـى) رَاعِياً، و (داود) حَـدَّاداً، و (مُحَمَّد) تَاجِراً، عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

ثُـمَّ اسـتدارَ الرَّجُلُ، وتناول جرعة مـاء، وَأَرْدَفَ قائلاً: تفاءل - يـا ولدي - ولا تَقْنَط أبـداً؛ فإنَّه عندما يَجِيء أَوَانُ الفَرَج، فلا قِيمَةَ للأسـباب؛ فقـدْ خَرَجَ (يهودا) بالقميص، فسـبقته الرياح بالبُشْـرَى ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُـفَ﴾ [يوسـف: ٩٤]، ومَرْيَم التي ﴿كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ كانت ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

تَسَلَّلَتْ هذه الكلمات إلى أُذُن الشاب كاللَّحْن العذب الجميل، فَظَلَّ يستمع ويستمتع بتلك الوصايا الغالية، حتى أَرْخَى اللَّيْلُ أَسْـدَالَه، وتَلأْلأَتْ نجوم السـماء، وَغَطَّتْ الحقولَ قطراتُ النَّدَى، فَتَمَنَّى أَلاَّ يُغادر المكان بعدما اسْـتَهْوَتْ مسامعُه الحِكَم الرفيعة، وَهَزَّتْ قلبَه المواعظ الجميلة.

وقبل أنْ يقوم من مقامه سـأل الشـيخ: هَـلْ تَمْتَلِك كل هذه الزروع والأشجار والنخيل؟

فابْتَسَـمَ الشـيخُ، وقـال: المُلْكُ لله وحـده، والمؤمن الحق مَنْ يَنْسِـب كل خيـر لله، كما قال ذو القَرْنَيْن: ﴿قَالَ مَـا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]، وكما قال سُـلَيْمَان - عليه السـلام -: ﴿فَمَا

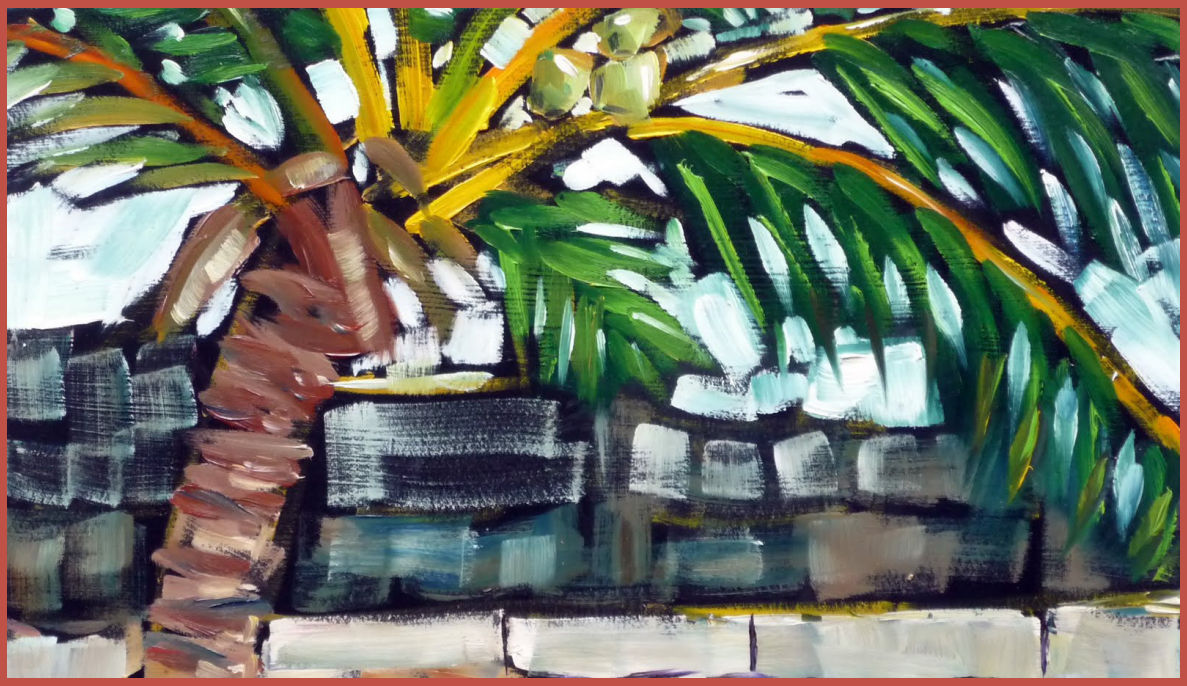

آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ﴾ [النمل: ٣٦].

ثمَّ أَرْدَفَ قائلاً: لا أخفي عليكَ سراً؛ أنَّني لَمْ يكن لَدَيَّ سوى نخلة واحدة، فكنتُ أَتَصَدَّقُ بنصف طَلْعِهَا، فرزقني الله هذا الرزق الكبير، فَزِدْتُ في الصدقة، فزادني أضعافاً مضاعفة. ففي النَّاموس الإلهي ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

سأله مرةً أخرى: كيف تسمح لَكَ صحتكَ بصعود النخيل وأنْتَ في شيخوختك هذه؟

أَجَلْ! حفظناها في الصِّغَر، فَحَفِظَها الله لنا في الكِبَر.

تَعَجَّبَ الشاب من يقين الشيخ، كَتَعَجُّب مُوسَى - عليه السلام - من الخضر! فَزَالَ عنه القنوطُ الذي كان يغشاه، وَتَبَخَّرَ اليأسُ الذي كاد يقتله. ثمَّ قال وهو يَهِمُّ بالرحيل: لَوْ ضاقت بيَ السبل، هَلْ تأذن لي أَنْ أُقيمَ في خيمتكَ الصغيرة؟

الشيخ: لا مانع مَا دُمْتَ تؤمن بأنه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

ازداد تَعَجُّبه من إيمان الشيخ ويقينه! فتنزَّلَتْ عليه السكينة، وغشيته الرحمة، ثمَّ وَدَّعَه قائلاً: أَشْكُرك يا سَيِّدي على كرمك، وعسى أَنْ نلتقي.

أنا خادمك (رشاد فؤاد) طالب بكلية الطب.

فقال: لا شُكْرَ على واجب يا بُنَيَّ! جَعَلَكَ الله عَوناً لعباده، وَسِلْماً لأوليائه.

مَرَّتْ الأعوامُ سِرَاعاً، وأصبح طالب الطب أحدَ الجَرَّاحين الذين يُشَارُ إليهم بالبَنَان.

وفي إحدى الليالي، تَمَّ استدعاؤه فوراً إلى (المستشفى الجامعي) لوصول حَالَةٍ حَرِجَةٍ للغاية، اعتذرَ عنها (المستشفى الدولي) لأنَّها ميئوسٌ منها، كما رَفَضَ استقبالها (المستشفى الاستثماري) بِحُجَّة أنها حالة شبه ميتة!

وبمجرد أَنْ اطَّلَعَ الدكتور على اسم المريض واسم القرية التي ينتمي إليها تَذَكَّرَه على الفور! فقرَّرَ أنْ يفعلَ ما في وسْعِه لعلاجه.

وبالفعل، فَلَمْ تمضِ ساعاتٌ قلائل حتى نَجَحَ في علاجه بمهارة فائقة، مُخَيِّباً ظن الآخرين الذين توقعوا خلاف ذلك.

ثمَّ مَا لَبِثَ أَنْ اشترى له الدواء اللازم، وكتب عليه:

هذه هديتي إليك؛ لأنه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾. [النمل: ٨٩]

التوقيع: خادمكَ القديم (رشاد فؤاد) طالب كلية الطب.

في تلك الأثناء، كانت الظنون تحيط بالرجل من كل جانب؛ إذْ تَوَقَّعَ أنه سيبيع أرضه، بَلْ سيقضي حياته كلها ليُسَدِّدَ أجر العملية الجراحية! فَلَمَّا قرأ الورقة المرفقة بالدواء غمرته البهجة، وراح يَضُمُّها بشوقٍ وَيُقَبِّلها؛ كأنَّها قَمِيصُ يوسفَ في أجفانِ يعقوب! فَتَدَفَّقَتْ دموع الفرح من عينيه، ورفع يَدَيْه إلى السماء قائلاً بصوتٍ خاشع: سبحانك! سبحانك! إذا كان المعروفُ لا يَضِيعُ في الدنيا، فكيفَ يَضِيعُ في الآخرة؟

آمَنْتُ آمَنْتُ أَنَّه ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩].

«كارثة» إستراتيجية للكيان الصهيوني

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

وضع تقرير إستراتيجي صهيوني إصبعه على ثلاثة عوامل هامة وحاسمة ستؤدي في حال تضافرها إلى حالة من الفراغ الخطير في منطقة وإقليم الشرق الأوسط، وستترك آثارها الخطيرة على «إسرائيل»، وهي: (الحَراك العربي، وانهيار عملية السلام، والضعف الكبير الذي أصاب مكانة وقوة تأثير الولايات المتحدة الأمريكية)، متوقعاً كارثة لـ «إسرائيل» في حال تشابكت هذه العوامل.

وانتقد التقرير حكومة «إسرائيل» لغياب مفهوم إستراتيجي يقوم على تهدئة بؤر التوتر التي فاقمت التحديات التي تواجهها، مقابل تصعيد دبلوماسي فلسطيني يحظى بتأييد ودعم كبيرين، ويزيد من عزلتها وانعزالها، وتواصُل حملة نزع الشرعية التي تؤدي لإضعاف دورها السياسي، والحد من حرية العمل الميداني المتوفرة للجيش.

كما أن الضعف الذي اعترى الولايات المتحدة، والعلاقات المتوترة القائمة بين إدارة أوباما وحكومة نتنياهو أفقدت «إسرائيل» مكوّناً هاماً من مكونات قوّتها الردعية، وهو ما سمح لأطراف أخرى محاولة لعب دور في الشرق الأوسط لا يخدم مصالحها.

وفي ما يتعلق بالعالم العربي، فإن العرب سينشغلون خلال السنوات القادمة بأنفسهم ومشاكلهم الخاصة ولن يتفرغوا لـ «سرائيل»، محذراً من أنها قد تجد نفسها عنواناً للغضب العربي في حال تصاعدت الأوضاع في قطاع غزة وتفجرت أعمال عنف في الضفة الغربية، وهو ما يعني أنها تعاني وضعاً صعباً على كافة الجبهات.

التشاؤم والخوف:

وقال التقرير: إن حالة الأمن القومي الصهيوني تشير إلى تدهور حادٍّ إضافي، وهو ما سيترك آثاره على الوضع الإستراتيجي لـ «إسرائيل»، وهو ما يجعله التقرير الأكثر إخافة وتشاؤماً؛ لأنه رسم صورة تشير إلى فقدان ركائز مهمة في نظرية الأمن الصهيونية التي قامت لسنوات طويلة على وجود حلفاء إقليميين على درجة عالية من الأهمية الإستراتيجية كتركيا ومصر، إضافة للأوضاع غير المستقرة في سورية (الدولة صاحبة المطالبة التاريخية بهضبة الجولان)، ويرى أن تحسين العلاقات الصهيونية مع روسيا ودول في أمريكا اللاتينية أو الصين، لن يعوض «إسرائيل» عما ستخسر إذا ساءت علاقتها مع الولايات المتحدة.

من جهة أخرى قال المحلل العسكري «رون بن يشاي»: إن التقرير يُلزِم «إسرائيل» بدراسة خطواتها بكل حذر وجدية؛ خاصة في ما يتعلق بالتعامل مع السلطة الفلسطينية إذا أرادت أن

(*) كاتب فلسطيني.

تَعْبُر مرحلة عدم الاستقرار الخطرة التي نتجت عن فعاليات الحَراك العربي وما قد يحمله من تبعات متوقعة: كعملية فدائية قادمة من سيناء أو غزة أو لبنان، مع ضرورة الحفاظ على قوة الردع التي منحتها فترة طويلة من الهدوء، ووفرت عليها كثيراً من الخسائر الاقتصادية.

لذا يجب عليها أن تعرف بالضبط متى عليها العمل بانضباط وتوازن حتى لا تشعل الشارع الإسلامي الذي يعيش حالة من الغليان، وكذلك معرفة متى وأين لا يوجد لها خيار سوى العمل بكل حسم وقوة لإحباط خطر كبير قد يتبلور، أو أخذ بالتبلور ضدها.

وأضاف: هناك نتيجة ثانية يجب استخلاصها من التقرير، والعمل بموجبها لضمان عبور «إسرائيل» الربيعَ العربي بهدوء، وهي ضرورة الحفاظ على استقرار السلطة بقيادة أبي مازن، رغم أنه خصم سياسي قاسٍ ورافضٌ منتظمٌ للمفاوضات، لكن البديل أسوأ.

لكن الخبير الأمني «د. رونين بيرغمان» رأى في التقرير الصورة الأكثر قتامة وتهديداً، ويوجه انتقاداً للحكومة وأذرعها التنفيذية، مع خلاصة قاطعة لا لَبْس فيها، وهي: أن الحكومة تحتاج للبتِّ بين الانتظار وعدم الحسم وعدم المبادرة، وبين السعي للتأثير في محيطها الإستراتيجي، صحيح أن مبادرتها لمصالحة لن تحل كل مصادر الصراع، لكنَّ إجراءً محدداً نحو تسوية قد يُفتِّر من شدة هذه التحديات، ويحسِّن مكانتها التي أخذت تضعف، والتقرير يوجه دعوة للحكومة، ويطلب منها أن تفعل فعلاً.

الطريق المسدود:

إن التقرير الذي أعده معهد أبحاث الأمن القومي، والذي حرره «د. عنات كورتس» وعميد الاحتياط «شلومو بروم»، يتنبأ بأن «إسرائيل» في السنين القريبة ستجابه الحاجة لاتخاذ قرارات في شؤون الأمن القومي المركزية، في واقع سيكون تركيبه أكبر كثيراً؛ لأنها ستكون المتضررة المباشرة لمحاولة تعليق جميع المشكلات في مشجب عدو خارجي، وكل هذا يحدث في واقع تضعف فيه القوة العظمى (الولايات المتحدة الأمريكية) ولا توجد أية جهة خارجية تستطيع مساعدة دول المنطقة على التغلُّب على الأزمة (الاجتماعية – الاقتصادية) الشديدة، وفي ظل قناعات تشير إلى أن سياسة «إسرائيل» الرافضة مسؤولة بقدر حاسم عن الطريق المسدود.

لكن رئيس المعهد «د. عوديد عيران» يرى أن التقرير سجل في السنتين الأخيرتين في العلاقات بين «إسرائيل» والفلسطينيين تدهوراً شديداً قياساً لتمهيد الطريق مطلع التسعينيات من القرن الماضي، ولا يمكن أن يتم اليوم حوار مباشر بسبب عدم الثقة المتبادل العميق؛ لأن رؤية العلاقات بأنها «لعبة حاصلها صفر» عادت لتهيمن على كل شيء، في حين أن القصد عند الطرفين أن يمنع كل واحد منهما الطرف الثاني الأرباحَ، حتى لو سبب لهم ذلك ضرراً في نهاية الأمر.

بينما قالت «كورتس»: إنه حتى لو كانت توجد قيمة عسكرية للعمق الإستراتيجي؛ ففي الواقع الجغرافي لـ «إسرائيل» تبلغ الصواريخ التي تطلقها حماس كلَّ هدف فيها تقريباً، وهو ما يعني أن تحديها المركزي هو تثبيت مكانها في المنطقة التي هي في أساسها عربية ومسلمة، مع الحفاظ على مساعدة الجماعة الدولية لها.

الخطر المستقبلي:

وقد أفرد التقرير فصلاً عن نزع الشرعية عن «إسرائيل»، ووصل إلى استنتاج نهائي بائس من خلال عرضه على أنها دولة تُخِل على الدوام بالقانون الدولي وحقوق الإنسان، وتستعمل الفصل العنصري، وتتحمل تبعة جرائم حرب بصورة واسعة وجرائم ضد الإنسانية، وهدف الحملة الدعائية أن تصبح دولة مُقصَاة، وهو ما يفضي لعزلتها المطلَقَة في مجالات الدبلوماسية والاقتصاد والثقافة والأكاديمية والفن.

وعلى هامش التقرير حذَّر وزير الحرب «إيهود باراك» من التداعيات الخطيرة التي تترتب على التغييرات الحقيقية التي خرجت بها ثورات الربيع العربي، بما فيها تعاظم قوة التيارات الإسلامية في المنطقة العربية قائلاً: الحراك العربي أسقط أنظمة مستبدة، ويفتح الباب أمام تحقيق تطلعات شعوب المنطقة، لكنه في الوقت نفسه يفتح الباب واسعاً لدخول جهات إسلامية في عالم القوة السياسية وميادين مختلفة، زاعماً أن تعاظم قوة التيارات الإسلامية يجسِّد «خطراً مستقبلياً ومحورياً على استقرار المنطقة بأكملها».

كما حذَّر رئيس هيئة أركان الجيش «بيني غانتس» من التهديدات التي أوجدها الربيع العربي على «إسرائيل» قائلاً: «إن التحولات في الشرق الأوسط تُعيد رسم خطوط التهديدات ضد «إسرائيل» من جديد، علاوة على المحاولات المستمرة من قِبَل المنظمات المعادية للإضرار بها وبمواطنيها، وهو ما يحتم عليها وعلى جيشها إنشاء الاستعدادات والقدرات».

تعليم العربية لغير الناطقين بها

الأبعاد السياسية والشرعية

د. أحمد محمود السيد(*)

تحتل اللغة العربية الآن الموقعَ الثالثَ في لغات العالم من حيث عددُ الدول التي تُقرُّها لغةً رسميةً، والسادسَ من حيث عددُ المتكلمين بها، والثامنَ من حيث متغيرُ الدخل القومي في العامل الاقتصادي، وهي متأرجحة من حيث المنزلةُ في العوامل الأربعة الأخرى: (الثقافي، واللساني، والاقتصادي، والعسكري). ففي جانب النشر الإجمالي من العامل الثقافي، تحتل عالمياً المرتبة ٢٢ و ٤٢ في النشر العلمي خاصة، وهي إحدى اللغات الست الرسمية في أكبر محفل دولي (منظمة الأمم المتحدة)، وتهيمن على جزء من الإعلام العربي، ولها حضور في النظام التعليمي، وحضور أقل في النظام الإداري والتنظيمي. وبذلك فهي إحدى اللغات الإحدى عشرة الأكثر انتشاراً في العالم[1]، كما أنها من الثماني من بين هذه اللغات الإحدى عشرة، التي تكاد تقتسم المعمورة في ما بينها، وتحتفظ كلٌّ منها لنفسها بقاعدة جغرافية راسخة: (الماندرين في آسيا الوسطى، والإسبانية والبرتغالية في أمريكا الجنوبية، الإنجليزية في أمريكا الشمالية، والعربية في شمال إفريقيا والشرق الأدنى، والهندية والبنغالية في أغلب القارة الهندية، والروسية في أوروبا الشرقية)، كما أنها من بين اللغات الست التي يَعرِف الناطقون بها تزايداً ديموغرافياً أكثر من غيرها، وهي حسب الترتيب: (الإسبانية والبرتغالية والعربية والهندية والسواحلية والماليزية).

وأكدت الإحصائيات والأرقام أن اللغة العربية في مجال الاستخدام بالشبكة العنكبوتية الدولية (الإنترنت) تحتل المركز السابع بين أكثر عشر لغات استخداماً بنسبة ٦٠٪، وتصنِّف محركات البحث (غوغل، ومايكرو سوفت) اللغة العربية في أوائل اللغات العشر التي تستدعي الاهتمام والأولوية؛ فقد أعرب (ستيف بالمر) المدير التنفيذي لشركة غوغل عن اعتقاده بأن اللغة العربية ستصبح بشكل متزايد لغة ذات أهمية كبيرة على شبكة الإنترنت في العشر سنوات القادمة من (٢٠١٠ – ٢٠٢٠م).

أما بالنسبة للتزايد العالمي من أجل تعلُّم العربية، فقد ارتفعت نِسَبه بشكل غير مسبوق بين الجامعات الأمريكية والأوروبية، وفي الهيئات والمؤسسات السياسية والاقتصادية والعلمية المختلفة بدول آسيا كالصين والهند وروسيا وقارة إفريقيا وقارة أمريكا الجنوبية؛ فحسب إحصاء لجمعية اللغة الحديثة في أمريكا فقد زاد عدد دارسي اللغة العربية هناك بنسبة ١٢٦٪ في حين زادت نسبة دارسي الإسبانية ١٠٪ والفرنسية ٢٪ فقط. بين عامي ٢٠٠٩م و ٢٠١٠م، وفي هذا الصدد يقول ديفيد إدواردز (المدير التنفيذي للمجلس القومي للغات والدراسات الدولية): إن تعلم اللغة اليابانية سوف يجعلك تجد عملاً، ولكن إذا كنت مهتماً بعمل حكومي أو دولي وتتحدث

---

* باحث في العلوم اللغوية، ومدير وحدة بحوث العالم الإسلامي بالمركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة.

(١) حسب ترتيب عدد المتكلمين بها: الصينية، الإنجليزية، الأسبانية، العربية، الهندية، الروسية، البرتغالية، البنغالية، الألمانية، اليابانية، الفرنسية.

العربية ستكون نجماً بلا شك.

يفسر الخبراء أسباب الإقبال الدولي المتزايد على تعلم العربية بعدة عوامل (سياسية واقتصادية وفكرية وعسكرية ودينية)، فقد بدأ الاهتمام الغربي (الأمريكي والأوروبي) بذلك منذ سقوط الاتحاد السوفييتي واعتماد حلف الأطلنطي (الناتو) الإسلامَ عدواً بديلاً، ثم ما أعقب ذلك من إحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وما تلاها من أحداث الغزو واحتلال أفغانستان والعراق ثم جاءت مرحلة العولمة الاقتصادية التي أوجبت ضرورة الإحاطة باللغة العربية على مستوى الدول الغربية وكذلك الدول الكبيرة في آسيا، مثل الصين التي تفوقت اقتصادياً وأغرقت العالم العربي والإسلامي ببضائعها ونجحت في الاستحواذ على أكثر من ٦٠٪ من استثماراتها، وقد صاحب هذا النجاح إقبالاً كبيراً من الصينيين لتعلُّم العربية وإجادتها بفصحاها وعاميتها المختلفة. أما في الناحية الدينية فقد برزت حركة التبشير الصليبية الغربية التي كثفت هجماتها على العالم العربي والإسلامي اعتماداً على تعلُّم العربية وإجادتها، ثم ازداد الطلب على تعلُّم لغة القرآن بعد الصحوة الإسلامية التي بدأت في الثمانينيات؛ وخاصة في الدول غير الناطقة بالعربية مثل (تركيا، وإيران، وإندونيسيا، وماليزيا... إلخ)، وقد صاحبت الهجمةَ العسكرية الغربية على العالم العربي والإسلامي هجمةٌ فكريةٌ حاولت فيها بث فكر الحداثة وما بعد الحداثة، وتغيير الإسلام وتطويعه ليكون إسلاماً علمانياً حداثياً يتوافق مع مبادئه ومصالحه.

سجلت الإحصائيات العالمية إقبالاً متزايداً على القراءة عن الإسلام، وكذلك إقبالاً كبيراً على الدخول في الإسلام من قِبَل الغربيين بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وغزو أفغانستان والعراق، وهو ما كان له أكبر الأثر في الطلب المتزايد لتعلُّم العربية لفهم القرآن والسنة وعلوم الدين.

إلا أن مسألة تعليم العربية لهؤلاء قد داخلها إشكاليات كبيرة؛ وذلك لعدم وجود خطة إستراتيجية موحدة لا دارة تلك البرامج وتوجيهها والاستفادة منها بدلاً من الاستسلام للاختراق الغربي الذي دخل طالباً التعلُّم وخرج تاركاً السموم الفكرية والعقائدية، التي يحملها عبر هذه المنظومة التعليمية. في هذا الإطار يجب أن يضع القائمون على الأمر خطة موحدة لمراكز وهيئات تعليم العربية لغير الناطقين بها من خلال ثلاث منظومات:

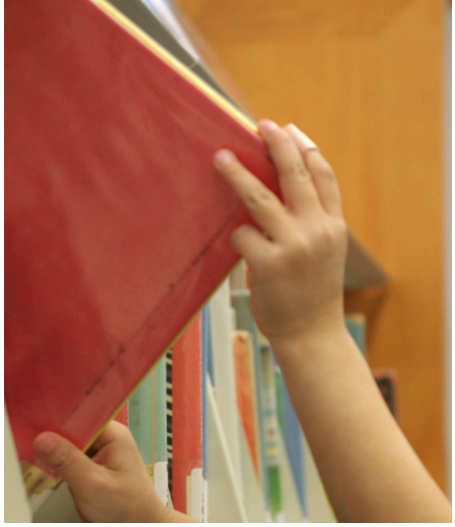

الأولى: المنظومة التعليمية:

وتشمل العناصر الآتية:

• تحديد المناهج التعليمية حسب الهدف من الدراسة: فإن كان الهدف إعداد مدرسين للعربية في الدول التابعين لها فهذا مستوى، أو إعداد صحفيين أو إعلاميين فهذا مستوى، وإن كان الهدف تعلُّم علوم الدين الإسلامي فهذا مستوى ثالث.

• اختيار نوع الفصحى تبعاً للمستوى الذي يطلبه المتعلم، ومن ثَمَّ يكون البرنامج التعليمي بالكامل من هذا المستوى (فصحى التراث – فصحى الصحافة – فصحى البحوث العلمية)... إلخ.

• استخدام علم اللغة التقابلي لتحليل الأخطاء والصعوبات المتوقَّعة؛ وذلك من خلال المقارنة بين لغة المتعلم واللغة العربية؛ فيتم المقارنة بين حروف العربية وحروف اللغات المقابلة والبحث عن مواضع الصعوبة النطقية والكتابية وغيرها من السبل التي يوفرها هذا العلم.

• عرض النحو في هذه المناهج بطريقة تختلف عن النحو المقدَّم للناطقين بها، من حيث السهولةُ والاختصارُ وتعلمُ تلك القواعد عبر نصوص وقصص وقطع للفهم دون تخصيص كتاب للقواعد النحوية منفرداً.

النظر في جدوى التجارب التي تقوم بها جامعات أو مراكز عربية وإسلامية، مثل تجربة جامعة الأزهر – التي تنوي البدء فيها – الخاصة بإعداد جامعة للوافدين من غير الناطقين بالعربية لتدريس العربية وعلوم الدين الإسلامي بأسلوب ولغة سهلة باعتبارها لغة ثانية لهم. مع ضرورة إدراك أن جامعات الغرب مثلاً لا تفعل هذا في ما يخص تعلُّم لغتهم ليستفيد المتعلم من الدراسة في بيئة اللغة ومحضنها الثقافي.

الثانية: المنظومة العقائدية:

وتشمل العناصر الآتية:

• إعداد مناهج تعليم العربية التي يخرج منها الطالب وهو على فهم لمبادئ الإسلام وأركانه، ويكون هذا المنهج على مستويين: الأول: مستوى موجه لغير المسلمين، والثاني: موجه للمسلمين.

• مراقبة الهيئات والمراكز التي تقوم بتعليم العربية للأجانب ومراجعة مناهجها خوفاً من تسلل من يبشِّرون بالنصرانية أو مَنْ يشوهون الإسلام عن طريق استخدام هذه المناهج.

إحياء مشروع كتابة اللغات الإفريقية بالحرف العربي (القرآني) الذي بدأته منظمة الإيسيسكو (المنظمة الإسلامية للثقافة والعلوم) ولم تكمله. سيساعد هذا المشروع على سهولة تعلُّم العربية وسهولة تقبُّل ألفاظها وتعبيراتها. وقد استخدم المشروع لفظ القرآني بدلاً من العربي خوفاً من التمييز العرقي بين القبائل في أفريقيا.

الثالثة: المنظومة الفكرية:

وتشمل العناصر الآتية:

• بالنسبة لمواجهة الطلب المتزايد على تعلم العاميات المحلية، فإننا نقترح ألا نضع قواعد نحوية وصرفية وأسلوبية للعاميات؛ ولكن ندعو المتعلم لدراستها سماعياً وشفهياً دون تحديد لقواعد، ودون إعداد كتب مقابلة للفصحى.

• التعرض للمذاهب الفكرية المختلفة عبر العملية التعليمية ومحاولة نقدها وتقييمها إسلامياً، وتدريب الطالب على ذلك باعتبارها من الأنشطة اللغوية التدريبية.

• وضع نصوص تعليمية عن الأحداث الجارية، تنتقد الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان، وتنتقد التحيز الغربي ضد الإسلام، وتعرض لسماحة الدين الإسلامي ورفضه للعدوان والقتل العشوائي، وتؤيد مقاومة الاحتلال والدفاع عن الدين والوطن والعرض.

• تأسيس رابطة لمدرسي اللغة العربية للناطقين بغيرها وأخرى إلكترونية للأساتذة المهتمين بهذا الميدان يكون هدفها توحيد الخط الفكري في العملية التعليمية، وهو ما يعود أثره على الدعوة الإسلامية والأمة الإسلامية عقائدياً وسياسياً واقتصادياً.

• إنشاء مجلة علمية دولية محكمة، تختص بقضايا تعليم العربية للناطقين بغيرها، والتواصل مع المستشرقين وأساتذة اللغات الأخرى للبحث في تذليل الصعوبات الخاصة بكل لغة يطلب أبناؤها تعلم العربية.

أهم المصادر والمراجع:

اعتمدتُ على مجموعة المصادر الآتية:

- د. حمزة بن قبلان المزيني، مكانة اللغة العربية في الدراسات المعاصرة، بحث في شبكة الألوكة واللغة (ألف لام).
- د. محمد عبد الحي: اللغة العربية والعولمة الثقافية، مجلة التعليم، المعهد التربوي الوطني بنواكشوط العدد ٣٤ السنة ٢٨/ ٢٠٠٣م.
- د. عبد الحكيم العبد، العربية للأجانب (محاور ودروس وببلوغرافيا)، مركز اللغات والترجمة، القاهرة، أكاديمية الفنون، ٢٠٠٦م، ١٤٢٧هـ.
- د. محمود إسماعيل صيني، التقابل اللغوي وتحليل الأخطاء، الرياض، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م.
- د. عبده الراجحي، تعليم العربية للأجانب وإسهامه في تطوير بحث الفصحى، بحث بمؤتمر تعليم العربية لغير الناطقين بها، الكويت، ١٩٨٥م، مكتبة مركز تعليم العربية للأجانب جامعة الإسكندرية.
- (النحو) في تعليم العربية لغير الناطقين بها، بحث مقدَّم لمؤتمر تعليم العربية، ماليزيا، ١٩٩٠م، مكتبة مركز تعليم العربية للأجانب جامعة الإسكندرية.
- الإحصائيات من موقع الاتحاد الدولي للاتصالات وموقع إحصائيات مستخدمي الإنترنت.
- د. رشدي أحمد طعيمة، تعلم العربية لغير الناطقين بها، مناهجه وأساليبه، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الإيسيسكو، الرباط، ١٩٨٩م.
- د. خالد حسين أبو عمشة، تقرير عن المؤتمر الدولي الأول لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، المنعقد بمركز اللغات بالجامعة الأردنية عمان – الأردن في الفترة من ١ - ٢ جمادى الأولى ١٤٢٩هـ الموافق ٦ - ٨ مايو ٢٠٠٨م.
- د. محمود على السمان، التوجيه في تدريس اللغة العربية، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٣م.
- د. رشدي أحمد طعيمة، الأسس الثقافية والمعجمية لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، جامعة أم القرى، معهد اللغة العربية، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

الآن..

" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الإسلام بين (الإصلاح) و(الثورة)...

محاولة لضبط المفاهيم

السنوسي محمد السنوسي(*)

جاء (ربيع الثورات العربية) بأحداثه المتتابعة ليطرح كثيراً من النقاشات والآراء حول قضايا فكرية وسياسة ترتبط بمفهوم التغيير وشرعيته ومنهجه وأهدافه.

وفي مقدمة تلك القضايا، كان الحديث حول علاقة الإسلام بمفهوم (الثورة)، ومدى أصالة هذا المصطلح في الفكر الإسلامي، وهل عدم انتشاره في الفكر الإسلامي يعني أن الإسلام يرضى بالخنوع والظلم؟

ابتداءً أحب أن أؤكد على أن ثمة فرقاً بين المفهوم اللغوي لـ (الثورة) والمفهوم الاصطلاحي المعاصر لها؛ لأن المفهوم اللغوي هو - بلا شك - مفهوم أصيل في لغتنا العربية، وقد ورد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية، كما تم تداوله في تراثنا الإسلامي.

لكن مفهوم (الثورة) في العصر الحديث كما هو ثابت في العلوم الاجتماعية والسياسية المعاصرة، هو أمر لم يُعرَف في تراثنا الفكري والسياسي لأسباب سأشير إلى بعضها لاحقاً.

لقد جرى استخدام عدة مصطلحات في ثقافتنا الإسلامية للدلالة على معانٍ مشتركة في ما بينها من جهة ومشتركة بصورة مًا مع مفهوم (الثورة) في العصر الحديث من جهة أخرى؛ فتم استخدام مصطلحات (التغيير) (الإصلاح) (التجديد) (التعمير).

لكن المصطلح الذي وُصِف به الغرض من رسالات الرسل هو (الإصلاح). ولذلك اخترت أن أقابل بينه وبين مصطلح (الثورة).

(*) باحث وصحفي.

مفهوم (الإصلاح):

جاء في المعجم الوسيط: (صلَحَ يصلُح صَلاَحاً وصُلُوحاً: زال عنه الفساد، وصلح الشيءُ: كان نافعاً أو مناسباً. وأصلحَ في عمله أو أمره: أتى بما هو صالح نافع، وأصلحَ الشيءَ: أزال فسادَه)[1].

وقد وردت مادة (ص ل ح) في القرآن الكريم بتصاريف متعددة، منها قوله - تعالى - على لسان نبي الله شعيب مخاطباً قومَه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله - تعالى -: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله - تعالى -: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ﴿إِنَّ اللّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

مفهوم (الثورة):

جاء في (لسان العرب): (ثار الشيء ثَوْراً وثؤوراً وثواراناً وتثوَّر: هاج، والثائر: الغضبان، ويقال للغضبان أهيج ما يكون: قد ثار ثائرة وفار فائرة، إذا غضب وهاج غضبه. وثار إليه: وثب. ويقال: انتظر حتى تسكن الثورة وهي الهيج، وثار الدخان والغبار وغيرهما: ظهر وسطع)[2].

وجاء في (المصباح المنير): (ثار الغبار: هاج، ومنه قيل للفتنة: ثارت وأثارها العدو، وثار الغضب: احتد، وثار إلى الشر: نهض، وأثاروا الأرض: عمروها بالفلاحة والزراعة)[3].

وجاء في (المعجم الوسيط): (ثارَ يثُور ثَوَرَاناً وثَوْراً وثَوْرةً: هاجَ وانتشر. وأثارَه إثارةً وإثاراً: هيَّجه ونشرَه، وفي التنزيل العزيز: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ۝ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ [العاديات: ٣ - ٤]، وأثارَ الأرضَ: حرثها للزراعة، وفي التنزيل العزيز: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

ويقال: أثارَ الأمرَ: بحثَه واستقصاه. وفي الأثر: «أثيروا القرآن؛ فإن فيه خيرَ الأولين والآخرين»[4].

أما (المعجم الفلسفي) لمجمع اللغة العربية بالقاهرة فعرَّف (الثورة) بأنها: (نقطة تحوُّل في حياة المجتمع لقلب النظام البالي وإحلال نظام تقدمي جديد محلَّه، وهي بهذا تتميز من الانقلاب الذي يتلخص في نقل السلطة من يد لأخرى)[5].

وفي (المعجم الفلسفي) لجميل صليبا جاء: (الثورة تغيير جوهري في أوضاع المجتمع لا تتبع فيه طرق دستورية.. والثورة مقابلة للتطور: فهي سريعة وهو بطيء، وهي تحوُّل مفاجئ وهو تبدُّل تدريجي)[6].

ونحن نلاحظ من خلال هذه التعريفات لمفهومي (الإصلاح) و (الثورة) أمرين مهمين:

الأول: أن مفهوم (الإصلاح) يفيد زوالَ الفساد والتحوُّلَ للأفضل، ويشير إلى معنى التدرُّج في التغيير؛ بينما مفهوم الثورة يرتبط بالهياج والانتشار والفجائية والتغيير الجذري. كما أن (الإصلاح) في المفهوم الإسلامي يبدأ متصاعداً بالفرد ومن داخل النفس، لينتهي بالمجتمع والدولة: ﴿إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. بينما مفهوم (الثورة) يتجه إلى تغيير النظام السياسي.

الثاني: أن (رسالات الرسل وصفت بأنها (إصلاح) مع أنها كانت التغيير الأشمل والأعمق للواقع والفكر الذي بُعثوا فيه)[7]، فقد كانت تغييراً جذريّاً على مستوى العقيدة والأخلاق والمفاهيم، ومع ذلك لم توصف بأنها (ثورة)، كما جاء على لسان سيدنا شعيب: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]؛ لأن هذه الدعوات على الرغم من أنها حملت تغييراً جذريّاً إلا أنها اتسمت بالتدرُّج والهدوء والمرحلية والسِّلْمية، وهي المعاني التي لا يعرفها المعنى اللغوي للثورة فضلاً عن المعنى المعاصر لها في العلوم الغربية.

فقد ارتبط مفهوم الثورة - خاصة في القرن العشرين - بالصراعات الدموية وأعمال العنف التي حصدت مئات الأرواح في سادية غريبة على نوع بني البشر، كما أن الفكر الماركسي - خاصة - يعتمد (العنفَ) و (التحولَ الدمويَّ) وسيلةً وحيدةً للثورة والانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، ويرفض قيام الثورة من خلال الوسائل السلمية.

(١) ص: ٥٢٠، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
(٢) ابن منظور، ٤/ ١٠٩، دار المعارف.
(٣) المصباح المنير للفيومي، ص: ١٢١، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط٥، ١٩٢٢م.
(٤) ص: ١٠٢، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
(٥) ص: ٥٨، ط مجمع اللغة العربية، ١٩٨٣م.
(٦) جـ١ ص ٣٨١، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م.
(٧) مقال: (الثورة) د. محمد عمارة، مجلة (التبيان)، عدد ٨٢، ص: ١٧.

فالاشـــتراكية تؤكد - حســـب نظريتها فـــي (الصراع الطبقـــي) - أن تناقض مصالح الرأســـمالية والبروليتاريا (الطبقة العاملة) يحتم الصراع بينهما، ويحتم أن تتمســـك الرأســـمالية بوضعها وامتيازاتها فوق البروليتاريا، فلا تجد البروليتاريا مخرجاً - مع نموها الكمي والكيفي ومع تعاظم قوَّتها وبلوغ شـــعورها بالصراع الطبقي ذروته - إلا بالثورة الدموية التي تحطِّم بها أغلالها.

فيقـــول مفكرهـــم (ماو) فـــي كتابـــه (قضايا الحرب والإستراتيجية): (على كل شيوعي أن يدرك هذه الحقيقة: من فوهة البندقية تنبع الســـلطة السياسية)، كما يقول في الكتاب نفســـه: (وبهذا المعنى يمكننا أن نقول: إنه لا يمكن إصلاح العالم كله إلا بالبنادق)[1].

وبدوره يؤكد (لينين) حتمية التحـــول الدموي، فيقول: (إن ديكتاتورية البروليتاريا تفترض اللجوء إلى عنف صارم لا هوادة فيه، ســـريع وحازم؛ بُغْية سحق مقاومة المستثمرين الرأسماليين والملاكين العقاريين وأذنابهم. ومن لم يفهم هذا، فليـــس بثوري وينبغي طردُه من مركزه كقائد أو كمستشـــار للبروليتاريا)[2].

(١) نقلاً عن (تجربتي مع الماركسية) د. طارق حجي، ط١، ١٩٨٣.
(٢) نقلاً عن: (أزمة الحرية في عالمنا) لخالد محمد خالد، ص: ١٩١، ط١، ١٩٦٤م.

تميُّز المنهج الإسلامي:

ينبغي أن يكون واضحاً في أذهاننا عند مقارنة المفاهيم الإسلامية بغيرها، أن المنهج الإسلامي منهج متميـــز ومتفرِّد عن غيره من المناهج والفلســـفات، لكنه قد يلتقي مع بعضها فـــي تقرير بعض المبادئ والأهداف؛ ومـــع ذلك فلا يجـــوز أن نصف المنهج الإسلامي ونعرِّفه بغيره من المناهج.

فمثلاً لا يجوز أن نقول: (الرأسمالية الإسلامية) لمجرد أن الإســـلام يقرر حق الملكية الفردية. ولا أن نقول: (الاشـــتراكية الإســـلامية) لمجرد أن الإسلام يدعـــو إلى العدالة الاجتماعيـــة وتقليل (لا انعدام) الفجوات بين الطبقـــات الاجتماعية. ولا أن نصف المنهج الإســـلامي في الإصـــلاح والتغيير بـ (المنهج الثوري). كما تصف بعض الكتابات الآن - بعد نجاح ثورتَي (تونـــس ومصر) - القرآنَ الكريم بأنه (دعوة ثورية)، أو (ثورة سياسية) أو (ثورة تشريعية)!

أقول: لا يجوز ذلك؛ لأن وصف الإسلام وإلحاقه بغيره من المناهج (الرأســـمالية أو الاشـــتراكية أو الثوريـــة) يقتضـــي التطابق التام بينـــه وبينها، في حين أن الإســـلام منهج قائم بذاته ومتفرد ومتميز؛ ولا شـــك أن هذا الوصف والإلحاق يُحَمِّل الإسلامَ الصورة السلبيةَ التي تكون مطبوعة في أذهان بعض الناس عن تلك المناهج؛ وحينئذٍ فنحن نظلم الإسلام من حيث أردنا إبراز محاسنه.

كما أنـــه حتى لو التقى الإســـلام مع غيره في تقرير بعض المبادئ، فإنه أيضاً يكون متفرداً ومتميزاً في نظـــرتـــه لتحقيـــق تلك المبـــادئ المشـــتـــركة؛ فمثـــلاً لا يمكن أبداً أن يكون تصور الإسلام لتقرير (الحقوق الفردية) متطابقاً مع تصور الرأســـمالية لتقرير تلك الحقوق؛ ومثـــلُ ذلك يقال في (العدالة الاجتماعية) وفي غيرها من المبادئ.

ثـــم إن الانســـياق وراء كل منهـــج أو مصطلح ومحاولة إلصاق الإسلام به، رغبةً في مسايرة تطور الفكر البشـــري؛ هو أمر ينمُّ بصورة ما عن حالة من الانهزامية الثقافية، وفقدان الثقة بالنفس وبأصالة المنهج الرباني الذي نؤمن به.

الإصلاح الإسلامي... تواصل لا انقطاع:

الأمر المهم الذي لا يلتفت إليه الكثيرون في تفسير أن مفهوم (الثورة) لم يكن شائعاً في التراث الإسلامي ولا في أدبياتنا الفكرية والسياسية، هو أن (الثورة) - كما أشرنا - تعني مرحلةً مغايرةً لما كان قائماً، وانقطاعاً تامّاً عما كان موجوداً، وهذا الانقطاع لا يعني تغيير النظام الحاكم فقط، بل تغيير القيم والمفاهيم والأفكار السائدة التي ثار الناس في وجودها.

ففي الغرب ثار الناس على سلطة الكنيسة، لكنهم مع الثورة أعطوا ظهورهم للدين نفسه وليس فقط لسلطة الكهنة، ومن هنا نشأت (العَلمانية).

كما ثار الناس أيضاً على الإقطاع، فمزقوا (الملكية الفردية) وما تستصحبه من مفاهيمَ وأفكارٍ، وكانت الشيوعية والماركسية في الدين والاقتصاد والاجتماع.

وهكذا مع كل ثورة يتم التنكر التام ليس فقط للنظم الحاكمة؛ بل للقيم والأفكار التي يعتبر الثوار أنها هي التي قامت عليها النظم السياسية التي ثاروا عليها.

وهذا الأمر المهم لم يكن موجوداً أبداً في تاريخنا الإسلامي؛ فلم يحدث قط أن ثار الناس على حاكم، أو بتعبير التراث الإسلامي: خرجوا عليه، أو خلعوا بيعته من أعناقهم. لم يحدث أبداً أن كان هذا مقترناً بالخروج على القيم والمفاهيم الإسلامية، مع أن الحكام الظالمين الذين تسببوا في خروج الناس عليهم، كانوا يتمسحون في الإسلام ويزعمون أنهم يستمدون سلطانهم من القيام عليه وحراسته.

فالمسلمون كانوا يفرقون بين سلوك الحاكم الظالم وبين الإسلام؛ لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أن الإسلام يتبرأ من الظلم أيّاً كان فاعله ومرتكبه، وأنه ليس من الصواب أن نُحَمِّل الإسلام خطأ بعض أتباعه حتى لو كانوا حكاماً.

ولذلك عُرفت في تراثنا مفاهيمُ الإصلاح والتغيير والتجديد ولم يُعرف مفهوم الثورة. فقد كان الإصلاح الإسلامي فعلاً متواصلاً ومستمرّاً مع القيم التي حاد عنها بعض الحكام.

ومن هنا، فالذين خرجوا - مثلاً - في ثورة ٢٥ يناير في مصر، وتصوروا أن نجاح الثورة يعطي لهم الحق في أن يطرحوا على المجتمع المصري إعادة النظر في هويته الإسلامية ويباعدوا بينه وبين قيمه الإسلامية (كما دعا بعضهم وما يزال إلى حذف المادة الثانية من الدستور التي تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع) هم مخطئون وواهمون.

فالجماهير التي خرجت تعلن رفضها لحسني مبارك، لم يخطر ببالها أن ذلك يعني رفضها لنظام القيم والمفاهيم القائم أيام حسني مبارك. كما لم يخطر ببالها أن الثورة المصرية ثورة عَلمانية كما يزعم بعض الناس حين يقول: إنها ثورة لم ترتبط بالدين! لأنه لا يمكن أن نتصور أن الاكتفاء برفع شعارات ومطالب اقتصادية وسياسية، يعني إعادة النظر في الهوية المستقرة في أعماق المجتمع منذ قرون.

وأبلغ رد على الذين يحاولون (علمنة الثورة المصرية) وإبعادها عن الدين، أن يدركوا: لماذا كانت الجماهير تحتشد يوم الجمعة؟ ولماذا كانت المساجد الكبرى هي نقطة الانطلاق؟ إن هذا الأمر رغم دلالته الرمزية لهو خير دليل على إسلامية وهوية المجتمع المصري حتى لو لم يرفع ذلك في شعارات أثناء الثورة، فقد كان ذلك أمراً واضحاً لا يحتاج إلى دليل.

دَرْءُ المفسدة وفقْه الموازنات:

أما الذين يزعمون أن عدم وجود مفهوم الثورة (بالمعنى المعروف الآن) في تراثنا الإسلامي، يعني أن الإسلام يرضى بالخنوع والظلم، فنقول لهم بإيجاز: إن سببَ تفضيلِ الأمة الإسلامية وخيريتها، أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر كما قال الله - تعالى -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولذلك جاء في الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[1].

وهذه الآية وغيرها من الآيات والأحاديث النبوية هي الحاكمة في هذا الباب، وينبغي أن تُردَّ إليها الأقوال المتعارضة التي وردت عن الفقهاء بشأن الخروج على الحاكم؛ لأن النصوص إذا احتملت آراءً تبدو متعارضةً فينبغي أن يُحمَل المتشابه منها على المُحْكَم، والظني على القطعي، كما هو معروف في منهج الجمع بين النصوص المتعارضة.

كما أن اختلاف الفقهاء في مسألة الخروج على الحاكم كان مبنيّاً على (سد الذرائع) خشية وقوع فتنة أشد، وعلى الاختلاف في تقدير المصلحة والمفسدة في ما يسمى (فقه الموازنات)[2].

تلك كانت محاولة موجزة لضبط المفاهيم وتوضيح جانب مهم من تراثنا الفكري والسياسي، قد يشغب عليه البعض أو ينساق وراء شعارات براقة، فيظلم ثقافتنا وتاريخنا، وقبل ذلك يظلم نفسه.

---

(١) حسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) خلص د. محمد عمارة إلى أن (الآراء التي تدعو إلى طاعة أمراء الجور، قد خلط أصحابها - في قراءتهم للأحاديث النبوية التي دعت إلى طاعة الأمراء - بين طاعة (أمراء القتال) في الحرب وبين طاعة الولاة. ولقد تمت اجتهاداتهم هذه في عصور تهددت فيها الأخطارُ الخارجية وجودَ الأمة ووحدتها، فوازنوا بين محاسن الطاعة ومفاسد التغيير بالفتنة والقتال)، المصدر السابق.

العلمانية في المغرب... صراع متجدد

مصطفى الحسناوي الميسوري

كان يوماً مباركاً ذلك اليوم الذي زرت فيه الشيخ الدكتور إدريس الكتاني في بيته لأول مرة، تنقلنا في النقاش بين مواضيع شتى حتى أثرت معه كتابه (المغرب المسلم ضد اللادينية)، واستغربت عدم إعادة طبعه رغم مرور أكثر من نصف قرن على طبعته الأولى التي نفذت منذ أعوام. فاقترح عليَّ أن أتكلف بذلك، فاستجبت دون تردُّد شاكراً له هذه الثقة، ثم اقترح عليَّ أن أُعدَّ مقدمة لهذه الطبعة، وهذا من تواضعه - حفظه الله - فمتى كان الأصاغر المجاهيل يقدمون للأكابر المشاهير، وترددت في القيام بذلك لمعرفتي قدر نفسي، ولعلمي أن أي مقدمة لهذه الوثيقة المهمة لن تقدم جديداً ذا فائدة. ثم بعد تفكير يسير توكلت على الله في خط هذه السطور التي لن يكون لها كبير فائدة إلا على كاتبها، الذي هيأ له الله - عز وجل - من الأسباب ما جعل اسمه يوضع بجانب اسم باحث ومفكر من الطراز العالمي، ويتشرف بأن تكون له يد في إخراج هذا السفر المهم والمفيد، الذي يرصد فيه صاحبه مؤامرة حيكت ولا زالت تحاك ضد عقيدة ودين وأخلاق وتاريخ هذا الشعب، مؤامرة حاكت خيوطها نخبٌ تصدرت صالونات السياسة ومنابر الإعلام، وصُنعَت صنعاً على أعين الغرب، لتكون هي ممثل الشعب وقائده إلى ظلمات العَلمانية.

يؤرخ الدكتور إدريس الكتاني في كتابه هذا الذي هو تبرير وشرح لأسباب استقالته من حزب الشورى والاستقلال في خطاب رفعه آنذاك لأمين عام الحزب حينها محمد حسن الوزاني، هذا الحزب الذي انقلب فجأة إلى العَلمانية، وبدأ يغازل اليهود ويرسل رسائل التطمين ذات الشمال وذات اليمين.

قلت: يؤرخ في هذه الوثيقة التاريخية المهمة، لانحراف في مسار جزء من الحركة الوطنية والأحزاب السياسية، وتنكُّره لدينه بطريقة يذكر الدكتور مستهجنة ومقرفة، ولم تكن لها حاجة أو داعٍ، اللهم إلا التملق والتسلق والتآمر. وتولى جريدتان آنذاك،

هما: (الرأي العام) وجريدة (الديمقراطية) كِبْر محاربة الإسلام والاستهزاء برموزه ومقدساته وفرض العَلمانية واللادينية، على شعب مسلم عشية الاستقلال. ولقد حاربت (الديمقراطية) الإسلام حرباً لا هوادة فيها مستهزئة برموزه ومقدساته.

والحقيقة أن المؤامرة التي تحدَّث عنها الدكتور الكتاني، والتي تزعَّمها من تلبَّس بلبوس القيادة والزعامة والنضال، مِن فلول الاستعمار وأذنابه، ورؤوس التخريب و أصحابه، لم تكن البداية. بل هي محطة من محطات الارتباط بالعدو بشكل من الأشكال، وعلى مستوى من المستويات، والتي كان علماء المغرب لها بالمرصاد.

ففي سنة ١٣٠٣هـ كتب الشيخ جعفر بن إدريس الكتاني جَدُّ المؤلف كتابه (الدواهي المدهية للفرق المحمية)، متصدياً لظاهرة خطيرة مست المغرب في صميم وحدته وسيادته، ودينه وسياسته؛ ألا وهي احتماء المغاربة بالأجانب والتجنس بجنسياتهم. وقد كَثُر هذا النوع من الاحتماء في صفوف بعض الإقطاعيين من المسلمين، وفي صفوف كثير من أهل الذمة خاصة اليهود منهم. وقد كان هؤلاء المحميون مرتبطين بالعدو مستمدين قوتهم منه، متنكرين لأصولهم وتقاليدهم. وهو ما يكرره العَلمانيون في أيامنا. ولقد كان الشيخ حازماً وصارماً في كتابه مع هذه (الظاهرة / الفتنة). ثم بعد ذلك بدأت جحافل الجواسيس والمبشرين تغزو البلاد، متخذة من مهن عديدة غطاء لتنفيذ مهمتها. فكان منهم الطبيب و الباحث والرحالة والتاجر وغيرهم، وتسللوا لمراكز القرار ومواقع التأثير، وانتشروا في القرى والمداشر، بعد أن عششوا في قصر السلطان ومؤسسات الدولة، بل باضوا وفرخوا. فأصبحت سياستهم نافذة، فضلاً عن تقاريرهم للدول الاستعمارية المتواصلة المتزايدة. وقد تصدى العلماء لهذه الظاهرة، وحذروا منها كتابة وخطابة ووعظاً وفتوى. كان منهم والد المؤلف الشيخ محمد بن جعفر الكتاني، في كتابه (نصيحة أهل الإسلام بما يدفع عنهم داء الكفرة اللئام)؛ حيث تصدى لهذه الظاهرة. وتحدث عن بودار انهيار المغرب، وأسباب ذلك، والحلول المقترحة. وكتابه المذكور، نصيحة قدمها للسلطان المولى عبد العزيز، محاولةً أخيرةً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. لكن السلطان لأسباب عدة (صغر السن، وقلة التجربة، وفساد البطانة، وتسلل الجواسيس لبلاطه) ارتمى في أحضان الغرب، ومهَّد للعَلمانية. حيث بدأت بوادرها في عهده بإلغاء الزكاة، والتشريع للضريبة المسماة الترتيب، وإنشاء أول بنك ربوي، وغيرها من الإجراءات. وقد قاوم العلماء ذلك بشدة، وكان لهم الدور الكبير والكلمة الأولى والأخيرة فخلعوا بيعته، وبايعوا أخاه السلطان المولى عبد الحفيظ على الإسلام والجهاد والتحرير.

لكن جيوب مقاومة الأسلمة، وتقليص دور العلماء ونشر العَلمانية والاستماتة في قتل روح المقاومة، والسعي لتقديم المغرب على طبق من ذهب لأعدائه، التي كانت مصالحها مرتبطة بالاستعمار الصليبي، متمثلة في المحميين والجواسيس والخونة وأجداد العَلمانين، مافتئت تحاول وتناور وتمكر وتكيد، وتبث سمومها عبر جرائد ظهرت في تلك الفترة، لعل أشهرها جريدة السعادة التي كانت تصف المقاومين بالإرهابين، والعلماء بالرجعيين والظلامين والثوار المفسدين. وتدعو إلى الاستسلام لفرنسا لتحقيق التقدم والحداثة والازدهار. فتصدى لها جمع من العلماء والمثقفين.

لقد كان الناس آمنين، يتحاكمون لشريعة ربهم، ويفضون نزاعاتهم بين يدي علمائهم، ويتصدون لمحاولات حشر الأعداء أنوفهم في أحكامهم وقوانينهم ومصالحهم وحرماتهم، إلى عهد قريب. وفي أوائل القرن التاسع عشر وابتداءً من سنة ١٨٤٠م، أصبح للقناصل الأجانب دور كبير في إدارة بعض مصالح مدينة طنجة، بعد أن تخلى عنها سلطان ذلك الوقت. وتطور الأمر إلى ما يشبه قيام حكومة محلية، ثم جاء الاعتراف بها كمدينة دولية سنة ١٩٠٢م. وفي سنة ١٩٢٣م تقدمت بريطانيا باقتراح لوضع نظام خاص بطنجة. وفي سنة ١٩٢٤م أصبح هذا الدستور قانونياً، وأصبحت طنجة تحكم نفسها حكماً ذاتياً مستقلاً، كانت اليد الطولى والكلمة المسموعة فيه تعرف مداً وجزراً بين الدول القوية المتصارعة المسيطرة على المدينة. ورغم أن المغاربة المسلمين كان عددهم يفوق الثلثين، إلا أن الفصل في الخصومات بينهم وبين غيرهم، كان يتم في محكمة مختلطة تتكون من ثلاث قضاة من فرنسا وإسبانيا وواحد من إيطاليا والبرتغال وبلجيكا وهولندا وبريطانيا وأمريكا. وانتظر المسلمون سنة ١٩٥٢م، لإضافة قاض مسلم واحد لم يكن له من الأمر شيء، وكان وجوده شكلياً.

كان هذا في طنجة الدولية، التي كان تطبيق العلمانية فيها وإبعاد الدين سابقاً على باقي مناطق البلاد، وبعد دخول فرنسا رسمياً للمغرب عقب معاهدة الحماية، وجدت العَلمانية والقوانين الوضعية طريقها للتطبيق والتنزيل على أرض الواقع، وبدأت عملية عزل الشريعة وإقصائها والحدِّ من دور العلماء وتهميشهم تتم بالتدريج. فقد صدر ظهير ملكي لضبط محال بيع الخمور بتاريخ ١٩١٣/٠٦/٢٩م، وصدر بتاريخ ١٩١٤/٠٣/١٩م،

ظهير ملكي بتقنين البغاء، وفي ١٩١٤/٠٩/١١م، صدر ظهير ملكي يأمر بإقرار ومراعاة العوائد البربرية (وهو ما يعني عدم خضوع هذه المناطق للشريعة وتحاكُمها للأعراف والتقاليد؛ أي العلمانية)، وفي ٢١ من الشهر نفسه صدر قرار بتحديد القبائل الخاضعة للحكم البربري العَلماني، وفي ١٩١٥/٠٩/٢٢م صدر بلاغ يقضي بجعل اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للجماعات البربرية، وفي ١٩٢٢/١١/١٥م صدر قرار يقنن تفويت العقارات للأجانب بالقبائل البربرية، وصدر قانون مصادرة الأراضي في ١٩١٤/٠١/١١م، وصدر ظهير إصلاح القضاء بتاريخ ١٩١٣/٠١/١١م، وعدل بتاريخ ١٩١٤/٠٣/٠٧م، ثم في ١٩١٦/٠٤/٣٠م، وفي ١٩٢١/٠٨/٢٢، وفي ١٩٢٤/٠٤/٢٩م. وصدر ظهير تمييز الراية المغربية بتاريخ ١٩١٥/٠٦/٢٩م. وظهير حرية الصحافة المأخوذ عن القانون الفرنسي بتاريخ ١٩١٧/٠٤/٢٧م، وعدل في ١٩١٨/٠٢/٠٩م، ثم في ١٩٢٠/١١/٢٠م، وهي السنة التي صدر فيها قانون يمنع على جميع مدارس البادية تعليم العربية الفصحى، وفي ١٩٣٠م صدر الظهير البربري الصليبي العَلماني، والقاضي بإحلال قانون العقوبات الفرنسي في المناطق الأمازيغية.

كان هذا استعراض لجذور العَلمانية وإقصاء الشريعة في المغرب، التي تمت على مستويات وحقول مختلفة؛ فقد كانت طنجة الحقل المكاني للتجربة الأولى؛ كونها الحلقة الأضعف والأنجح أيضاً لأسباب عدة.

ثم كانت القوانين مدخلاً لإقصاء الشريعة، في باقي المناطق، وهي طريقة سريعة وغير مكلفة، ساعد في إنجاحها، جهل المجتمع بما يحاك ضده، وتقديم هذه الحزمة من القوانين في قالب الإصلاح والتجديد، وحمايتها وتطبيقها وفرضها، بقوة الرجال والحديد والنار.

ثم جاءت مرحلة أخرى، هي علمنة النخبة ثم المجتمع، وهو هدف مكلف وبطيء، يستدعي تعهُّد نخبة من الزعماء والمثقفين للقيام بهذا الدور، وتكوينهم وتمويلهم ومراقبتهم، ثم استهداف ثقافة وفكر وعقيدة المجتمع وَفْقَ برنامج مكلف وطويل الأمد. يذكر (روم لاندو) في كتابه تاريخ المغرب في القرن العشرين، في الفصل الثالث تحت عنوان (الحركة القومية): أن أغلب طلاب الحركة الوطنية في بداية تشكُّلها تأثروا باتحادات العمال والأفكار الاشتراكية؛ خاصة أولئك الطلبة الموجودين بفرنسا، وأن عدداً من القادة كانوا من التقدميين الذين درسوا في فرنسا، وهم معجبون بثقافتها ويحترمون مدنيتها، بل بعضهم حارب في جيشها وتدرب في معسكراتها. وقد استعملت معهم فرنسا سياسة العصا والجزرة، فكانت تدفعهم لتقديم التنازل تلو الآخر باعتماد أسلوب التضييق والاتهام والتنقيص والازدراء؛ فقد كان الفرنسيون - حسب روم لاندو - يردون على مطالب الوطنيين بالاستقلال بأنهم ما يزالون في طور بدائي وأنهم لا يعرفون ما يريدون، وأنهم بعيدون عن الديمقراطية ومتعصبون دينياً وذووا نزعات معادية للسلام، وليس لهم برنامج واضح. ولك أن تطلق العنان لخيالك لتتصور ما يمكن أن يقدمه بعض هؤلاء القادة من تنازلات وإثبات حسن السيرة والسلوك لمحو هذه اللائحة من التهم؛ خاصة أولئك الطامعين في الحكم والزعامة. وتحت ضغط الشعب من جهة وضغط الاستعمار والرغبات الشخصية فقد كان على هؤلاء الزعماء - لضمان الاستمرار في مناصبهم وإرضاء جميع الأطراف - التوفيق بين مبادئ الإسلام، والمطالب العَلمانية للحضارة الحديثة، فكانوا وبالاً على أمتهم.

ورغم ذلك فقد ظل العلماء متيقظين، مدافعين عن الإسلام بنقائه وصفائه، مستمدين من عقيدته ما يعينهم على جهاد الأعداء بالسيف والسنان، والمرتبطين بهم كيفما كان هذا الارتباط بالقلم واللسان، فتصدوا لبعض محاولات العلمانيين الركوبَ على الموجة، وقطف الثمرة، والتنكر لدين هذا الشعب وتضحيات أبنائه. وتحقيق أهدافٍ ومكتسباتٍ للحملة الصليبية الاستعمارية ما كانت لتحلم بها. و ما استطاعت تحقيقها بقوة السلاح وأنواع العذاب وأشكال الدمار والخراب، ونقل الدكتور إدريس الكتاني في كتابه مواقف لكلٍّ من الشيخ المكي الناصري وعلال الفاسي من العَلمانية والعَلمانيين.

كما تصدى هؤلاء العلماء للطرق الصوفية التي باعت دينها بعَرَض من الدنيا قليل: كالشيخ المكي الناصري في كتابه (إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة)، والشيخ ابن المؤقت في كتابه (الرحلة المراكشية). وقد أشار الدكتور الكتاني في كتابه لهذا الدور المخزي للطرق الصوفية بقوله: (لقد كنا نقاوم شيوخ الطرق الدينية، أيام الحماية لأنهم كانوا يطعنون الإسلام في الصميم بموالاتهم للاستعمار)[1].

لقد وضع الدكتور إدريس الكتاني إصبعه على الداء، ولو أن تاريخ المؤامرة وجذورها سابق لحادثة تآمر بعض قيادات حزب الشورى والاستقلال بكثير، كما أشرنا أعلاه. بل كتب الدكتور إدريس الكتاني نفسه كتاباً سنة ٢٠٠٠م، يتحدث فيه عن مؤامرة بدأت خيوطها قبل ثمانين سنة، وقد أسماه (ثمانون عاماً من

(١) صفحة (٤١).

الحرب الفرنكفونية على الإسلام واللغة العربية)، وهو وثيقة مهمة ترصد صراع المرجعية الإسلامية الأصلية، والمرجعية العَلمانية الاستعمارية الدخيلة، بخصوص مؤامرة سماها الدكتور الكتاني: (الحرب اللغوية الفرنكفونية العَلمانية)، حرب يشنها الغرب الصليبي العَلماني الصهيوني على مستوى برامج التعليم والثقافة والإعلام، بإستراتيجية تقوم على اختراق واحتواء عالمية الحضارة الإسلامية طولاً وعرضاً، في بعديها (التاريخي والجغرافي). وثيقة مهمة تتناول مؤامرات عَلمنة التعليم وتغريبه وفرنسته، كتبها الدكتور بمناسبة مشروع ميثاق التربية والتكوين لسنة ١٩٩٩م، وقد تحدث عن رفض ٥٠٠ عالم ومثقف لهذا المشروع العَلماني الفرنكفوني، وقال عنه: إنه يهتدي بسياسة ليوطي لسنة ١٩٢١م، ويسترشد بالظهير البربري لسنة ١٩٣١م، و هو حلقة في سلسلة مشاريع استعمارية عَلمانية لتخريب التعليم، بدأت سنة ١٩٦٢م، يستعرضها الدكتور الكتاني في كتابه المهم والفريد. ويستعرض معها رفض هيئات وشخصيات لهذه السياسات التعليمية العَلمانية الفرنكفونية الاستعمارية:

- كاستقالته من عمله في وزارة التربية الوطنية احتجاجاً على مشروع الوزارة لإصلاح التعليم، وهي ثاني استقالة له في حياته السياسية، وهو المشروع الذي رفضه المجلس الأعلى لرابطة علماء المغرب، ورفع بخصوصه برقية لرئيس المجلس الأعلى للتعليم، بتاريخ ١٨ جمادى الثانية ١٣٨٢هـ، ١٨ أكتوبر ١٩٦٢م، وقَّعها الأمين العام، عبد الله كنون و ٥٣ من الأعضاء.
- وكموقف عمر الساحلي سنة ١٩٦٤م، وموقف علال الفاسي سنة ١٩٦٥م، وغيرهم
- وفي أكتوبر ١٩٧٠م وقعت ٥٠٠ شخصية بياناً ضد السياسة الحكومية الاستعمارية الفرنكفونية العَلمانية، حول التعليم.
- وفي أكتوبر ١٩٨٠م، أصدرت رابطة علماء المغرب بياناً ترفض مشروعاً لوزارة التربية الوطنية بعنوان نحو نظام تربوي جديد.
- وفي أكتوبر ١٩٩٣م، أدانت مجموعة من الأحزاب والحركة الإسلامية، مشروع المسالك المزدوجة الفرنسي الاستعماري، الذي قدمه وزير التعليم العالي الفرنسي فرانسوا بايرو، لوزير التعليم المغربي رشيد بن المختار، سراً سنة ١٩٩٦م، وتحدث الوزير الفرنسي لمجلة السفارة الفرنسية بالمغرب، كوصي مسؤول عن تلبية حاجات الآباء المغاربة.

وللدكتور إدريس الكتاني صولات وجولات في فضح السياسة العلمانية الفرنكفونية، في مجال الإعلام.

ولقد ظل الدكتور إدريس الكتاني عصياً على الهضم من طرف معدة عَلمانية كبيرة، تسعى لابتلاع كل مقومات البلاد، وتحويلها لمطرح لفضالات ونفايات الغرب. وكان غصة في حلق العلمانية، وشوكة في خاصرتها، بثباته وجهاده وفضحه للمؤامرات والمكائد، وأغلب كتاباته في فضح التغريب والفرنكفونية والعلمانية، بطريقة عزَّ نظيرها، ليس في المغرب، بل في العالم الإسلامي أجمع.

فهي كتابات ترصد تحولات وتغيرات على الواقع، وأحداث تاريخية عايشها الدكتور، ومؤامرات بالأسماء والتواريخ. وليست ردوداً فكرية أو فلسفية على نظريات وأطروحات، وبرامج في الفضاء، أو حبيسة الكتب لمفكرين علمانيين ظهر عداءهم للدين ومحاربتهم له حتى للعجائز. كما نرى من بعض من يتهرب من تسمية الأمور بمسمياتها. أو ممن أصيب بنوبة صحوة ضمير، أو ممن تحلى بنصف الشجاعة أو ربعها، ممن يعرض النظريات العلمانية، لمجهره أو مشرطه، يخرج حقائقها، ويتعلق بدقائقها، ويبحث عن مراميها وأهدافها، ويتحدث عن فلاسفتها وجذورها، ويؤرخ لها بتواريخ وحقب عجيبة. ويتيه بك في تفاصيل وتحليلات، يشرح الواضحات، ويكرر الاستنتاجات. ولكنه لا يكلف نفسه انتقاد مظهر من مظاهرها المعاشة، ولا يراها طوفاناً تكتسح غرفة نومه ومدرسة طفله، وقوانين بلاده، ومظاهر حياته، وتفاصيل يومه. لذلك جاءت كتب وأبحاث الدكتور الكتاني، فريدة من نوعها، نادرة في بابها، رصداً لوقائع وأحداث، وإنكاراً لها بكل جرأة وشجاعة الصادع بالحق، المجاهد بقلمه ولسانه.

وكتاب (المغرب المسلم ضد اللادينية) أحد الوثائق المهمة والفريدة والنادرة، التي جمعت بين الرصد والتحليل والمتابعة، لمرحلة من مراحل التآمر من جهة، وبين التعليق على الأحداث، والتعبير عن الموقف والصدع بالحق واستنكار المنكر من جهة أخرى. والكتاب مرجع لأغلب من يتحدث عن العلمانية في المغرب، من الكتاب والمفكرين الإسلاميين. فقد أحال عليه الدكتور يوسف القرضاوي، وكذلك أبو الحسن الندوي في كتابه (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية).

ولا يفوتني أن أسجل تحفظي على بعض ما جاء في الكتاب، من أفكار ومواقف: كالحديث عن اشتراكية إسلامية، وديمقراطية إسلامية، وكإحسان الظن ببعض الشخصيات وتلميعها، وإضفاء ألقاب التعظيم والتبجيل عليها، وقد كفانا التاريخ عناء كشف حقيقتها.

بين التنظير والواقع

سـارة محمـد حسـن

كنت دائماً على اعتقاد جازم أن التنظير لا بد أن يتعلق بالواقع، وإلا شابهنا تنظير المبتدعة الذين يخترعون الصور الذهنية ويجادلون عنها.

فالتنظير المجرد عن الواقع ليس من الإسلام في شيء بل هو الجدل المقيت الذي منه حذر النبي ﷺ وأمر بتركه فقال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً»[1]. وهذا الجدل هو الذي أوقع أمتنا في نكبات ومصائب على مرِّ الأزمان.

ففي عصر الصحابة لم يكن (الواقع) بحاجة إلى شرح التوحيد وتقسيمه بالأسلوب المتعارف عليه الآن، لأن الإيمان خالطت بشاشته قلوبهم وكانوا أهل لغة يفهمون ما لهم وما عليهم من النبع الصافي (الكتاب والسنة).

ولما كثر الجدل ونبتت لنا نابتة المبتدعة يحصرون التوحيد في صورة واحدة اختلفوا عليها، وينظِّرون على هذا لهدم الدين، استقرأ لهم العلماء كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ وبينوا أن التوحيد يدخل فيه كل معانيه التي بسطت في كتب الاعتقاد، فتنظير العلماء وقتها كان نصرة لمذهب السلف وردّاً على الشبهات والأهواء التي تطايرت بالقوم فأهلكتهم.

والناظر في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية يرى تنظيراً لتقرير توحيد الأسماء والصفات وقواعد الرد على المبتدعة من معطلة ومشبهة؛ فهذا تنظير احتاجه الواقع ولم ينشئه الشيخ ابتداء من تلقاء نفسه.

(١) حسنه الألباني عن أبي أمامة الباهلي.

وفي عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، احتاج الواقع لتنظير آخر، وإن كان له سبق في كتب السلف، ولكن احتيج لإبرازه والتأكيد على منهج السلف فيه، وهو توحيد الألوهية وما يضاده من شركيات ونواقض الإسلام.

إذن التنظير وإثارة العلوم عند أهل السنة ليست منفصلة عن الواقع وليست مجرد فكرة في الذهن أو بسط لأفكار لا حاجة للتنظير عليها ولا يحتاجها الواقع؛ وإنما فقط تثير جدلاً وتوسِّع الهوة والخلاف بين المسلمين مما يسيء لواقع أمتنا كثيراً.

فإذا انفصل التنظير عن الواقع وما يحتاجه الواقع، ينشأ وضع مذموم يشعرك أن العالم في وادٍ والمتحدث في وادٍ آخر، وهذا لا شك أنه من أسوأ البلايا التي لو وقع فيها الداعية فشلت دعوته، وهو كذلك منافٍ للعلم والفقه والحكمة.

ويجدر ها هنا الإشارة إلى أن التنظير لمسائل الطهارة وأحكام الصلاة والاعتقاد... إلخ، لا تدخل معنا في هذا الباب؛ لأنها تنظير يحتاجه الواقع أيما احتياج؛ فلو صلح القلب بالعقيدة يصلح عمله، وأول ما يسأل عنه العبد في القبر الصلاة، فهو تنظير يحتاجه المرء بعدد أنفاسه، والسعيد من فُتِح له باب الفقه، كما قال النبي ﷺ: «من يُرِد الله به خيراً يفقه في الدين»[2]. فمما لا شك فيه أن الدين عقائد وعبادات وكلها من الفقه وكلها يحتاج إليها الواقع دائماً بلا شك أو مرية؛ وإنما الحديث عن غير هذا فتنبه.

وهناك صور عديدة ومتنوعة لمسألة التنظير المنفصل عن الواقع، فمنها ما هو تنظير باطل، ومنها ما هو حق وضع في غير موضعه، ومنها ما هو حق ولكن خارج محل النزاع، ومنها ما هو غير ذلك؛ ولذلك يَحسُن ضرب بعض الأمثلة، والقارئ اللبيب يمكنه أن يطَّرد على هذا المنوال.

فلدينا صورة من التنظير الجدلي الذي لا فائدة تعود على المكلف منه في دنياه ولا آخرته، مثل جدال اليهود

(٢) السلسلة الصحيحة.

في مسألة مفضولة لا أهمية لها في لب العلم والعمل ونجاة الإنسان يوم القيامة، وقد أمر الله – تعالى – ألا يُلتفَت لهم ولا ينشغل المرء بمِرائهم؛ لأنه لا يترتب على معرفة ذلك كبير أهمية. قال – تعالى –: ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [**الكهف**: ٢٢].

فهذا أمر الله لنا بعدم الالتفات للنتظير الجدلي مع بيان الحق والإعراض عن الجاهل.

ويحسن أن يلفت الإنسان نظرَ المجادل بهذا النوع إلى ما هو أنفع له مثلما ردَّ النبي ﷺ على السائل عن الساعة؛ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: أن رجلاً سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «أنت مع من أحببت».

لكن ننتقل الآن إلى نوع آخر؛ فهذا رجل دخل على عاصٍ مذنب مصرٍّ مستكبر، فحدثه عن رحمة الله وأنه غفور رحيم، فأُخبر أن هذا موضع ترهيب لا ترهيب، فوجد عاصياً آخر تائباً قد أقلع وندم، فحدثه عن شدة العقاب وحرارة الجحيم!

فكيف يتصور المرء حجم الفساد الناجم عن مثل هذا الحديث؟

ونوع آخر: أُدخل رجل على قارون في ملئه وعنده من يأمره بالصدقة وعفة القلب عن الدنيا و «ألا يستغني بماله تكثُّراً ولا يستكثر منه تملُّكاً»[1] واستكباراً، فقال للناصح: حسبك! أما سمعت قوله – تعالى –: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ﴾ [**الأعراف**: ٣٢]، ثم أسهب في الرد مبيناً مساوئ الزهد البدعي لصوفي.

وهذا تحدث بكلام جيد متين واستدل واتبع منهج السلف في الاستدلال، لكن في غير موضعه؛ فهو يعترض على قول صحيح في موضعه بإيراد صحيح في غير موضعه ويجادل في المكان الخطأ والزمان الخطأ، فلا تزيد كلماته قارون إلا غروراً وطغياناً وإعراضاً وسفاهة؛ فما بالك لو كان فعله هذا مع فرعون لا قارون!

وعندما ثارت ثورات الشعوب الإسلامية في مصر وتونس وسورية وليبيا هذا العام، وجدنا من يخرج علينا لائماً ومنددا بالثوار (الخوارج البغاة) داعياً لطاعة أُولي الأمر المؤمنين أولياء الله الصالحين، مبتهلاً إلى الله أن يهلك هؤلاء (الخوارج البغاة) الذين خالفوا المنهج القويم ولم يتبعوا سبيل المؤمنين، سائلاً ربه أن يجعل قتلاهم في الجحيم!

(١) ابن القيم طريق الهجرتين.

ويشـــعر القارئ بالانبهار من هذا المتحدث عندما يظن أنه يتحدث عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخليفة الراشد، أو على أقل تقدير أحد خلفاء الأمويين أو العباســيين، بل لو قال هـــذا في خليفة يحكم بما أنزل اللـــه في مجمل حكمه وينصر شـــرع الله ويستعلن بحب دين الله، ولو فسق وفعل ما فعل بعد ذلك لكان مقبولاً. فأين هؤلاء من الإمارة الفاجرة التي وصفها علـــي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فقال: (لا بد للناس من إمـــارة (برة كانت أو فاجرة). فقيل: يا أمير المؤمنين! هذه البرة قـــد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ فقال: يقام بها الحدود، وتأمن بها السبل، ويجاهَد بها العدو، ويقسم بها الفيء)[1].

وكأنه لم يعرف ما أحدثه هؤلاء من تبديل شـــرع الله وشن الحرب على الإسلام والمسلمين ونصرة غيرهم عليهم، وكأنه لم يعرف أن هؤلاء كرروا في أكثر من مناســـبة أن بلادهم ليست إسلامية وأنها بلاد عَلمانية! وكأنه لم يعرف ما كان يحدث في سراديب هذه البلاد من تعذيب للمؤمنين فقط لأنهم مؤمنين!

فما علاقة هذا التنظير بواقعنا الحالي؟

مثال آخر: لا بد أن كل متابع للأحداث في مصر الآن يعرف أن التيارات بحمد الله قد انقسمت لقسمين لا ثالث لهما: تيار إسلامي وتيار علماني.

وبغـــض الطرف عن أعيان وأفهام من يدين بالعَلمانية فقد يكـــون بعضهم معذوراً أو غير معـــذور؛ فمنهم من يظن أنها لا تخالف الإســـلام؛ وإنما الأعيان يصلح ردُّ الحكم فيهم إلى أهل العلم الراسخين؛ فحديثنا عن الفكر نفسه وليس عن الأشخاص.

العَلمانية أول مبادئها الذي تنادي به باختصار أن الشـــعب حاكم مشـــرِّع، وأن تحكيم الشرائع الدينية لا (يصح) في الوقت الحالي؛ لأن في ذلك (ظلم) للأقليات؛ فهل يشك عاقل أن هذا الفكر هو فكر مناقـــض للتوحيد؟ لا يختلف في ذلك اثنان من أهل السنة لا من السلف ولا من المعاصرين[2]، بل من ينتمي لغير أهل الســـنة أيضاً لا يخالف ولمفتي مصر الذي ينتمي للصوفية كلام صريح مفاده: أن العلمانية مضادة للتوحيد!

فهل يشـــك عاقل أن هـــذا الفكر لا بـــد أن يحارب ويبيَّن عواره؟ هل يشك عاقل أننا بحاجة لبيان أهمية الحكم بما أنزل الله في هذه المرحلة الحرجة؟ هل يشك عاقل أننا بحاجة لبيان أن القوانين الوضعية وفرضها على الأمة مناقض للتوحيد؟ هل يشك عاقل أننا بحاجة لتوحيد الصف والجهود ضد هذا التيار وأن التعـــاون على ذلك من باب البر والتقوى؛ لا ســـيما أنَّا في مرحلة بناء نحاول فيها تقليل الخسائر إلى أقصى حد والقرب من شرع الله؛ فما لا يدرك كله لا يترك جله.

لكن نجد من يخرج علينا بكلام مفادُه: أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر، ومجرد معصية، وأن الأمة ليست مستعدة للدعوة إلى الحكم بمـــا أنزل الله؛ لأن فيها – أي الأمة – بدع ومخالفات! ثم يطنبون في التنظير لمسألة أخرى مستدلين باتفاق الجميع على عدم كفر القاضي الذي يحكم بما أنزل الله في المجمل ثم يزل في قضية لشـــهوة أو هوى؛ فإنه إن لم يستحل فهو عاصٍ ولم يقع في الكفر! ويَصُفُّون أقوال الســـلف الواحدة تلو الأخرى التي تبيح ذلك في حالات الاضطرار والحاجة وأشباهها. وكذلك الواصفة لمن فعل ذلك – بهوى أو شهوة – أنه عاصٍ وليس بكافر!

فهل هذا الاستدلال له محل من الإعراب في قضيتنا؟

وهل الواقع الحالي يحتـــاج لهذا التنظير أم أن هذا التنظير لا علاقـــة له بواقعنا الحالي؟ بل هو مفســـد له، وهو يد تصافح يد أعدائنا وفكرهم المناقض للتوحيد، قصد فاعلها أو لم يقصد، ولعله لـــو امتثل قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[3]، لكان خيراً له، ولكن قدَّر الله – تعالى – أن يكـــون الخير أعمَّ فيصبر أهـــل الحق ولو رماهم الرماة من كل حدب وصوب، ولو خذلهم من أبناء جلدتهم من خذلهم؛ فإني أشهد أنه حق ما قال النبي ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر اللـــه، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»[4]، وكلٌ يناله نصيبه من الكتاب.

أماالمصيبـــة الكبـــرى أن صاحـــب هذا التنظيـــر يرى أن العَلمانية... مجرد معصية لا تناقض التوحيد!

فما أجمل ما قاله ابن القيم:

إذا كـان هـذا نصح عبد لنفسهِ
فمن ذا الـذي منه الـهدى يتعلمُ
وفي مثل هذا كان قد قال من مضى
وأحـسـن فـي مـا قـالـه المتكلمُ
فـإن كـنـت تـدري فتلك مصيبة
وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظمُ

ولم تقف الكارثة الجارفة عنـــد هذا الحد، ولكن أن يكون ما سبق مقدمةً، وبناء عليها فواجب الوقت هو الدعوة إلى نبذ البدع، وبما أن العلمانية لا تناقض التوحيد فالدعوة إلى نبذ البدع حالياً هي: التحذير من السلفيين والإخوان في مصر وفضحهم!

(١) انظر: السياسة الشرعية لابن تيمية.

(٢) انظر: مأجوراً غير مأمور كتاب فتنة التكفير للشيخ الألباني تعليق الشيخ ابن العثيمين، ورسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ورسالة الحكم بغير ما أنزل الله للسدلان، وغير ذلك من الرسائل والكتب القيمة للعلماء الأجلاء.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

واجب المستضعفين

د. أشـــرف عبـد المنعم

فـي الوقت الذي تعيش فيه طوائف من المستضعفين من هذه الأمـة تحـت قصف المدافـع، وبينما تلتهـب الأرض المباركـة بنيران الأعداء، في هذا الوقت نفسه تعيش الأمة كلها تحت قصف خطاب التخذيـل، وتلتهـب صـدور الحيارى بحثـاً عن مخرج ممـا آل إليه حال أمتنا، ومما يصيبها من المظالم والمحن الكبار.

فرقان الوحي عبر الزمن:

إنـــه لا مخرج إلا فـــي القرآن الكريم؛ لأنه قـــد جعله الله فرقانـــاً بين الحق والباطـــل: في القضايا والأشـــخاص، وفي المواقف والأحداث. والقرآن قد قسم تاريخ استضعاف المؤمنين إلى مرحلتين كبيرتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الفرار بالإيمان:

وهذه المرحلة تمتد زمانياً من بعثة نوح، عليه الســـلام - إذ هو أول رســـول إلى الكفار، ومعه كانت أول فئة مؤمنة في ظل استضعاف من أمة كافرة - إلى إنزال التوراة على موسى، عليه الســـلام. ففي هذه المرحلة كلما كان النـــاس يكفرون، كان الله يرسل الرسلَ ليجددوا الدعوة إلى الدين الحق، فتستجيب فئة مؤمنة. وقد كان المؤمنون عبر التاريخ قلة ولا يزالون، كما أخبر النبي ﷺ في كثير من الأحاديث.

لقد كان الواجب على المؤمنـــين في هذه المرحلة: الانحيازَ إلى الإيمـــان وأهله، والدعوة إليه والثبـــات عليه، حتى يفصل الله بينهم وبين عدوهم؛ فتكون نجاتهم بأسباب متنوعة، ويكون إهلاك أعدائهم واســـتئصالهم بالقَـــدَر الرباني الخالـــص ذي الصور المتنوعة أيضاً، لكن دون أن يكون للمؤمنين دور في هذا الإهلاك.

المرحلة الثانية: مرحلة دفع المؤمنين:

وهذه المرحلة تبدأ بإنزال التوراة على موسى - عليه السلام - وتمتد إلى آخر الزمان.

والواجـــب على المؤمنـــين في هذه المرحلـــة: الانحياز إلى الإيمان وأهلـــه، والدعوة إليه والثبات عليـــه، وجهاد أعدائهم حتى ينصرهـــم الله على عدوهم، فتكون نجاتهم ويكون إهلاك عدوهم بأيدي المؤمنين. فصار المؤمنـــون هم قَدَر الله الغالب، الذي به يحقق ســـنته في خلقه؛ فهم أداة إنقاذ المظلومين، وهم أداة تعذيب المجرمين.

سمات المرحلة الثانية:

في هذه المرحلة بقي عندنا شـــيئان، وتغير شـــيء: بقيت عندنا سنة استضعاف الفئة المؤمنة قدراً جارياً في العباد، وبقي عندنا: قدر إهلاك المكذبين المجرمين، جزءاً من الجزاء العادل الذي يجريه الله في الدنيـــا تقدمة لما يقوم في الآخرة. وتغير شـــيء واحد: فلم يبق دور الفئة المؤمنـــة فقط هو أن تؤمن ثم تنجو بنفسها والله يتولى أمر أعدائها؛ إنما صارت الفئة المؤمنة هـــي هذا القَدَر الغالب، وهي يد الله التي يعذب بها أعداءه في

الأرض، ولذلك قال الله – عز وجل – آمراً المؤمنين: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] فأمضى الله سنته في تعذيب أعدائه، لكنَّ ذلك صار بأيدي أوليائه. كما قال – عز وجل – لنا: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]. ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٥].

الأدلة القرآنية:

لهذا ذكر الله – تعالى – في سورة (المؤمنون) قصة نوح – عليه السلام – مع قومه على أنها أول نموذج للمرحلة الأولى، فذكر الدعوة إلى الإيمان، ومن ثَـمَّ افتراق الناس إلى مؤمنين وكفار، ثم إنجاء الله – سبحانه وتعالى – للمؤمنين المستضعفين، وإهلاكه – عز وجل – للقوم الكافرين بقدره الرباني الخالص.

وأتبع هذه القصة بقصة قوم مبهَمين، جرى فيهم ما جرى في قصة نوح – عليه السلام – فكان إبهام الشخوص والزمان والمكان إشارة إلى استقرار السنَّة الربانية، دون أن يكون لشيء مما أُبهم أثره فيها وجوداً أو عدماً. ثم أكد اطراد هذه السنة في مَن بعدهم.

ثم قال – تعالى –: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] في إشارة واضحة إلى أن إرسال موسى – عليه السلام – كان إرسالاً مختلفاً؛ إذ أنزلت في ظله التوراة، وختمت مرحلة الفرار بالإيمان، وبدأت مرحلة دفع المؤمنين[١].

اللحظة الفاصلة بين المرحلتين:

أما ضبط هذا الحد الزمني الفاصل بين المرحلتين، وهو إنزال التوراة على موسى – عليه السلام – فقد جاء في سورة القصص في قوله – تعالى –: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. قال الإمام الحافظ ابن كثير– رحمه الله – في تفسيره: (وقال – تعالى –: ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة، لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين)[٢]. فبعد إنزال التوراة، لم يهمل الله شأن الناس، ولم يترك الظالمين المعتدين، إنما كلف المؤمنين أن يكونوا هم أداة تعذيب هؤلاء الكافرين.

لذا قال العلاَّمة السعدي – رحمه الله – في تفسير آيات سورة (المؤمنون) المذكورة: (بعد موسى ونزول التوراة رفع الله العذاب عن الأمم؛ أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد. ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرتُ هذه الآيات مع الآيات التي في سورة (القصص) تبيَّن لي وجهه. أما هذه الآيات، فلأن الله ذكر الأمم المهلَكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى – عليه السلام – بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس... وأما الآيات التي في سورة (القصص) فهي صريحة جداً؛ فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣] فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية)[٣].

الأمة الشاهدة للمرحلتين

وشهد بنو إسرائيل مع موسى – عليه السلام – هاتين المرحلتين، فكان إهلاك فرعون وجنده ختام المرحلة الأولى، فلا يُعترَض به على ما ذكرنا من شأن المرحلة الثانية. وهذا ما قرره العلامة السعدي قائلاً: (ولا يردُّ على هذا إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة)[٤]، وكان أمرهم بدخول (الأرض المقدسة) هو أول تطبيق عملي لسنة المرحلة الثانية؛ إذ أُمروا أن يدخلوها بالجهاد في سبيل الله، وأن يدفعوا أعداء الله.

لكنَّ بني إسرائيل – وهم أول فئة مؤمنة، تطالَب بإنفاذ سنة دفع المؤمنين للكافرين – طلبوا أن تستمر فيهم السنة القديمة، فقالوا لنبيهم الكليم الكريم – عليه السلام –: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤]؛ أي: كما أهلك ربك لنا فرعون وجنده، ولم ندفعهم بشيء من أيدينا، كذلك فَلْيُهلك لنا هؤلاء الجبارين الكافرين، ونحن ندخل الأرض المقدسة؛ بل بلغ بهم الضعف والجبن أن قالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤] قبل طلبهم السابق كالتعليل له، وبئس التعليل.

فهل قَبِل منهم ذلك؟ إن الله – عز وجل – لم يقبل منهم ذلك، وهم في المرحلة الثانية، ولم يهلك لهم أعداءهم الكافرين بل عذبهم؛ فكتب عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، عقوبة لهم، لا لأعدائهم.

عاقبة التخاذل عن واجب الدفع:

تبين من ذلك أن من سلك سبيل هؤلاء، وجبُن عن الدفع في

(١) انظر تفسير السعدي، ص766.
(٢) تفسير ابن كثير: 6/117.
(٣) تفسير السعدي، ص766.
(٤) السابق.

ظل هذه المرحلة، نالته أمور ثلاثة:

الأول: عـــدم إهلاك عـــدوه مهما انتظر؛ مـــا دام لم يقم بالواجـــب الذي عليه. فيبقى العدو ويبقى إفســـاده في الأرض أو يزيـــد. قال – تعالى –: ﴿وَلَـوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّـاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فلا بد من هذا.

الثـاني: تعذيبه في هذه الحياة الدنيا: فمن فرَّ من ألم في الطاعة، عوقب بألم أشـــد في المعصية. قال – تعالى –: ﴿إِلاَّ تَنفِـرُوا يُعَذِّبْكُـمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبـة: ٣٩]؛ فإنه لا بد من عذاب (لا للظالمـــين) ولكن للمؤمنـــين الذين ظلموا أنفســـهم لَـمَّا لم يقوموا بالواجب عليهم بالدفع عن دينهم وعن المستضعفين من أمتهم؛ لأن الله عاقب بني إســـرائيل، ولم يهلك (مع تخاذل بني إسرائيل) الجبارين. فبنو إسرائيل هم الذين تاهوا أربعين سنة فـــي الأرض جزاء جبنهم وتفريطهـــم وتقصيرهم في حق ربهم ودينهم ورسولهم وأمتهم، بل وفي حق أنفسهم.

الثالث: اســـتبداله – إذ نكص عن العبودية الواجبة – بمن هو خير منه ممن يشـــرف بأداء الواجب، وينـــال ثمرته: ففي الآية السابقة نفسها: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُـمْ﴾ [التوبة: ٣٩]. وهذا أمر آخـــر خطير: أن هذا العمل، وهـــذه الوظيفة التي يعمل فيها العبـــاد لله، ليس هناك ضمان لأحـــد أن يبقى موظفاً فيها إلى الأبـــد. الوظيفة تقبل الفصل، فيمكن أن تطرَد منها.

نحن وواجب المرحلة:

ونحن الآن نعيش في المرحلـــة الثانية، لذلك قـــال الله – تعالـــى – في (آية البيعة): ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْـــتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَـــهُمْ وَأَمْوَالَهُـــم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَـــبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُـــونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١] فابتدأ بالتوراة، مع أنه كانت هناك كتب قبل التوراة. لماذا ذلك؟ لأن سنة القتال ومجاهدة أعداء الله ودفعهم بأيدي المؤمنين ابتدأت منذ إنزال التوراة، وامتدت في الإنجيل، وامتدت في القرآن، وصارت هذه سنة الله الماضية إلى آخر الزمان.

بين الواجب الرباني والوعد الرباني:

لا أمل بغير عمل؛ فإن النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين موثوق به لأنه وعـــد الله، لكن هذا النصر لا يأتي بمعجزات على نيام. ولا يجوز أن ينتظر المســـلمون طيراً أبابيل تحرس بيت الله، ولا أسوة في قول عبد المطلب: (للبيت رب يحميه) فإنها كلمة من جاهلي قبل الإســـلام، والبيت له رب يحميـــه في كل وقت؛ فالله يحمي ما شـــاء متى شاء؛ لكن الله لم يحم البيت لأجل كلمة عبد المطلب، ولم يكن ســـلوك عبد المطلب سلوكاً شرعياً؛ وإنما حمى الله البيت لأسباب أخرى، منها: إظهار شرف هذا البيت (ولا يلزم فيه التكرار)، وإظهار شرف هذا الزمان؛ وذلك لإظهار شرف هذا النبي ﷺ الذي يولد في هذا الزمان عند هذا البيت، لتخرج خير أمة أخرجت للناس، تعمر هذا البيت وتحميه.

في التاريخ عبرة:

فلما بُعِث النبي ﷺ وخرجـــت أمته، كان الواجب عليها أن تحمي بيـــت الله. وحين ضعفت الأمة وفرطت في حمايته، أتى القرامطـــة فقتلوا الحجيـــج في يـــوم التـــروية، وأخذوا الحجر الأســـود من الكعبة، واحتفظوا به ســـنين عدداً، وكان كبيرهم يقول وهم يستبيحون الحرم: أين الطير الأبابيل[1]؟ وصدق وهو كذوب. نعم، لـــم تأته الطير الأبابيل، ولا يجوز للمســـلمين أن ينتظروا الطير الأبابيل. كيـــف ينتظرونها وهم أمة قوية كبيرة قادرة؟ بل الواجب عليهم أن يقوموا بأمر ربهم.

إنه قد جاء عـــن النبي ﷺ أن الكعبة تهدم في آخر الزمان، فقال ﷺ: «يخرب الكعبة ذو الســـويقتين من الحبشـــة»[2]؛ حين لا يطـــوف بالبيت طائف، حين تنهار الأمـــة وتتراجع، ويضمحل الإيمان ويقل المؤمنون، ويأذن الله بقرب زوال هذه الدنيا، عندها يهدم البيت، ولـــه في كل حال (رب يحميه) فليس ســـر حماية البيـــت كلمة عبد المطلب، بل بعث هـــذه الأمة التي تحمي البيت بأمـــر ربها، وتحمي حرمات الله، وتحمي عباد الله ولا يجوز لها بحال أن تركـــن إلى الدنيا، وتقول: ربنا ســـيحمي بيته، وينصر عباده، ويظهر دينه.

نعم، سيحدث ذلك؛ لكن بعذاب الجبناء، وبمصاب المتثاقلين، وبإخراج من يكونون يدَ الله، التي ينتقم بها من أعدائه، ويظهر بها أمره في الأرض.

---

(١) فعل القرامطة هذا عام 317 هـ، واحتفظوا بالحجر الأسود مدة اثنتين وعشرين سنة. راجع البداية والنهاية لابن كثير (160/11 – 161) ط. مكتبة المعارف – بيروت.

(٢) متفق عليه: البخاري (1524)، ومسلم (5288) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الإخوان والسلفيون... مقال مكرر !

أحمد بـن عبد الرحمـن الصويان

alsowayan@albayan.co.uk

تردَّدت كثيراً في كتابة هذا المقال؛ فما الجديد الذي يمكن أن أضيفه ها هنا، وقـد كتبتُ وغيري في ذلك مقالات كثيرة؟ لدرجة أنني خشـيت أن يفهم القارئ الكريم أنني أكرر نفسي وأعيد تسطير ما كتبته مراراً بأسلوب آخر. وأعترف بادىء ذي بَدء أنني لن آتي بشـيء جديد؛ لكنني مع ذلك كله أحسب أنني بحاجة ماسـة إلى أن أكرر نفسي هذه المرة لأذكِّر إخواني بهذا الواجـب العظيم؛ خاصة في هذه المرحلـة التاريخية التي تمر بها المنطقة.

وأستأذنكم في إثارة السؤال الآتي: هل هذه المرحلة التي تمرُّ بها المنطقة العربية هي مرحلة صراع وتنافس بين الإخوان المسلمين والسلفيين؟ أم أنها مرحلة تتسابق فيها الاتجاهات العَلمانية المعادية للدين بمختلف أطيافها (الفكرية والسياسية) لإقصاء الإسلاميين، كلِّ الإسلاميين، ومن ثَمَّ تشـكيل هوية المجتمعات الإسلامية وَفْقَ الرؤية الغربية للمبادىء والأفكار والقيم؟

إن الصراع السياسـي الذي تشـهده المنطقة ليس صراعاً حزبيـاً يُختزَل في الحصول على مقعد أو مقعَدين في البرلمان، أو الاسـتئثار بإدارة مسجد أو مدرسـة ونحوها؛ بل هو صراع على العقيدة والهوية؛ فإما (الإسلام أو العَلمانية).

لقد كشـفت الثورات العربية عن قلق شديد لدى التيارات الليبرالية على مشـروعها الفكري والقيمـي الذي بنته خلال عقود طويلة، بتحالفها مع أنظمة الاسـتبداد المتتابعة في عالمنا العربي، وأخذت تُجلِب بخيلها ورجلها، وتتعامل بتشنج شديد مع الواقع الجديد؛ من أجل المحافظة على تلك المكتسبات.

والوعي بطبيعة الصراع وأولوياتـه في هذه المرحلة، أحدُ أهم أسـباب الائتلاف والتعاون بين الإسلاميين؛ لأن الاختلاف والتنازع لن تكون نتيجته إخفاق فصيل أو تراجع حزب فحسب؛ بل معناه انحسـار المشروع الإسلامي وتقدُّم المشروع العَلماني. قال اللـه – تعالى –: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَـلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [**الأنفال**: ٤٦]، فهذه سـنة من سـنن الله التي لا تتبدل ولا تتخلف؛ فالتنازع من أعظم عوامل الفشـل، والنهي

عن التنازع في هذه الآية نهي عن كل أسبابه المؤدية إليه، ومن لطائف التوجيهات القرآنية أن الله – تعالى – صدَّر الآية بقوله – سبحانه –: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وختمها بقوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. فقيم الاجتماع والتعاون تحتاج إلى التزام بطاعة الله – عز وجل – وطاعة رسوله ﷺ، ثم تحتاج إلى صبر في ترويض النفس على تقديم المصلحة العامة والآجلة، على المصالح الخاصة والعاجلة.

إن من سنن الله في مَن قبلنا: أن الفرقة والبغضاء نتيجة رئيسية من نتائج ترك بعض ما أمروا به. وسنن الله لا تتبدل ولا تحابي أحداً. قال الله – تعالى –: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤]. قال قتادة في تفسير هذه الآية: (إن القوم لما تركوا كتاب الله، وعصوا رسله، وضيعوا فرائضه، وعطلوا حدوده، ألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة بأعمالهم أعمالِ السوء، ولو أخذ القوم كتاب الله وأَمْره، ما افترقوا ولا تباغضوا)[1].

وقال ابن تيمية: (متى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرَّق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب)[2].

إذن، المنطلق الرئيس لتحقيق الائتلاف والتعاون يكون في تربية الدعاة على الاعتصام بالكتاب والسنة، والتجرد في العمل لنصرة الإسلام، وإخلاص القصد لله – عز وجل – وتأكيد المحبة والولاء للدين وأهله، ومبادرة القيادات والقدوات لتحقيق ذلك. قال الله – تعالى –: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. ولا شك أن الإصلاح بين العلماء والدعاة من أعظم القربات التي ينبغي أن يتنافس فيها المصلحون. قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال – تعالى –: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]. والتقصير في هذا العمل سيكون له أثر عظيم في واقع الأمة،

(١) تفسير الطبري: تفسير سورة المائدة، رقم (١١٦٠١).
(٢) مجموع الفتاوى: (٣/ ٤٢١).

وقد صح عن الرسول ﷺ قوله: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال: (صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة)[3].

ولا أذكر أنني التقيت أحداً من العلماء أو من قيادات العمل الإسلامي إلا وجدته يتحدث عن خطورة الفرقة والاختلاف، وينادي بضرورة التعاون والتكامل، لكن المشكلة في تقديري إنما هي في ضعف المبادرات العملية التي تسعى جادة في رأب الصدع وتأليف القلوب، وتعزيز ثقافة الأخوة والتناصر والتعاون على البر والتقوى. ونجاح ذلك مرهون بصدق التوجه في تحقيق هذا المطلب العظيم. قال الله – تعالى –: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥]. وهذه الآية في الحَكَمَين يسعيان للإصلاح بين الزوجين، وهو في الإصلاح في أمر الأمة أعظم.

إنني أدرك أن بعض الخلاف بين السلفيين والإخوان خلاف حقيقي يجب أن يدرسَ بعلم وورع، ويقدَّر بقدره الصحيح، ونجتهد في إحياء فقه التناصح والتواصي بالحق، فذلك من أعظم حقوق الأخوَّة ومقومات التعاون. لكن لعلكم تتفقون معي على أن كثيراً من الخلاف الحاصل في الساحة الدعوية إنما هو خلاف ليس له حظ من الأثر أو النظر، ويُحمَّل أحياناً ما لا يحتمل من التباعد والتدابر، وهذا الواقع إن كان سائغاً في مرحلة سابقة، فإنه لا يسوغ بحال في هذه المرحلة الحرجة التي يعاد فيها تشكيل وبناء الخارطة السياسية والفكرية في عالمنا العربي.

إنَّ صناعة التغيير والإصلاح لن يحمل لواءها، ويقطف ثمراتها، إلا من تميزوا برجاحة العقل، وطهارة الهدف، وسمو النفس عن لعاعة الدنيا، فإمامة الشعوب لا ينالها أهل الأهواء. قال – عز وجل –: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

يا أيها السلفيون! يا أيها الإخوان! قال لكم رسول الله ﷺ: «لا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[4].

فاللهم! اجمع كلمتنا على كتابك وسنة نبيك ﷺ، وأعذنا من نزغات الشيطان وأهواء النفوس.

(٣) أخرجه: الترمذي رقم (٢٥٠٩)، وأبو داود رقم (٤٢٧٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.
(٤) أخرجه: البخاري في كتاب الخصومات (٥/ ٧٠)، رقم (٢٤١٠).

جوال

الكبير

للإشتراك
ارسل رسالة فارغة

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

zain ٧٠٤٠٤٧

رسائلنا تحكي أهدافنا

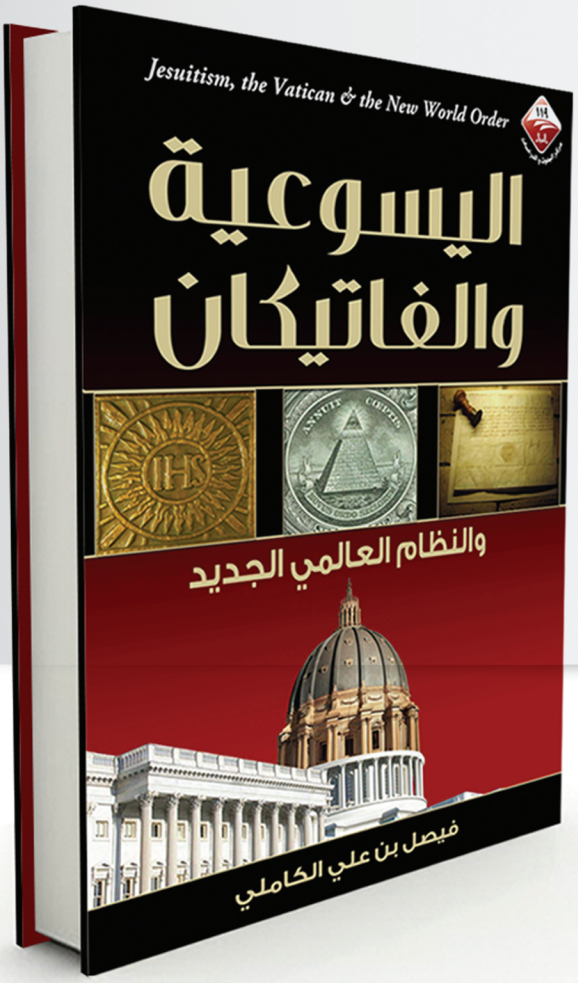

اليسوعية والفاتيكان

و النظام العالمي الجديد.

جديدنا

اكتشف السر بعد خمسمائة عام من نذور الكتمان !

- **ما أخطرُ الجماعات السرية على الإطلاق ؟ ولم لا نعلم عنها شيئاً ؟**
- **ماذا تعرف عن ((أصحاب الأيكة)) الجدد ؟**
- **هل الماسونية حقاً صناعة يهودية ؟ فمن تخدم إذن ؟**
- **لم لا تتغير سياسة أمريكا بتغير الزعماء ؟ ومن هو الموجه الحقيقي لهذه السياسة؟**
- **ما حقيقة التحالف البابوي ـ الصهيوني ؟ وماذا يراد للقدس ؟**

وثائق سرية وحقائق مزعجة تقرؤها لأول مرة بالعربية في كتاب

((اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد))!

Badr: 0508948947

مجلة البيان

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـــدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـــة والمدينـــة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـــة الجنوبيـــة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـــة الشرقيـــة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـــة القصيـــم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

هدية لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر محرم1433هـ

مجاناً على المتجر

www.albayan.co.uk